دراسات في اللغة

الدكتور ابراهيم السامرائي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة العاني - بغداد

بغداد ١٩٦١

ساعدت جامعة بغداد على نشره

دراسات في اللغة

الدكتور ابراهيم السامرائي

بغداد ١٩٦١

مطبعة العاني ـ بغداد

تمهيد

هذه دراسات فى فقه اللغة ، تتصل طائفة منها بالعربية وحدها ، كما تفيد من أسلوب المقارنات والموازنات بين اللغات السامية فى طائفة اخرى • وقد قمت بهذه الدراسات يحدونى دافع بحث المشكلة اللغوية الخطيرة فى هذا المجتمع العربى الذى تبرز فيه هذه المشكلة بجلاء ، وأنا آمل أن أضيف شيئا فى هذه الدراسات ، ثقة منى أن الجهود المختلفة فى طرائق البحث تعين على فهم المشكلة اللغوية •

وما زال فى العربية حتى يومنا هذا ، مجال للبحث والدرس بالرغم من الجهود النافعة التى قام بها الاقدمون •

وقد نشرت طائفة من هذه البحوث فى المجلات العراقية مثل (سومر) ومجلة المجمع العلمى العراقى ومجلة كلية الآداب ومجلة كلية التربية والمعلم الجديد بعد أن أضفت اليها أشياء جديدة مما هدانى اليه البحث واعادة النظر بصورة متواصلة ، كما ضممت اليها بحوثا لم أنشرها ، وأنا أجمع هذا الشتيت من الابواب فى كتاب خاص لتيسر الفائدة لطلاب العلم والمعنيين بالموضوعات اللغوية بوجه خاص •

مقـــدمة

ألفت الامم كافة لغاتها واستعملتها حتى أدى بهـا الامر الى الاعجاب الذى تجاوز الحد المعقول . وقال كل بقدم لغته وافتخر بمجدها الاثيل ، وانهـا باقيـة على الدهر ، فزعم الصينيون ذلك ، وادعى الارمن ان لغتهم صاحبة الشرف وأن اللغـات الاخرى فروع عليهـا ، ذلك أن الله ـ جلت قدرته ـ قد جبل آدم من تربتهم ، وأنه درج فى أرضهم ، وهم من أجل ذلك ورثة لغته الاولى . وكل هذا دعاوى لا تتفق والبحث العلمي التاريخي .

وزعم العبرانيون أن العبرية هى اللغة الاولى ، وأن الله قـد علم آدم هذه اللغة الشريفة وهم يبنون دعواهم هذه على ما جاء فى الاصحاح الثانى من سفر التكوين[1] : « وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البرية ، وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » .

وجاء الآراميون فنادوا بشرف لغتهم وانها كانت لغة السيد المسيح وأمه العذراء . وانها لغة الاسفار المقدسة ، فقد كتب بها سفرا دانيال وطوبيا وسفر يهوديت وسفر عزرا وسفر استير .

واعتقد الاغريق ان لغتهم ذات شرف ومجد عظيمين وانها لغة الحكمة ، وانها خلاصة ما يصل اليه العقل البشرى ، وانها ذات أسرار تنبني على عبقرية خارقة ، وان الالياذة والاوديسا نموذج لهذه الموهبة اللسانية العالية ، وقد جذبتا بروعتهما جمهور المتأدبين وقد نمقتا بلغة قديمة ، ولا سبيل الى فهمهما وتذوقهما الا بدراسة خاصة لنصوصهما . وقد أسرف بعضهم فظن أن الاغريقية مرآة ينعكس عليها النظام الكونى فى أبهى حلله ، وانبثقت عن

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الثانى ، الآية ١٩ ، ٢٠ .

اسماعيل (ع) ، وضعه على لفظه ومنطقه[٦] .

هـذه النظرة الفلسفية قواعـد نحوية وفلسفية عامـة ، ولـكنها لا تتعدى الاغريقيـة .

ثم جاء المسـلمون فبحثوا فى العربيـة واعجبوا بهـا ، وسحرتهم لغة التنزيل فكان ما كان من دراسـات فى مسـألة الاعجـاز ، وجرتهم هـذه الدراسات الى القول بالتوقيف والاصطلاح فى الكلام على العربية والى هذا ذهب أحمد بن فارس من أئمة اللغـة فى القرن الرابـع معتمدا على قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها »[٢] ، وهو يشير الى قول ابن عباس : « ان الله علمه الاسماء كلها وهى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها »[٣] . ولم يقتصر ابن فارس على القول بالتوقيف فى اللغة ، فعنده ان الخط العربى توقيف لظاهر قوله عز وجل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسـان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسـان ما لم يعلم »[٤] . وقال جل ثناؤه : « والقلم ومـا يسطرون »[٥] . وان أول من وضع الكتاب العربى

ويأتى أبو الفتح عثمان بن جنى من علمـاء القرن الرابـع الهجرى فيعرض للمسـألة نفسـها فى « باب القول على أصـل اللغـة ألهـام هى أم اصطلاح» وابن جنى يعرض للمسألة فيذكر عدة آراء فى الموضوع ، وهو يقول فى اول هذا الباب : « ان أكثر أهل النظر على ان أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى ولا توقيف . الا أن أبا على رحمه الله قال لى يومـا : هى من عنـد الله ، واحتج بقوله سـبحانه : « وعلم آدم الاسـماء كلها »[٧] . وابن جنى يعرض رأى القائلين بالتوقيف ويشرحه وكيف أن

---

(٢) البقرة ٣١ .
(٣) ابن فارس ، الصاحبى ٥ .
(٤) العلق ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
(٥) القلم ١ .
(٦) ابن فارس ، الصاحبى ٧ .
(٧) ابن جنى ، الخصائص ١/٤٠ .

الله علم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات ، ثم يعود فيعتل للقائلين بأن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة • ثم ينقل ابن جنى رأى من يقول ان أصل اللغــات كلهــا انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير المـاء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك • ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد • وهو يقول : وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل •

وابن جنى لا يقطع فى ذهابه الى رأى من هذه الآراء ، وهو فى عرضه لهذه الآراء متردد فى الاخذ بأحدها وهو يقول : « واعلم اننى على تقـادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات على فكرى • وذلك اذا تأملت حال هذه اللغة الشـريفة ، الكريمة اللطيفة ،وجدت فيهـا من الحكمة والدقة والارهاف ، والرقة ، ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر • فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنـا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت تتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه • ولطف ما اسعدوا به ، وفرق لهم عنــه • وانضاف الى ذلك وارد الاخبـار المأثورة بانها من عند الله جل وعز ، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه ــ وانها وحى •

ثم اقول فى ضد هذا : كما وقع لاصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قـد خلق من قبلنا ــ وان بعد مداه عنا ــ من كان ألطف منـا اذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جنانا • فأقف بين الخلتين حسيرا ، وأكاثرهما فانكفىء مكثورا ، وان خطر لى فيما بعد ، يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفهـا عن صاحبتهـا ، قلنا به »[8] •

وقد أشرت الى انهم أحبوا العربية وتعلقوا بها ومن أجل ذلك توهموا أن آدم كان يعرف العربية ونسبوا اليه اشعارا ، كما نسبو للجن اشعارا

---

(٨) ابن جنى ، الخصائص ٤٧/١ •

اخرى ، وهم يرون : « ان أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى اليها ، فانما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأحنائها »[٩] . وانت تحس حين تقرأ في الاخبار ان لسان أهل الجنة عربي مبين ، وانت تقرأ قوله تعالى : « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي »[١٠] ، فتعلم قيمة العربية وشرفها عندهم . وقد اخرج ابن عساكر في تاريخه ، عن ابن عباس ، ان آدم عليه السلام كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية وتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية »[١١] . ومن أجل هذا فالعربية عندهم أفضل اللغات وأوسعها ، ذلك انها لغة التنزيل قال تعالى : وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك ، لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »[١٢] . ولهذا فقد كان اللحن في العربية بمنزلة الضلال كما جاء في الحديث ان رسول الله (ص) قال لرجل لحن : ارشدوا أخاكم فانه قد ضل ، وقال ايضا رحم الله امرءا أصلح من لسانه[١٣] .

وقد أحب هؤلاء العربية فدرسوها واهتدوا لمسائل دقيقة فيها . قال الفراء : « وجدنا للغة العرب فضلا على لغة جميع الامم اختصاصا من الله تعالى وكرامة أكرمهم بها ، ومن خصائصها انه يوجد فيها من الايجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات »[١٤] .

ومن اعجابهم بالعربية انها عندهم فاقت سائر اللغات في رشاقة ألفاظها ، وحسن بنائها بحيث لا يوجد فيها من الثقل والاعوجاج ما يوجد في غيرها من اللغات التي تمت الى العربية بقرابة النسب وهي اللغات السامية . ولعل من

---

(٩) ابن جني ، الخصائص ٣/٢٤٥ .
(١٠) سورة النحل ١٠٣ .
(١١) السيوطي ، المزهر ١/٣٠ .
(١٢) ابن فارس ، الصاحبي ١٢ .
(١٣) ابن جني ، الخصائص ٣/٢٤٥ .
(١٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ١/١٤٩ .

الطريف أن نورد خبرا ذكره ابن الاثير في المثل السائر : « وحضر عندي في بعض الايام رجل من اليهود ، وكنت في الديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان عمله في دينهم وغيره ، وكان كذلك فجرى ذكر اللغات ، وان العربية هي سيدة اللغات ، وانها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعا ؛ فقال ذلك الرجل : كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؟ ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة ، فاختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ، فمن ذلك اسم الجمل ؛ فانه عندنا في اللسان العبراني (كوميل) ممالا على وزن فوعيل ، فجاء واضع العربية وحذف منها الثقيل المستبشع ، وقال : « جمل » فصار خفيفا حسنا ، وكذلك فعل في كذا وكذا وذكر أشياء كثيرة »[١٥] .

على ان هذا الاعجاب بالعربية لا ينصب الا على الفصيح منها فلم يأبهوا باللسان الدارج السائر الذي يبتعد عن الفصيح ، وتمسكهم بالفصيح أدى الى نظرة ضيقة شاعت في نقدهم للنصوص ، فقد حصروا الفصيح من لسان العرب في لغة الجاهليين والصدر الاول للاسلام وهذه النظرة الضيقة لم تفد العربية ، فضاع شيء من العربية لم يصلنا ، لانهم لم يهتموا به لبعده عما توهموه فصيحا .

وظلت الدراسات اللغوية ملازمة حالة واحدة عبر العصور فلم يجد فيها شيء وما كان من اللاحق الا أن يؤكد ما قاله الاقدمون وينسج على منواله . حتى جاء العصر الحديث بعلومه وحضارته فجدت علوم ، وعفت اخرى ، وكان من ذلك أن ظهر علم اللغة الحديث وأفادت اللغات الاوربية من مناهجه الجديدة ، غير أن المعنيين بالعلوم اللغوية من العرب لم يفيدوا من الاساليب الجديدة ، وهكذا ظلت الدراسات اللغوية العربية باقية في طرائقها القديمة .

---

(١٥) ابن الاثير ، المثل السائر ١/١٩١ (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد مصر ١٩٤٨) .

في تاريخ المشكلة اللغوية

(١)

الاهتمام باللغة أمر تستدعيه ضرورة قائمة ، ذلك أن المشكلة اللغوية من المشكلات الخطيرة ، ومن أجل ذلك نشطت المجامع العلمية فى الاقطار العربية فى العمل على حل هـذه المشكلة القائمة ، وتبرز المشـكلة فى أن العرب فى يومنا هذا لا يتكلمون بالفصيح من العربية ، فالعامى الدارج هو المستعمل ، وأمر العامى مشكلة من المشكلات ايضا ، فهناك لهجات مختلفة باختلاف البلاد ، ثم ان البلد الواحد مشتمل على لهجات وطرق فى التعبير مختلفة ايضا ، وربما صعب على العربى من شمالى العراق أن يفهم من قروى من سكنة الاهوار فى الجنوبى من العراق •

ومسألة تقريب العامية م ن الفصيحة أمر يتعلق بالزمن الطويل ، فليس من الممكن القيام بمشروع أو بحث للوصول الى هذا الهدف الخطير ، وأنا أقول متعلق بالزمن ، لعلمى ان خير الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا هو نشر العلم والثقافة بين أبناء البلد الواحد ، بحيث يتيسر لجميع أبناء البلد قسط من العلم والمعرفة ، ومن شـأن هـذا أن يعمـل على رفع مستوى اللغـة المستعملة ، التى هى قريبة من الفصيحة • ونستطيع أن ندلل على قربها من الفصيحة اذا نظرنا الى اللغة التى يستعملها المثقفون اليوم فى محادثاتهم وفى استعمالاتهم اليومية ، فهى لغة فى مجموعها تكاد تخلو من اللفظ العـامى الدخيل ، فمجموعة ألفاظها على العموم فصيحة ويبدو قربها من الفصيح اذ وازنا بين هذه اللغة التى يستعملها المثقف ــ وهو من اسرة جاهلة ــ واللغة التى يستعملها سائر أفراد اسرته والتى هى موغلة فى العامية الدارجة •

ولابد أن نعرض لهذه اللغة القريبة من الفصيحة بالبحث ، التى نحن سائرون اليها فى مستقبلنا القريب أو البعيد لتحدد صفاتها وميزاتها التى تتميز بها ثم نخلص من ذلك الى البحث التاريخى لنقرر مرحلة من مراحل تاريخ العربيـة الطويل ، فالتاريخ اللغوى من الامور الغامضـة ، ذلك أن الباحث لا يهتدى الى المراحل التطورية فى هـذا التاريخ الطويل • وربما انقطعت عنه حلقات طويلة وضاع أثرها وبهذا فليس من الممكن رسم تاريخ محكم

الحلقات لهذه اللغة ، فلقد ضاع من اصولها شيء كثير ، ومن أجل هذا فهي بدع في اللغات الحية المتطورة على قوتها واصالتها وحيويتهـا وقابليتها في مسايرة الزمن وتطوره . ولقد أثر عن أبي عمرو بن العلاء انه قال : « ما انتهى اليـكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لانتهى اليكم علم وشعر كثير »(١) .

وأنا أفترض أن تكون هذه اللغة القريبـة من الفصيحة ، والتي تكاد تخلو من أي لفظ دخيـل عامي ، متخففة من قيود الاعراب فالكلمات فيهـا ساكنة الاواخر ، ولعل هذه المرحلة مهمة في العود الى الفصيح المعرب كما هي الحـال في اللغة المـكتوبة ، التي ورثناها في التراث العربي ، كمـا في لغة القرآن الكريم .

ولابد أن نعرض للاعراب عرضا تاريخيا فنقول : لقد احتفظت اللغة العربيـة الفصيحة بظاهرة الاعراب ، وهي من صفات العربيـة الموغلة في القدم ، في حين ان سائر اللغات السامية ـ عدا الاكدية ـ قد فقدت الاعراب منذ أقدم العصور ، وقـد دل على هـذا الاعراب بقايا نجدهـا في العبريـة والحبشية(٢) وأما في اللغة الاكدية فقد عرفت الحركات الثلاث في البابلية في النصوص القديمة ، ثم تطورت هذه الحركات الثلاث وانتهت الى حركتين هما الضمة للرفع والفتحة للنصب والجر ، ولم تلبث هـذه المرحلة طويلا حتى تطورت الى مرحلة الحركة الواحدة وهي الكسرة الممالة .

ولعل علاقة اللغة النبطية بالعربية وقربها منهـا أوجد الاعراب من النبطية كمـا تؤيد ذلك النقوش التي عثر عليها . وقـد ذهب Noldke المستشرق الالماني الى أن النبط كانوا يسـتعملون الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حـالة النصب والـكسرة في حـالة الجر ، ولا يعقبون هـذه الحركات بالنون(٣) . وعدم وضع النون بعد الحركات يشبه ما هو شائع

---

(١) ابن الانباري ، نزهة الالباء ص ٣٣ .
(٢) Bergstraesser ، التطور النحوي ٣٠ .
(٣)
The. Noldke, Die Semitischen sprachen. Leipzig 1899, S. 51 f.

فى قسم من لهجات العربية الدارجة ، ومن ذلك ما هو مستعمل فى لهجة أهل الموصل فى العراق ، وفى غير الموصل كما فى الاقطار العربية الاخرى .

ويرى المستشرق E. Littmann ان أواخر الكلمات فى اللهجة النبطية قد يحدث فيها تغير بحسب مواضعها فى الاعراب[٤] . وللاعراب أثر فى اللغة العبرانية يتبينه الباحثون فى حالتى المفعول به وفى ضمير التبعية[٥] ، على ان هذا الاثر ضئيل جدا ، فقد أوشكت تخلو لغة العهد القديم من الاعراب . غير ان علامة النصب فى العبرية القديمة هى الفتحة الطويلة التى نشأ عنها حرف الهاء ، والهاء المتطرفة فى هذه اللغة تشبه الالف اللينة ، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف المد ، وتظهر هذه فى آخر الاسم المنصوب بنزع الخافض ، كما فى آخر الظرف المنصوب (ليلا)[٦] وتعنى (ليل) ، و (عتا)[٧] وتعنى (حين) . وكما تلحق هذه العلامة الظروف ، فانها تلحق المصدر فينصب كما هو فى المفعول المطلق فى العربية ، ولكنها فى هذه الحالة تكون متلوة بميم زائدة (للتمييم) الذى يقابل التنوين فى العربية ، مثال ذلك (يومام) وتعنى (يوما) و (حنّام) وتعنى (مجانا) ، والمتتبع لشوارد النصوص فى اللغة العبرية ربما وجد آثارا تشير الى شيء يشبه الضمة والكسرة ، ولعلهما بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين فى العبرية القديمة[٨] .

ويعلل المحدثون ـ وجلهم من المستشرقين ـ ظاهرة الاعراب فى

---

(٤) E. Littmann Inscripitions Leiden 1914 p. 37 ff.

(٥) ولفنسون ، تأريخ اللغات السامية ص ١٥ .

(٦) تكتب الهاء فى العبرية فى آخر الاسم ولا تلفظ .

(٧) ربما قابلت هذه الكلمة فى العربية (حتى) فقد قرأ ابن مسعود (عتى حين) فى قوله تعالى (ليسجننه حتى حين) (يوسف ٣٥) وهى لغة هذيل التى نهاه عمر أن يقرىء الناس بها أنظر الزمخشرى ، الكشاف ٤٦٨/٣ مطبعة الاستقامة ١٩٤٦ . وقراءة ابن مسعود من شواذ القراءات ، انظر ابن خالويه ، مختصر فى شواذ القرآن .

(٨) أنظر (النون فى اللغة العربية) الجزء الثالث من مجلة كلية الآداب والعلوم ١٩٥٨ .

العربية وفى سائر اللغات السامية بخلو هـذه اللغات من ادغام للكلمات أى وصل كلمة لتتكون من الكلمتين كلمة واحدة لها معنى مركب منهما كما فى اللغات الآرية[٩] • وليس من حجة علمية تاريخية تثبت صحة هذه الدعوى ، والذى ثبت فى التحقيق العلمى ان فى العربية تراكيب كثيرة ، وانها استفادت من التركيب لتكثير المعانى والمبانى ، وقد اعتمد البناء فى العربية على التركيب بصوره المختلفـة ، وكان مذهب الخليـل بن أحمد أن الكلمتين اذا ركبتـا ولـكل منهما معنى وحكم أصبح لهما بالتركيب حكم جديد[١٠] • وتبع الخليل فى مقالته جمهور الكوفيين ومنهم الكسائى والفراء • ومن أجل ذلك فليس عدم التركيب علة فى الاعراب ، وذلك لوجود التركيب والاعراب فى العربية فى الوقت نفسه •

ويختلف الرأى فى دلالة الحركات على المعانى الاعرابية بين القدماء والمحدثين فى اللغة العربية • وأول من أشار الى هـذه المشكلة من القدامى هو الخليل بن أحمد ، ذكر سـيبويه[١١] أن الخليـل قال : « ان الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحروف ليوصل الى التكلم به والبناء هو الساكن لا زيادة فيه » • ولعل الجدل فى دلالة هذه الحركات على المعانى الاعرابية وعدم دلالتها على ذلك ، دار بين تلاميذ سيبويه والكسائى فذهب جمهورهم مذهب الاول ، وذهب آخرون مذهب الثانى •

ويمثل رأى الذاهبين الى أن الحركات دوال على معان اعرابية ، أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحق الزجاجى ، فقد نقـل السـيوطى فى الاشباه والنظائر[١٢] قوله : « ان الاسـماء لما كانت تعتورهـا المعـانى وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، جعلت حركات الاعراب تبين عن هذه المعانى وتدل عليهـا ليتسع لهم فى اللغة ، يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة » •

---

(٩) Carl Brockelmann, Grundriss, I. S. S.
(١٠) ابن جنى ، سر صناعة الاعراب ـ حرف الـكاف ـ •
(١١) سيبويه ، الـكتاب ٢/٣١٥ •
(١٢) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/٧٦ ـ ٧٨ •

ويمثل رأي الطائفة الاخرى قطرب أبو علي محمد بن المستنير وهو تلميذ سيبويه ، قال قطرب : انما أعربت العرب كلامها ، لان الاسم في حال يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للاسكان ، ليتبدل الكلام . ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ولم يجعلوا بين ساكنين في حشو الكلمة ، ولا في حشو بيت ولا بين أحرف متحركة ، لان في اجتماع الساكنين يبطئون في كثرة الحروف المتحركة ، ويستعجلون ، وتذهب الصلة في كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الاسكان(١٣) .

وفي هذا الرأي توضيح وابانة لرأي الخليل الذي أسلفنا ذكره .
وممن ذهب مذهب قطرب من المحدثين الدكتور ابراهيم انيس ، ولكنه حلا له أن يلتزم بالرأي مفصلاً فيه وكأنه أول من قال بهذا الرأي(١٤) .
والوجه في هذا الرأي ان هذه الزوائد الاعرابية يلجأ اليها لامور فنية (Technique) ، وهو أن الموسيقى والانسجام يستدعيان هذه الزوائد الاعرابية ، ومعنى هذا انه ليس للحركات الاعرابية مدلول ، وان الحركات لم تكن تحدد المعاني في اذهان العرب الاقدمين ، وهي لا تعدو أن تكون حركات يحتاج اليها في كثير من الاحيان لوصل الكلمات بعضها(١٥) .
ويرى الدكتور أنيس أن « النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الاعراب ، وقاسوا بعض الاصول ، رغبة منهم في الوصول الى قواعد مطردة منسجمة »(١٦) . ثم انه يفترض افتراضا لا يقوم على أساس علمي تاريخي ، فيقول : « ولعلهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كاليونانية ، ففيها يفرق بين حالات الاسماء التي تسمى Cases ويرمز لها في نهاية الاسماء برموز معينة »(١٧) . ولقد فاته أن اليونانية تختلف نحوا وطبيعة عن العربية ، ولم

---

(١٣) المصدر السابق ١/٧٩ .
(١٤) ابراهيم انيس ، من أسرار اللغة ص ١٤٢ .
(١٥) المصدر السابق ص ١٥٨ .
(١٦) المصدر السابق ص ١٣٩ .
(١٧) المصدر السابق ص ١٧١ .

يكن واضع النحو عارفا أو متأثرا باليونانية بأى وجه من الوجوه ، والقول بالتأثر باليونانية فى الثقافة العربية الاسلامية شائع عند الكتاب المصريين ، فالى مثل هذا ذهب كل من الدكتور طه حسين والاستاذ أحمد أمين والدكتور ابراهيم مدكور[18] والدكتور ابراهيم سلامة[19] . وقد بنى ابراهيم مدكور رأيه فى تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو على أمور :

(١) اعتبار القياس أصلا من أصول النحو وتحديده ووضعه على نحو ما حدد القياس المنطقى ثم التشابه بين ما جاء من تقسيم الكلمة عند سيبويه الى اسم وفعل وحرف وما جاء من تقسيمها عند أرسطو الى اسم وفعل وأداة .

(٢) ظهور النحو السريانى فى مدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى على مقربة من النحاة العرب الاولين ، ثم ترجمة عبدالله بن المقفع لمنطق أرسطو التى تعد كما يقول ثروة جديدة نقلت الى العالم الاسلامى ، ثم تلمذة بعض السريان على الخليل بن أحمد كحنين بن اسحاق الطبيب السريانى المعروف الذى كان له أثر فى نقل علوم اليونان . وقرر الدكتور أن حنينا قد عاصر الخليل وسيبويه ، وليس مدكور أول من ذهب الى هذا ، فقد قال بهذه المقالة قدماء ومحدثون .

ومن القدامى ممن ذهب الى هذا ابن أبى أصيبعة فى (عيون الانباء)[20] ونقل هذه الرواية القفطى[21] ، وقد ذهب الاستاذ أحمد أمين هذا المذهب من المحدثين[22] ، ورد هذه الاقوال يقوم على ان الخليل لم يعاصر حنينا فوفاة الخليل كانت فى سنة ١٨٠ أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، وان ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ ، فلم يدرك اذا حنين الخليل ولا

---

(١٨) ابراهيم مدكور ، مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية ١٩٤٨ - ١٩٤٩ (منطق ارسطو والنحو العربى) .

(١٩) ابراهيم سلامة . بلاغة ارسطو بين العرب واليونان .

(٢٠) ابن ابى اصيبعة ، عيون الانباء ١/١٨٤ .

(٢١) القفطى ، اخبار العلماء باخبار الحكماء ١١٧ .

(٢٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ١/٣٩٨ .

رأه ، والزعم باطل من أساسه . والقول بهـذا التأثر نتيجة تقليـد هؤلاء المحدثين للمستشرقين في اقوالهم ، فالى مثل هذا ذهب (دى بور) في تاريخ الفلسفة في الاسلام[٢٣] .

ويستدل الدكتور ابراهيم أنيس بخلو اللهجات الاقليمية الحديثة من الاعراب على عدم شيوعه في اللغة العربية في مراحلها الاولى[٢٤] ، على اننا لا يمكننا أن نجعل من خلو اللهجـات الدارجة من الاعراب دليـلا على ان الاعراب ظاهرة لم تكن موجودة في العربية الاولى[٢٥] ، وقـد رأينـا أن اللغات السامية جميعها كانت معربة ثم زال اعرابهـا في العهود التي تعاقبت على مراحلها الاولى . وقد أطال الدكتور علي عبدالواحد وافي في الرد على زميله الدكتور أنيس في كتابه « فقه اللغة » .

وقـد عرض الاسـتاذ ابراهيم مصطفى للموضوع نفسه ، فقرر أن الحركات دوال على معان ، بل ان من اصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني ، ثم هو يقول « وما كان للعرب أن يلزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص ، وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئا . ونحن نعلم أن العربية لغة « الايجاز » وأن العرب كانوا يتخففون ما وجدوا السبيل الى ذلك ويحذفون الـكلمة اذا فهمت والجملة اذا ظهر الدليل عليها ، والاداة اذا لم تكن الحاجة ملجئة اليها . وعنده أن الفتحة ليست علامة اعراب ، ولا دالة على شيء ، وانما هي الحركة الخفيفة المسـتحبة عنـد العرب ، فهي بمثابة السكون عند العامة[٢٦] وأما الضمة فهي علم الاسناد أما الكسرة فانها علم الاضافة[٢٧] . ورأى الاستاذ ابراهيم مصطفى في دلالة الفتحة غريب ، فقد دلت المقارنات على أن الفتحة وجـدت في حالة النصب في كثير من اللغات

(٢٣) دى بور ، تأريخ الفلسفة في الاسلام .
(٢٤) ابراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ص ١٣٩ .
(٢٥) على عبدالواحد وافى ، فقه اللغة ص ١٣ .
(٢٦) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ٥٠ .
(٢٧) المصدر السابق ٨٠ ــ ١٠٠ .

السـامية ، ولم يكن هنـاك سـبب للفتحة « المسـتحبة » كمـا أسـماها .
ويرى الاسـتاذ Marcel Cohen أن هـذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعـد الاعراب لم تكن مراعاة الا فى اللغة الفصيحة الادبيـة . أمـا لغـة التخاطب ، فلم تكن معربة[٢٨] . وهو يستدل على ذلك بأن قواعد هذا شأنها فى التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقة بعضها ببعض ، كل هذا غير ممكن فى لغة التخاطب ، وانما هو من اختصاص اللغة الفصيحة ، لغة الصفوة المهذبة . أما الاستاذ (فك) المستشرق الالمانى فيرى أن الحركات صفة من صفات العربيـة ، وسمة من أقدم سماتها اللغوية ، والتى فقدت فى أخواتهـا السـاميات باستثناء البابليـة القديمة[٢٩] . وعنده ان العربية حافظت فى مختلف عصورهـا على هـذه الظاهرة بالرغم من ظهور اللحن واللهجات الاقليمية فى الحواضر .

وأريد الآن أن أبسط رأيا ، وهو أن العربيـة التى ورثناهـا ، والتى نعـرف من أمرهـا الشـىء الثابت الصـحيح ، لا تتعـدى الاسـلام فى التاريخ الزمنى كثيرا . ومعنى هـذا ان العربية الممثلة فى لغة التنزيل ، هى العربية التى نقيم عليها البحث والدرس ، وما العربية الجاهلية الا شىء من هـذه العربية الاسـلامية ، ولا أريد أن أقول بنظرية الانتحال ، ففى الجاهلية أدب كثير فيه الصحيح وفيه الموضوع ، ولكنى لا أستطيع أن أجعل مادة للدرس والبحث ، هذه النصوص الجاهلية التى لا نعرف عن بدايتهـا ونهايتها كثيرا ، وأترك هذه النصوص الاسلامية وفى مقدمتهـا كتاب الله . والعربية ــ ممثلة فى القرآن ــ لغة عالية سلخت من تاريخها مراحل طويلة ، حتى انتهت الى هذا الشكل من الكمال . والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليمية . وأريد أن أخلص الى أن هذه اللغة العالية قد ثبتت من

---

(٢٨) Marcel Cohen, Les Langues du monde عن فقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافى ص ١٣٠ .

(٢٩) « يوهان فك » ، العربية (ترجمة النجار) ص ٣ .

أصول اللغة وقواعدها ، وانها التزمت الاعراب الذى لم يكن شائعا ومستعملا على نحو ما التزمت به نصوص القرآن وسنأتى على اثبات هذا الرأى • ومعنى هذا ان العربية فى لهجاتها المتعددة لم تكن متقيدة بهذه الضوابط الثقيلة ، ولـكن هذه اللغة هى التى جعلت الاعراب السمة الملازمة للعربية ، التى أريد لها أن تكون كذلك •

والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على الجهود التى بذلت كى تسود لغة التنزيل فى وضوحها والتزامها الاعراب ، وقـد أشرنا الى خبر قراءة ابن مسعود حين سمعها عمر بن الخطاب •

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتى على اللهجـات الدارجة المحليـة ، أو قل على العربيـة المستعملة السـهلة ، والتى تتخفف من قيد الضوابط الثقيل • ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ أن كانت ، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الـكاتب فى كتابته ، ملتزمة بضوابط لاعراب ، ولغة اخرى يقولهـا الناس ويستعملونهـا دون أن يلزموا أنفسهم بعنـاء هـذه الضوابط ، وربما تعدى الامر مسألة الاعراب الى الالفـاظ نفسـها • فقد يكون فى ألفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية ، وانه قـد دخل فيهـا نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الاقوام والاتصـال حاصل فى كل عصر ، فالعرب فى أطراف الجزيرة قد تهيأ لهم أن يتاخموا أقواما غيرهم ، فلم تسلم بذلك سليقتهم • ومن أجل ذلك حرص عمر على الاخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، والى مثل هـذا كان يرمى عثمان من جمعه القرآن ليـكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فينبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه • ولا يعدم الباحث أن يجد فى كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هـذا الباب شيئا كثيرا من القراءات • ومرد ذلك أن الناس قد فطروا على أساليب فى التعبير خاصـة بهم ، وبذلك قرأوا ، وأن طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة اعتبرت من شواذ القراءات • والشواذ من القراءات هى ما خلا تلك التى انتشرت بواسطة القارىء المشهور

ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٢هـ ، كقراءة ابن مسعود وقراءة أبيّ بن كعب واختيار الحسن البصري وأمثالهم ، وهي تعد في باب الشواذ[٣٢] ، وقد ألف غير واحد من الاقدمين في موضوع الشواذ كالعكبري في كتابه اعراب القراءات الشاذة ، والاهوازي وابن عطية والمهدي ولم نعرف مؤلفات هؤلاء ولم يصل الينا منها شيء ، كما اندثر كتاب اللوامع في القراءات وكتاب المحتوى للداني .

ومن أمثال هذه الشواذ التي لا تدل الا على اللهجات الدارجة أو اللهجات الاقليمية ما جاء من شواذ سورة الفاتحة :

قرأ أبو السواد الغنوي « هياك[٣٣] بالهاء المكسورة في الآية الخامسة « اياك نعبد » وقد قرأ عمرو بن فايد « اياك » بالتخفيف ، وقرأ جناح بن حبيش « نستعين » بكسر النون[٣٤] .

وجاء من شواذ البقرة : قراءة يحيى بن وثاب « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر الشين وبالياء حكاه أبو زيد[٣٥] . وقراءة الشجرة بابدال الياء من الجيم اثبات للهجة من اللهجات التي تلتزم هذا الابدال الذي ما زال حاصلا في لهجات القرويين في جنوبي العراق ، وقد قرىء « بين المر وزوجه » بدون همزة مع تشديد الراء[٣٦] .

وقراء مسلمة بن محارب « بعولهن » من قوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » بجزم التاء[٣٧] ، ومعلوم أن « البعولة » جمع « بعل » كما أن « السهولة » جمع « سهل » وعندي أن اختلاف القوم في صيغ الجموع ، راجع الى اللهجات الاقليمية ومعنى ذلك ان كل قبيلة ألفت صيغة من صيغ

---

(٣٢) ابن خالويه ، مختصر في شواذ القرآن (المقدمة) .
(٣٣) المصدر نفسه « شواذ سورة الفاتحة » .
(٣٤) المصدر نفسه .
(٣٥) المصدر نفسه (شواذ سورة البقرة) .
(٣٦) المصدر السابق (شواذ سورة البقرة) .
(٣٧) المصدر السابق .

الجمع لاسم معين ، في حين أن القبيلة الاخرى ألفت صيغة اخرى[٣٨] •

وجاء في سورة المائدة قراءة بعضهم « لعبا » بكسر اللام واسكان العين في قوله تعالى « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » •

وجاء في شواذ سورة الاعراف « الجمل » في قوله تعالى : « حتى يلج الجمل في سم الخياط » بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها ، وهي قراءة ابن عباس[٣٩] ، ومعلوم ان صيغة (فعل) من صيغ جموع التكسير بضم الفاء وفتح العين وتشديدها ، لا يكون مفردها الا فاعلا مثل « راكع » وجمعها « ركع » ، في حين أن مفرد (جمل) هو (الجمل) بضم فاسكان ومعناه الحبل[٤٠] • وقد قرأ أبو السمال (الجمل) بفتح الجيم واسكان الميم[٤١] •

ومن شواذ سورة طه قراءة عكرمة « اهس »[٤٢] بالسين في قوله تعالى : « اهش بها على غنمي » •

ومن شواذ سورة الانبياء قراءة ابن عباس « حضب »[٤٣] بالضاد في قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » وقرىء « حصب » باسكان الصاد ، وقرىء « حطب » بالطاء •

ومن شواذ سورة الحج جاء في كلمة « صلوات » احدى عشرة قراءة[٤٤] في قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » • والقراءات هي

---

(٣٨) المصدر السابق (شواذ سورة المائدة) •

(٣٩) الزمخشري ، الكشاف ٣/١٠٣ ؛ وانظر اللسان مادة « جمل » •

(٤٠) حدث في انجيل متى ١٩/٣٤ تصحيح مثل هذا بين دلالة « الجمل » على الحبل دون الحيوان المعروف • انظر :
. Bar Bahlül, Lexicon 500.

(٤١) ابن خالويه ، مختصر في شواذ القرآن •

(٤٢) المصدر السابق (شواذ سورة طه) •

(٤٣) الزمخشري ، الكشاف ٣/١٣٦ •

(٤٤) ابن خالويه ، مختصر شواذ القرآن (شواذ سورة الحج) •

« صلوات » بفتحتين وهى « صلوات » بضمتين على قراءة أبى العالية والكلبى والضحاك ، و « صلوات » بضم فاسكان على قراءة جعفر بن محمد وهى (صلون) بضم الصاد فلام فواو ونون و « صلوب » بالباء ، و « صلوت » بفتح فاسكان ، و « صلوات » بضم الصاد واسكان اللام وثاء مثلثة فى الآخر و « صلوثا »[٤٥] بثاء فى الآخر مع ألف الاطلاق . والكلمة جمع صلاة وهى تعنى الكنيسة والكلمة سريانية[٤٦] بخلاف ما ذهب اليه الزمخشرى من أنها عبرانية ، وتذييل الكلمة بالالف بقصد التعريف . ولعل صيغ جموع التكسير يمكن أن ترد الى صيغ محدودة ، وذلك أن بعضا منها يحصل من صيغة اخرى باستخدام المد مثلا ، فكلمة « تارة » تجمع على « تير » ، ولكنها تصبح « تيار » باطلاق الفتحة[٤٧] . وهذا يدل على أن صيغ جموع التكسير وصيرورتها على هذه الكثرة ناتج عن اللهجات الاقليمية ، اذ من المعلوم أن أقليما من الاقاليم يطيل فى الحركات حتى تصبح مدا ، ومن هذه ايضا « أسد » بضم الهمزة واسكان السين أو ضمها ، فاذا اشبع الضم على السين صار مدا وصارت الكلمة « أسود » ، ومثل هذا « أحبة » و « أحباء » وكثير غيره .

ويدلنا على اشارة هذه الصيغ الى موضوع اللهجات ما يوجد فى اللغة الحبشية من صيغ جموع التكسير ودلالتها على الموضع نفسه[٤٨] .

ونستطيع أن نوجز أن القراءات فى القرآن تقوم على تغيير فى الحركات وتغيير فى الابنية والصيغ وتغيير فى الاصوات وتغيير فى الالفاظ ، ومجموع هذا يدل على أن طرق التعبير الخاصة وجدت طريقها الى لغة التنزيل ، ولم تجد فى ذلك جهود التوحيد . والقراء يختلفون حتى فى

---

(٤٥) الزمخشرى ، الكشاف ٣/١٦٠ .
(٤٦) القرداحى ، اللباب مادة (صل) .
(٤٧) الجوهرى ، الصحاح مادة (تير) .
(٤٨)
Dillman: Grammatik der celhiopischen Sprache. p. 537

موضوع الاعراب الذى التزمه جميعهم ، فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا(٤٩) • وقد حمل هذا على انه خطأ من كتاب الوحى • فقد روى أبو معاوية محمد بن خازم التميمى السعدى المتوفى سنة ١٩٣ • عن هشام بن عروة بن الزبير المتوفى سنة ١٤٦ • عن أبيه عن عائشة انها قالت : ثلاث أحرف فى كتاب الله هن من خطأ الكاتب وهى قوله تعالى : « ان هذا لساحران »(٥٠) ، وفى قوله تعالى : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة »(٥١) ، وفى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »(٥٢) • وقد حقق النحويون فى حديث عائشة حول غلط الكاتب ، وحديث عثمان فى قوله : « أرى فيه لحنا » ، فاعتلوا لكل حرف منها ، واستشهدوا الشعر ، فقالوا فى « ان هذا لساحران » هى لغة بلحارث ابن كعب(٥٣) ، فهم يقولون : « مررت برجلان » ، و « قبضت منه درهمان » و « جلست بين يداه » و « ركبت علاه » وأنشدوا لهوبر الحارثى(٥٤) :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته الى هابي التراب عقيم

كما اعتلوا لسائر المواضع السابقة علة مناسبة •

وشيوع اللحن فى مختلف الطبقات ، دليل على أن هذا الاعراب ثقيل لا تحتمله سليقة العرب اللغوية ، وكان ذلك فى صدر الاسلام وقبل أن يتم اختلاط العرب بغيرهم ذلك الاختلاط العظيم الذى تم فى العصور المتأخرة ، ثم ان شيوع اللحن لم تسلم منه طبقة المثقفين ولا العلية من القوم ولا العلماء ، فلم تسلم لهشيم بن بشير محدث أهل العراق سليقته اللغوية ، فكان يلحن

---

(٤٩) ابن قتبة ، تأويل مشكل القرآن ١٩ •
(٥٠) سورة طه ٦٣ •
(٥١) سورة النساء ١٦٤ •
(٥٢) سورة المائدة ٦٩ •
(٥٣) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٣٦ •
(٥٤) أبو زيد ، النوادر ٥٨ •

فى كلامه ويشير الجاحظ الى مخالفته المحدثين ما التزم من قواعد الاعراب (٥٥) .

وكان عبدالملك بن مروان يحذر أبناءه من اللحن ، وكان يقول لهم : « ان اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى فى الوجه ، وأقبح من الشق فى ثوب نفيس » (٥٦) .

وشيوع اللحن فى زمان عمر بن الخطاب معروف ، فقد روى أن عمر سمع اعرابيا يقرأ قوله تعالى : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بجر رسوله فنبهه على الخطأ ، وكان ذلك سببا فى وضع النحو ان صحت الاخبار (٥٧) .

والاخبار فى وضع النحو كثيرة لا مجال لذكرها هنا ، ولكنها فى مجموعها تشير الى أن اللحن فى هذه الفترة المتقدمة كان شائعا ، وشيوعه فى قراءة القرآن مما عجل فى وضع هذه الضوابط النحوية للحفاظ على لغة التنزيل من العبث . وشيوع اللحن دليل ايضا على ان للقوم لغة يتخففون فيها من الضوابط الثقيلة وهى اللغة المستعملة وهى لغة الكثير من الناس ، ولغة التخاطب فى الحياة اليومية .

على ان هذه اللغة العامة التى استعملها الناس لم تكن بعيدة عن لغة الكتابة فى مادتها اللغوية ، وكأن من شرط هذه اللغة مجانبة الاعراب ، والى هذا يشير الجاحظ فى قوله : « وان وجدتم فى هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا اننا تركنا ذلك ، لان الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده الا أن احكى كلاما من كلام متعاقلى النجلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هرون وأشباهه » (٥٨) .

والمشكلة اللغوية قائمة فى عصرنا كما أسلفنا ، وذلك لان العربية

---

(٥٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ٣/٥ .
(٥٦) ابن قتيبة . عيون الاخبار ٣/١٥٣ .
(٥٧) ابن الانبارى ، نزهة الالباء ٤ .
(٥٨) الجاحظ ، البخلاء (طبعة الحاجرى) ص ٣٣ .

الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب وغير اللهجات الدارجة التي لم ترق الى لغة المثقفين وهي في مادتهنا نماذج متأخرة متدهورة ، وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل • فشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لابناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة الى الحد الذي كانت عليه العربية في مختلف عصورها ، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواج في اللغة ، وقد شاهد علماء العربية الاقدمون مثل الخليل بن أحمد وسيبويه والكسائي وعيسى بن عمر وغيرهم لغة عامية يستعملها جمهور الناس ، ولقد أثر عن الكسائي انه وضع رسالة في لحن العامة • ولغة العامة غير لغة العلية فقد ذكر أبو هلال العسكري : ان العامي اذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرى عليك ، كما روى عن بعضهم انه قال لبعض العامة : بم كنتم تنتقلون[٥٩] البارحة ؟ فقال : « بالحمالين » ولو قال له : « ايش كان نقلكم لسلم من سخريته • فينبغي أن يخاطب كل فريق بما يعرفون »[٦٠] •

وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة ، وذلك بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح العربية ، ولكنها متحللة من ضوابط الاعراب ، فالمتكلمون بها يلتزمون الاسكان في جميع صورها ، وهذا ما نصبوا اليه في تقريب العامية من الفصيح • وسبيل هذا كما أسلفنا نشر المعرفة بين الناس والزمان كفيل بتحقيق هذا •

---

(٥٩) أي تاكلون النقل كاللوز والجوز والفستق •
(٦٠) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين (طبعة الاستانة) ص ٣٣ •

في تاريخ المشكلة اللغوية

(٢)

للغة تاريخ تتبين فيه أصل اللغة ونشوءها وتطورها والمراحل التى قطعتها فى عمرها الطويل حتى نصل فى هذا البحث الى ما آلت اليه فى عصرنا الحاضر ، كما ان لسائر العلوم تاريخا نهتدى فيه للاصول التى قامت عليها تلك العلوم ، ولسائر المراحل التى مرت عليها . والبحث فى العربية يؤدى بنا الى التزام الناحية التاريخية ، واذا قلت : ان اللغة العربية بدع بين اللغات فلا أرانى أعدو الصواب كثيرا ، ذلك اننا لا نعرف تاريخ هذه اللغة فى مراحلها الاولى اذ ليس من المعقول أن هذه اللغة بدأت بهذه النصوص الشعرية الجاهلية . فهذه النصوص الجاهلية تقدم للباحث نماذج عالية من العربية ، وهذه النماذج لا يمكن أن تكون بأى حال من الاحوال من البدايات فى اللغة ، فلابد أن تكون العربية قد قطعت قبل هذه النصوص مراحل اخرى من تاريخها لم تكن فيها على هذا المستوى العالى من حيث قدرة اللغة على اداء المعانى ومن توفر المادة العربية للتعبير عن النواحى المادية وانصرافها الى المعنويات من الامور توسعا ومجازا . ولا اريد أن أخوض فى موضوع الصحيح والمنحول من هذه النصوص ، فليس ذلك بضائر قيمة النصوص اللغوية ، وانها صورة للحياة الجاهلية ، ذلك ان وجود المنحول من هذه النصوص لا يمنع من وجود الصحيح ونسبته الى قائليه .

ولابد أن نبين ان الآثار الادبية فى العصر الجاهلى شعرية فى الغالب ، والنثرية منها قليلة جدا ، وهى ان وجدت ، فلا يصح الاطمئنان اليها . والى هذا ذهب الكثيرون من الذين عنوا بتاريخ الادب الجاهلى . ولا اريد أن أخضع الامثال القديمة الجاهلية للمادة التى لا يطمأن اليها ، فالامثال — على انها نثرية — لا نستطيع أن نعدها من النثر العالى الذى يقصد اليه الباحثون فى تاريخ الادب ، ذلك انها مادة شعبية تعكس التجارب التى مرت بها المجتمعات القديمة . والامثال تعرض لاية أمة من الامم ولاسيما البدائية منها .

على ان الباحث فى النصوص الشعرية الجاهلية واجد فيها من عيوب

النظم شيئا لا يجده فى النصوص الشعرية فى العهود الاسلامية ، وهذه العيوب تتعلق بالحفاظ على الوزن فى الشعر .

وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها الا بالناحية التاريخية . واعنى بذلك ان هذه النصوص لم تكتمل موسيقاها وانها مرحلة من مراحل التطور الفنى من حيث المبنى فى القصيدة العربية . وانت واجد هذا الخروج عن ضوابط الوزن عند سائر الشعراء الجاهليين ، فدونك معلقة امرىء القيس لتجد فيها قوله :

اذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولاسيما يوم بدارة جلجل

وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل

وقوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين فى حبى مكلل

وقوله :

قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأملى

وانت واجد شيئا من هذه المخالفات فى شعر طرفة بن العبد كقوله :

كأن البرين والدماليج علقت على عشر أو خروع لم يخضد

وقوله :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فان القرين بالمقارن مقتد

ومنه ما جاء فى قصيدة زهير ، كقوله :

رعوا ما رعوا ظمئهم ثم أوردوا غماراً تفرّى بالسلاح وبالدم

وهذه من السمات البارزة فى القصيدة الجاهلية ، وربما كان منه فى شعر المخضرمين من الشعراء . وهو من غير شك دليل على ان القصيدة العربية الجاهلية فى طور التكوين من الناحية الفنية Technique وانها منتقلة

من مرحلة الى اخرى وفى كل مرحلة من هـــذه المراحل تستفيد شيئا لاستكمال عناصرها الفنية •

ولم يؤثر عن الجاهليين نصوص نثريـة كثيرة كمـا هى الحـال فى الشعر ، وسبب ذلك معروف عند الباحثين فى تاريخ الأدب الجاهلى ، وليس من غرضنا فى هذه المقالة أن نعرض لهذا الموضوع • على انه لابد أن نقرر ان أمة تتسع لغتها لهذه النصوص الجميلة العالية من الادب لابد أن يكون لديها شىء من النثر ، ولكن هــذه النصوص النثرية التى نفترض وجودهـا لم تصــل الينا • اذا فالباحث فى النثر العربى مضطر أن يبتدىء بالقرآن الكريم ويعد نصوص القرآن بداية هذا اللون الادبى من الناحية الواقعية ، وهــو مضطر ايضــا أن يفترض ان النثر العــربى لابــد أن يكون قــد مر بمراحل تاريخية •

ولغة القرآن واسلوبه يطلعان الباحث على مستوى رفيع من حيث المبنى وغزارة المادة اللغوية ، ومن حيث قدرة هذه القوالب اللفظية على الاعراب عن دقائق المعنى ، وخواطر الفكر ، ولعل هذا كان السر الذى حدا بالباحثين الى القول بالاعجاز فى القرآن •

والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربيــة بطــابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليميــة ، وأطلعت المجتمع العربى الاسلامى الاول على نموذج عال لهذه اللغة ، فأخذوا بها • وفى القرآن ينكشف الستار عن عالم فكرى تحت شعار التوحيد لاول مرة فى تاريخ اللغة العربية ، بحيث لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة الا نموذجا ضعيفا له ، من حيث ظاهر وســائل الاسلوب ، ومسالك المجاز والدلالة[1] • والى مثل هــذا ذهب المستشرق الفرنسى الـكبير (ريجيس بلاشير) فى محاضرة له ، فهو يقول : ومنذ ظهر الاسلام لم تعد اللغة العربية آلة عادية للكلام والتخاطب ، ولا لغة انسانية محضة بل شيئا آخر • نعم لن

---

(١) يوهان فك ، العربية ٥ •

نفهم جوهر العربية وكيانها ، بل لن نستطيع لها فهماً ان نحن أهملنا أهمية هذا « الحدث القرآني » هـذا الحدث الذي بفضله تجاوزت اللغة حدود الانسانية المحضة[٢] .

والبحث في تاريخ العربية يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها الاعراب ، ولتكون لغة عامـة يعرفهـا كل العرب لا أثر فيها للغات الخاصة التي اعتاد كل طائفة منهم استعمالها والقراءة بها ، فقد ورد ان عمر بن الخطاب قد سمع رجـلا يقرأ (عتى حين) في قوله تعالى : (ليسجننه حتى حين)[٣] ، فقال من اقرأك ؟ قال ، ابن مسعود ، فكتب اليه : ان الله أنزل هذا القرآن عربيـا ، وأنزله بلغة قريش ، فاقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل[٤] .

وما استطاعت لغـة القرآن والحديث أن تأتي على اللهجات الدارجة المحليـة ، أو قل على العربيـة المستعملة السـهلة ، والتي تخفف من قيود الضوابط الاعرابية الثقيلة . ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ أن كانت ، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الـكاتب في كتابته ، وهي ملتزممة بضوابط الاعراب ، ولغة اخرى يقولهـا الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط ، وربما تعدى الامر مسألة الاعراب الى الالفاظ نفسها ، فقد يكون في ألفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية ، وانه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الاقوام ، والاتصال حاصل في كل عصر ، فقد تهيأ للعرب في أطراف شبه الجزيرة العربية أن يتاخموا أقواما غيرهم ، فلم تسلم بذلك سليقتهم . ومن أجـل ذلك حرص عمر على الاخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، والى مثل هـذا كان يرمي عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحـدة فنبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه .

---

(٢) ر. بلاشير ، مجلة الفكر التونسية العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٦ .
(٣) يوسف ٣٥ .
(٤) الزمخشري ، الـكشاف ٣/٤٦٨ .

ولا يعدم الباحث أن يجد فى كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئا كثيرا من القراءات • ومرد ذلك ان الناس قد اعتادوا على أساليب فى التعبير خاصة بهم ، وبذلك قرأوا • وان طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة قد اعتبرت من شواذ القراءات • ونتبين من البحث فى لغة القرآن ان هذا الحدث القرآنى العظيم قد عمل على توحيد العربية وطبعها بطابع خاص فيه الشمول وفيه العموم بحيث تيسر لهذه اللغة أن تكون لغة العرب عامة وانها تغلبت على الكثير من معالم اللهجات السائرة •

ووجود اللهجات السائرة وتنصلها عن التمسك بقيود الاعراب دليل على ظهور مرحلة جديدة فى تاريخ العربية أوشكت أن تعم لو لا ما كان من أمر لغة التنزيل • وفى هذه المرحلة الجديدة تخففت العربية من ضوابط الاعراب •

على ان المعلومات التى بين أيدينا عن اللهجات الخاصة لا تتعدى الاشارات الموجزة والعلامات التى لا تعدو أن تكون ملاحظات لا تكون فى مجموعها مادة كافية لرسم صورة للهجة من اللهجات فى بداية القرن الاول الهجرى ، ذلك ان النحويين واللغويين قد جمعوا هذه الملاحظات منذ أن بدأوا فى تثبيت قواعد العربية ، وظلت هذه الملاحظات تتناقل من جيل الى جيل دون تصنيف وضبط بحيث لا نستطيع أن ننسب على وجه التحديد أية اشارة من هذه الاشارات اللغوية الى أصحابها ، والامثال كثيرة للبرهنة على ترددهم وعدم تحريهم وجه الصواب فى هذه الاشارات بحيث يبدو فيها للباحث أثر الاصطناع والكذب والتقليد فقد جاء فى كتب الادب قول هوبر الحارثى :

تزود منا بين أذناه ضربة   دعته الى هابى التراب عقيم(٥)

وفى البيت التزام المثنى الالف فى جميع الاحوال ، وهى لغة بنى الحارث بن كعب ، وهى عند هؤلاء قلب الياء الساكنة اذا انفتح ما قبلها الفا

---

(٥) لسان العرب ١٠/٦٤ ؛ ١٩/١٦٣ ؛ ٢٠/٢٢٦ •

فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان[٦] . وفي هذه اللغة ان الف حرفي الجر (الى) و (على) تبقى على حالها اذا كان مدخولها ضمير غائب أو مخاطب ، كما جاء في النوادر لابي زيد الانصاري ، أن المفضل الضبي ذكر لبعض أهل اليمن قوله :

أي قلوص راكب تراهـا طارو علاهن فطر علاها[٧]

ولم ينسب السيوطي هـذه اللغة لبني الحارث بن كعب وحدهم ، فقد عزاها لبني العنبر وبني الهجيم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان ومزدادة وغدرة[٨] .

وهذه الاشارات لا تتجاوز مسائل الابدال والقلب وسـائر الحركات وما يتعلق بشيء قليل من الامور الصوتية ، ولم يعدهـا بعضهم من المستساغ المقبول ، فالسـيوطي يحشرهـا في باب « الرديء المذموم من اللغـات »[٩] كالكشكشة والكسكسة والتلتلة والعنعنة والفحفحة والعجعجة وغيرها . كما انها غير منسوبة نسبة صحيحة كمـا أشـرنا ، فالعنعنة لغة قيس وتميم عند السيوطي ، وهي تعرض في لغـة قضاعة عنـد الثعالبي[١٠] ، وفي لسـان العرب غير هـذا[١١] .

واذا كانت هذه اللهجات لا تعطي الا صورة شوهاء غير كاملة لمرحلة لغوية في تاريخ العربية ، فهل لنا أن نجد ذلك في تاريخ اللهجات العربيـة الجنوبية كالمعينية والحميرية والسبئية أو في اللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية ؟ والجواب عن هذا السؤال ان بين هـذه اللهجات جميعهـا وبين العربية الفصيحة كما عرفناها في لغة القرآن أو في لغة ما صح من النصوص

(٦) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ابن فارس ، الصاحبي ٢٠ .
(٨) أبو زيد ، النوادر ٥٨ ؛ ابن فارس ، الصاحبي ٢٠ .
(٨) السيوطي ، همع الهوامع ١/٤٠ .
(٩) السيوطي ، المزهر ١/٢٢١ .
(١٠) الثعالبي ، فقه اللغة .
(١١) لسان العرب : قال الفراء : تميم وقيس واسد ومن جاورهم يجعلون الف (أن) اذا كانت مفتوحة عيناً .

الجاهلية فروقا بعيدة ، ومعنى ذلك انه ليس من المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الاولى ، أو صورة للمرحلة التى سبقت الفصيحة المعروفة فى لغة القرن الاول الهجرى • ونحن نطرق هذا السبيل لعدم توفر النصوص الصحيحة المدونة فى هذه المرحلة اللغوية التى ننشدها ، ثم انا نجرب هذه التجربة لان بين أيدينا من هذه اللهجات نصوصا مكتوبة وهى النقوش التى اهتدى لها العلماء فى بحوثهم التنقيبية • على ان طائفة من هذه النقوش مكتوبة بالآرامية وهى اللغة الثقافية كما هى الحال فى النقوش النبطية(١٢) ، فقد كتب النبط نقوشهم بالآرامية وان كانت لغتهم عربية(١٣) •

ويتبين من هذا العرض ان المواد الضرورية لم تتوفر لنا لمعرفة المرحلة اللغوية التى سبقت عصر القرآن ، فلابد اذن أن نسلك سبيلا آخر للوصول الى شيء مما نصبو اليه ، وذلك بالرجوع الى نصوص العربية المثبتة فى كتب اللغة والادب والنحو ونستقرئها استقراءً دقيقا لنخلص الى موضوعات نؤلف منها مادة لغوية اتصفت بها المرحلة السابقة لعصر القرآن •

وهذه المادة اللغوية تشتمل على معلومات تتعلق بالابنية والصيغ والاوزان كما تتعلق بمسائل خاصة ببناء الكلمة فى العربية وكيف توفر لبنية هذه الكلمة الانسجام والتكافؤ الموسيقى ، ولنعرض الآن لهذه المسائل •

(١) الابتداء :

والذى نلاحظه أن العربية لا تستسيغ الابتداء بالساكن من الحروف ، ولذلك قرر الخليل بن أحمد أن « حرف اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف »(١٤) • والعربية لا تجيز هذا كما أجازت ذلك اللغات الاجنبية الكثيرة ، ولهذا يستعان بالهمزة المفتوحة للتوصل الى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبرا الى هذا الساكن من الحروف ليظهر فى سكونه •

---

(١٢) Dhorme, Langue et écriture sémitique.

(١٣) دوسو ، تاريخ العرب فى سوريا ٢٧ •

(١٤) الخليل ، الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ عن المخزومى فى الخليل بن أحمد الفراهيدى ١٧٦ •

وكان يقول ـ بعد تمثيله للخماسي من الافعال :ـ « الالف التي في اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكرّ ليست من أصل البناء ، وانما ادخلت هذه الالفات في الافعال وأمثالها من الكلام لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن »(١٥) .

وسأل الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامي وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : نقول ياء وباء ودال ، فلم تعجبه اجابتهم ، لانهم انما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يحكوه ، كما هو في غلامي واضرب وقد . فقال لهم : اقول : إب واى واد ، فالحق الفاً موصولة . قال : كذلك أراهم صنعوا بالساكن ، ألا تراهم قالوا : ابن واسم حيث أسكنوا الباء والسين ، وانت لا تستطيع أن تكلم بساكن في اول الاسم كما لا تصل الى اللفظ بهذه السواكن فألحقت الفاً حتى وصلت الى اللفظ بها ، فكذلك هذه الالفات حتى تصل الى اللفظ بها كما ألحقت المسكن الاول في الاسم(١٦) .

والكلمة العربية اتصفت بالتكافؤ والانسجام بين أجزائها في الحركات والاصوات ، ومن أجل ذلك يؤتى بالهمزة التي يستعان بها على النطق بالساكن مكسورة أو مفتوحة ، أو مضمومة اذا كان الحرف الذي يلي الساكن مضموما مثل أستنصر وأعترف فتضم الهمزة ، ليتماثل الصوت ويكون العمل فيهما على وجه واحد(١٧) .

والذي أريد ملاحظته في هذا الباب هو القول بأن المرحلة السابقة لهذه العربية الفصيحة كانت تجيز الابتداء بالساكن ، والذي يقوى هذا الافتراض عندي قولهم : ان أمر الثلاثي في العربية همزته همزة وصل ، والناطق المجيد لهذه البنية لا يحس بهذه الهمزة ، فلسانه ينطلق بالضاد في كلمة اضرب (الامر) قبل أن ينطلق بشيء اسمه الوصل ، واجادة النطق

---

(١٥) المصدر السابق .
(١٦) سيبويه ، الكتاب ٢/٦٢ .
(١٧) المصدر السابق ٢/٢٧٢ .

تستدعى محو هذه الالف اطلاقا • وعلى هذا جاء نطق المغاربة فى أيامنا هذه ، فهم ينطلقون بالساكن فى أفعال الامر الثلاثية ، ومن أجل ذلك فان ما ندعوه بالنبر ''Accent Tonique'' يكون عندهم واقعا فى نهاية الكلمة • ومثل هذا تنطلق بالساكن اذا بدأنا بالاسماء التى نصوا على أن الفاتها للوصل كما فى (ابن) و (اسم) فانت تنطلق بالساكن أو بشيء فيه سكون أو بنصف الساكن ان أسعفتنا لغة الاصطلاح ، حتى يتم النطق بالكلمة على الوجه اللازم •

ووجود هذه الناحية ربما كان دليلا على الابتداء بالساكن فى العربية التى سبقت هذه المرحلة الفصيحة كما يقوى هذا القول استساغة الانطلاق بالساكن فى سائر اللغات السامية الاخرى ، بل ربما كانت الآرامية السريانية أشد قبولا للبدء بالساكن من المتحرك ، ومن أجل ذلك صارت هذه الناحية من ميزاتها الظاهرة •

(٢) التقاء الساكنين :

اختصت العربية من بين سائر اللغات السامية بهذه الناحية مراعاة منها للتكافؤ والانسجام فى بنية الكلمة الواحدة وفى اتصال الكلمة بغيرها حتى يجيء الكلام العربى على هيئة مخصوصة موسيقية منسجمة •

على ان الباحث فى غرائب العربية وفرائدها واجد من هذا الباب شيئا وهو قليل جدا ، وقلته ذات دلالة خاصة ، فهو يشير الى وجود التقاء الساكنين فى تلك المرحلة اللغوية السابقة للمرحلة المعروفة ، والا فكيف نعلل وجود الساكنين فى كلمتى (حمارّة) و (صبارّة) فى قولهم : حمارة القيظ وصبارة القر ، ومثل هذا ما حدث من التقاء الساكنين فى أسماء الفاعلين من الافعال الثلاثية المضعفة مثل (حالّ) و (مادّ) ، ذلك ان العربية توجب الادغام فى هذه الالفاظ ووجوب الادغام يستدعى التقاء الساكنين ، والذى أراه ان من العرب من كان يجيز فك الادغام مخالفة للقياس المعروف ، ومطاوعة منه لسنن العربية التى لا تحتمل التقاء الساكنين

فكان يفك الادغام فى هذه الالفاظ وعلى هذا جاء قول المتنبى :

فلا يبرم الامر الذى هو حالل   الى آخر البيت ...

وليس معقولا أن يحمل هذا على تخطئة المتنبى ، فقد كان عالما بشوارد اللغة والنحو فلا يجوز أن يكون جاهلا بهذا ، ثم انه لم يلجأ الى ضرورة شعرية فقد كان فى طوقه أن يتحاشى هذه الضرورة ـ ان صحت ـ باستعمال مرادفة لكلمة حال (حال) وذلك كثير ميسور . أما الذى سوّغ له استعمال الكلمة ، احتمال فك هذا الادغام فى لغة من لغات الناس فى ذلك الزمان هروبا من التقاء الساكنين ، كما هى الحال فى أيامنا هذه فى لغتنا العامية الدارجة ، فهناك من يلتزم ادغام هذه الالفاظ محتملا التقاء الساكنين كما أن هناك من يلجأ الى فك الادغام هروبا وتخلصا فيقول مثلا (دازز) و (شادد) بدلا من (دازّ) و (شادّ) .

وقد هربت العربية من احتمال التقاء الساكنين فى بنية الكلمة الواحدة الثلاثية الساكنة العين ، اذ يلتقى فيها ساكنان العين واللام لان أواخر الكلمة سواكن اذا لم تدخل هذه الكلمات فى جمل أو اذا وقف عليها كما تقول (فخذ) باسكان الخاء فى (فخِذ) المكسورة الخاء[١٨] . وفى خزانة البغدادى ان الفعل الذى عينه حرف حلق وكان على (فعل) بكسر العين فلك فيه أربع لغات كالحال فى (فخذ)[١٩] ، وفى (الاقتضاب) جواز تخفيف عين (فعل) مضموم العين ومكسورها[٢٠] .

وفى المحتسب لابن جنى : ما سمع فيه (فعل) بضم الفاء واسكان العين الا وسمع فيه (فعل) بضم الفاء والعين[٢١] ، ومنه اسكانهم نحو (رسل) و (عجز) و (عضد) و (كتف) و (كبد)[٢٢] .

---

(١٨) المبرد الكامل ٢/١١٤ .
(١٩) البغدادى ، الخزانة ٤/١٠١ .
(٢٠) ابن السيد ، الاقتضاب ٢٠١ .
(٢١) ابن جنى ، المحتسب ١/١٩٠ .
(٢٢) ابن جنى ، الخصائص ١/٧٥ .

والحكمة فى هذا التحريك هو الهروب من التقاء الساكنين كما بيناه • على اننا نجد مثل هذا في لهجتنا العامية البغدادية فى الاسماء الثلاثية التى نضطر الى تحريك عينها بحركة مناسبة هروبا من التقاء الساكنين فنقول (فعل) بكسر العين مجاراة لكسرة الفاء ولالتقاء الساكنين كما فى (اسم) و (عجل) ، ونقول (تمر) بضم الميم و (قبر) باسكان العين فيهما • والسبب فى ذلك ما بيناه لاننا لو رجعنا الى نطق هذه الكلمات فى لهجة عامية اخرى ، ولتكن اللهجة المصرية لوجدنا المصريين ينطقون هذه جميعا باسكان العين احتمالا منهم لالتقاء الساكنين •

واذا أردنا استقراء النصوص الفصيحة وجدنا هذه الناحية فى الافعال المضعفة المزيدة بثلاثة أحرف كما فى وزان (افعالّ) مثل (احمارّ) وهذه الافعال قليلة وقلتها تشير الى انها من بقايا المرحلة السابقة اللغوية التى أشرنا اليها • فهذه الصيغة قديمة وهى دالة على المبالغة ، وهى ثقيلة لوجود الساكنين ، ثم تخففت فى الاستعمال فخضعت لسنة العربية الفصيحة فى المرحلة اللاحقة فاستحالت الى (احمرّ) وهى فى المعنى نفسه ، والمبالغة حاصلة فيها ، وليس كما علل الصرفيون بأن المبالغة فى الاولى أكثر • ومن هذا قولهم : غارّ الطائر فرخه بتشديد الراء فى (غار)[٢٣] ، ففى هذا الفعل قد التقى الساكنان ، ومنه ايضا (غارت الناقة فى الحلب) ، وما قلناه فى (احمارّ) و (احمرِّ) يصدق على قولهم (غارّ) فقد تخفف هذا الفعل حتى لجأ الاستعمال الى (غرّ) الثلاثى المضعف وفى ذلك كفاية وغناء •

(٣) ابدال احد التضعيفين بالياء :

وما زلنا نحمل على الخطأ أو على طريقة العوام فى لهجتهم الدارجة قولهم (استمريت) باسناد الفعل المضعف الى تاء الفاعل • وفى العربية

---

(٢٣) المبرد ، الكامل ١/ ٣٧ •

الفصيحة شيء من هذا وهو قليل ، ولعل قلته راجعة الى أنه من البقايا اللغوية القديمة التى تشير الى مرحلة لغوية قديمة قد سبقت الفضيح المعروف والممثل فى لغة التنزيل والحديث • والى هذا ذهب المبرد فى شرح كلمة (التقضّى) فى قول العجاج :

تقضّى البازى اذا البازى كَسَر

والتقضى الانقضاض والعرب تبدل الياء من أحد التضعيفين فيقولون (تظنيت) والاصل (تظننت) لانه من الظن[٢٤] • ومنه (قصصت) و (وقصيت)[٢٥] • والمستقرىء للنصوص اللغوية واجد من هذا الموضوع شيئا يصلح أن يكون مادة مفيدة للبحث •

(٤) اسم المفعول :

فى اسم المفعول من الفعل الثلاثى الاجوف فذلكة لغوية فنقول : (مبيع) من (باع) ومصون من (صان) ، وهذه الفذلكة داخلة فى باب الاعلال وليس بنا حاجة لشرحه فى هذا المقام ، وانما نريد أن نقول : ان لهجاتنا الحديثة الدارجة لا تلجأ الى هذا الاعلال ، بل تصوغه على وزن مفعول فتقول (مبيوع) ، وهذه الصيغة واردة فى الفصيح من العربية ولكنها مسموعة وسماعها يخالف القياس المشهور ، وهو دليل على انه من البقايا اللغوية القديمة التى تتسم بها المرحلة السابقة التى أشرنا اليها •

وقد جاء من هذا الباب (مصوون) و (مقوود) و (معوود)[٢٦] • وفى القاموس اسعده فهو مسعود[٢٧] • واكمده فهو مكمود[٢٨] • والقح الفحل الناقة فهى (ملقوحة)[٢٩] • وهذه الامثلة

---

(٢٤) المبرد ، الكامل ٢/٧٦٠ •
(٢٥) ابن السيد ، الاقتضاب ١٣٧ •
(٢٦) المصدر السابق ٢٧٤ ــ ٢٧٥ •
(٢٧) الفيروزابادى ، القاموس ، مادة سعد •
(٢٨) لسان العرب مادة كمد •
(٢٩) المصباح المنير مادة لقح •

ـسير الى أن وزن (مفعول) هو أصل فى صيغة اسم المفعول ولا يختص بهذه الصيغة الفعل الثلاثى ، ولعل فى هذه الامثلة دليــلا على قدم هــذه الصيغة فى مراحل اللغة الاولى .

(٥) مطل الحركات :

أفرد ابن جنى فى كتاب الخصائص فصلا لموضوع مطل الحركات والمراد بمطل الحركات مد الحركات ، وقد استفادت العربية من هذا المد كثيرا فى تنويع الصيغ وتكثير المعانى . فقد مدت ضمة العين فى المضارع كما فى (ينبع) فصــار (ينبوع) ومثل هــذا (يحمور) و (يخضور) و (يعفور) ، وقد انتقلت هذه الصيغ فى العربية الى الاسمية وهو كثير فى اللغــة . على انه لا تخفى الصلة فى هــذه الالفاظ بين الفعليــة والاسمية فعــلاقة اللون واضحة وربما هى التى سوغت هــذا الانتقــال اللغوى . ونســتطيع أن نفترض أن يكون أصل الفعــل المضارع فى مرحلة لغويــة قديمة على هذا الشكل . ومعلوم أن بين الاسم والفعل المضارع شبه ولهذا سمى بالمضارع لانه مضارع للاسم المعرب . والتسمية بالافعــال المضارعة قديمة جدا فقد عرف (يغوث) و (يعوق)[٣٠] من آلهة اليمن .

ومما يتعلق بباب مطل الحركات كلمة (اليعقيد) وهو العسل يعقد بالنار حتى يخثر ، وقيل طعــام يعقد بالعســل ، ومنــه اليعضيد وهى بقلة زهرها أشد صفرة من الورس وقيل غير هذا[٣١] .

ونســتطيع أن نرد فاعول الى مطل الحركات فالعمود لابد أن كان (عامود) ثم خفف الى (عمود) وليس لنــا أن نحمــل العامود على الكلام العامى فمثله الشاقول والناعور وكثير من أسماء الادوات .

---

(٣٠) الــكلبى ، الاصنام ٥٧ .
(٣١) الزبيدى ، تاج العروس ، انظر مادتى عقد وعضد .

وفي كتب اللغة نصوص تشهد على هذا الباب فقد أنشد أبو علي الفارسي لابن هرمة يرثي ابنه : من قوله :

فانت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنتزاح

وأراد بمنتزح .

وهذه المواد تعطينا بعض الشيء عن خصائص العربية القديمة قبل أن تتوحد وتنسجم في قالبها المعروف الفصيح .

(٦) صيغ الفعل المجرد :

المعروف عند الصرفين انهم صنفوا الأفعال الثلاثية في ستة أوزان ورتبوها حسب ورودها في الكثرة غير أن الناظر في النصوص وفي كتب اللغة يجد فيها شيئا يؤدى به الى الاعتقاد أن هذه الافعال لم تكن مستقرة ولاسيما في القرن الاول الهجري ، وان فعلا من الافعال مثلا قد يكون على الوزن الاول (باب نصر) عند قوم من الناس ، ولكنه من (باب ضرب) عند آخرين . وبقي هذا التردد في اعتبار وزن الفعل طوال القرن الاول والقرن الثاني ، حتى اذا تم تثبيت قواعد اللغة ، استقرت هذه الافعال على حال ثابتة ولاسيما الافعال التي يكثر تداولها في التخاطب والكتابة على الاقل .

ولقد ورد شيء من هذا الذي نذهب اليه على ألسنة علماء اللغة ، فقد قال أبو زيد الانصاري : اذا جاوزت المشاهير من الافعال فأنت بالخيار بين الضم والكسر[٣٢] . وقال الفراء : الاصل في المضارع الكسر[٣٣] .

وهذا التردد في معرفة الاوزان وضبطها وتثبيتها قد تم في لغة القرآن بالرغم من ان كتب اللغة ظلت تذكر اللغات المختلفة في وزن الافعال التي اختلفوا فيها ، فقد قالوا في (فسد) هو من باب نصر عند قوم ، وهو من باب

(٣٢) الفيروزابادي ، مقدمة القاموس .
(٣٣) لسان العرب مادة اتى .

(كرم) على رأى آخرين • وهـذه الحال تدل على أن الافعـال الثلاثية فى المرحلة السابقة لعصر القرآن لم تكن مستقرة على حال وكان الحكم فيهـا للقائلين يؤلفون بين حركاتها كما يشاءون •

(٧) الجموع :

الجموع من المواد اللغوية القديمة ، وقد احتفظت بها اللغة العربية • وربما دلت كثرة الجموع فى العربية على اختلاف اللهجات ولاسيما جموع التكسير ، ويعنى هذا اننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع (Chème) فالشيخ يجمع على (شيخة) ويجمع على (شيوخ) بضم الشين وعلى (شيوخ) بكسر الشين وعلى (اشياخ) ، ومثل هذا كلمة (الحب) بكسر الحاء فتجمع على (أحباب) ، و (حبان) بكسر الحاء وتشديد الباء ، و (حبوب) و (حببة) بكسر الحاء ، و (حب) بضم الحاء[٣٤] • ومثل هذا كثير فى اللغة العربية وهو دليل على أن الجمع لم يستقر على حال وانه يشير الى المرحلة التى كانت فيها اللغة غير مستقرة على صيغ ثابتة ، ومن أجل هذا حدثت هذه الكثرة فى الصيغ ، وسبب هـذه الكثرة راجع الى اختلاف الاقوام واختلاف الجهات •

وفى جمع المذكر السالم ألفاظ سماها النحاة الاقدمون بالملحقات وذلك لعدم انطباق الشروط التى اتفقوا عليها فى جمع الاسم هذا الجمع المعروف وبقاء هذه الالفاظ التى الحقت بجمع المذكر السالم يشير الى مرحلة لغوية قديمة ، تلك المرحلة التى لم تتقيد فيهـا اللغة بضوابط واضحة • وهـذه الالفاظ هى ألفاظ العقود مثل (عشرون) واخواتهـا ، وارضون ووابلون واهلون وعالمون ، ومن هذا الباب اصول ثنائية (Bilitère) مثـل (بنون) و (مئون) و (قلون) و (سنون) و (عضون) كمـا فى قوله تعـالى :

---

(٣٤) لسان العرب مادة حبب •

« الذين جعلوا القرآن عضين »[٣٥] أى فرقوه أعضـاء ، ومثله (عزين) جمع عزة أى فرقة • ومنه ثبة قد جمعت على (ثبون) كمـا فى قول عمر ابن كلثوم :

فأما يوم خشيتنا عليهم   فتصبح خيلنا عقباً ثبينا[٣٦]

ويتبين من هذا أن هذه المواد اللغوية المتخلفة عن مرحلة قديمة بقيت فى العربيـة الممثلة فى لغـة القرآن ولغـة النصوص الجاهليـة التى يطمأن الى صحتهـا •

(٨) الابنية الغريبة :

واقصد بالابنية تلك الصيغ التى وجدت فى النصوص اللغوية القديمة والتى لم يكتب لها الشيوع لثقلها ولطول بنائها والتى عدت من باب الغريب مرة ومن باب الوحشى المهجورة مرة اخرى •

ولابد من ضرب الامثال على هذه الابنية الغريبة لنخلص الى نتيجة من النتائج ، جاء فى النوادر لابى زيد المبرنتى[٣٧] هو الغضبان الذى لا ينظر الى أحد ، وكان على ابى زيد أن يأتى بالشاهد لنكون على بينة ، وهذه الناحية من العيوب فى المعجم العربى القـديم لانهم لا يهتمون باستقراء الاسـتعمال لتأييد المعنى الذى ينصون عليه ، وربما كان هذا حجة لمن يقول بالاصطناع والاختراع فى المعانى ، وان اللغوى يلجأ الى هـذا الباب ليظهر أنه عارف باللغة وفرائدها • ومثل هذا كثير فى كتب اللغة المطولة • ولابد من دليل آخر على اصطناع هذه الالفاظ وهو انهم يذكرون للفظ الواحد معانى عدة لا عـلاقة بينهـا فقولهم : محبنطىء وهو العظيم البطن ، والممتلىء غيظـا • والمحرنجم هو الذى يريد الامـر ثـم يكـذب فيرجـع[٣٨] ، فى حـين

(٣٥) سورة الحجر ٩١ •
(٣٦) معلقة عمر بن كلثوم ضمن شرح العشر ١١٦ •
(٣٧) أبو زيد ، النوادر ١٣٠ •
(٣٨) المصدر السابق ١٩٨ •

أن (احرنجم) عندهم بمعنى اجتمع ووجه العلاقة بين الاسم والفعل غير موجود اطلاقا .

وقد أفرد ابن دريد فى الجمهرة فى الجزء الثالث بابا للاوزان الغريبة كالفعلل مثل الهمرجل للخفيف السريع ، والشمردل للطويل والدلهمس للجرىء الماضى على الليل ، والجلنفع للصلب الشديد والعلنكد للصلب الشديد والعدبّس للشديد الحلق .

وفى وزن الفعلول الشغموم للناقة القوية والطحلول والصعلوك للفقير ، والقرضوب للص ، واللعموظ للشره والنهم ، والصحمور للعظيم البطن .

ومن الفيعلى ، الهيذبى والخيزلى .

ومن الفيعلول ، الناقة العيسجور النشيطة ، والخيتعور للذى لا يدوم على العهد .

ومن الفعوال ، القرواح للنخلة الملساء .

ومن الفيعول ، العيثوم الناقة الغليظة . وسيهوج وسيهوك اسمان توصف بهما الريح .

ومن الفيعال ، الهيذام وهو الصارم(٣٩) .

وهذه الابنية الغريبة كثيرة اجتزأنا بهذا القدر منها ، ونريد أن نقول فيها شيئا هو أن الغالب فيها ذو دلالة مادية فلا ينصرف الى الناحية المجازية وان المعانى التى ترد فى هذه الابنية متعلقة بالاوصاف الحسية كالطول والقصر والضخامة والعظم والدقة وشدة الخلق والسرعة والخفة وغير هذا مما هو داخل فى هذا الخصوص . والخلق والاصطناع واضح فى هذه الابنية فالالفاظ التى تعنى شدة الخلق فيها كثيرة ومختلفة . وهى تنصرف للانسان تارة وللحيوان تارة اخرى .

ولكن هذه الابنية على العموم قديمة ، وان الالفاظ التى وضعت لهذه

---

(٣٩) ابن دريد ، الجمهرة ٣/ ٣٨٠ .

المعانى من هذه الصيغ تقليدا وحكاية لما كانت عليه الابنية فى اللغة القديمة فى مراحلهـا الاولى •

وأنا اذ أنهى هذه المقالة أود أن أقول ان عملى كان استقراء النواحى اللغوية التى يمكن أن تكون مادة مهمة فى مراحل اللغة القديمة ، أما اعطاء صورة واضحة المعالم لهذه اللغة فى تلك المراحل فليس سهلا ، ذلك اننا مفتقرون للنصوص الثابتة المدونة كما فى سائر اللغات الحية •

الفعلُ والنظامُ الفعليُّ في العربيةِ

عد الاقدمون الفعل عنصرا جوهريا فى العبارة أو الجملة ، وهو كذلك عند المحدثين من اللغويين عامل مهم فى بناء الجملة .

وقد اختلفت الامم فى أشكال الفعل ، فهو فى العربية لا يتعدى الماضى والمضارع [1] ، فى حين أنه يحتوى على صور مختلفة متعددة فى اللغات الهندية ـ الاوربية Indo - Europeanne . وليست العربية بدعا بين اخواتها الساميات فى هذا الباب ، فالباحثون فى هذه الاسرة اللغوية يذهبون الى قلة صور الفعل **Forme** فيها .

وقد اهتم النحاة العرب فى الفعل وبحثوا فيه بحوثا طويلة ، وأعطوه من الاحكام ما هو معروف ، مقيد فى الاسانيد ، وسنأتى الى الكلام عليه . ولقد خلف السلف فى هذا الباب كتبا كثيرة ، قصرها أصحابها على الفعل وأوزانه ومعانيه .

ولعل طائفة منها كانت أشبه بالمعجمات اللغوية ، فكتاب الافعال لابن القوطية[2] يظهر مدى اهتمام الاقدمين بالفعل ومعانيه وصوره . وقد أعاد أحد العلماء ترتيب هذا الكتاب ، وأضاف اليه شيئا آخر ، وبوّبه تبويبا خالف فيه الاصل ، وهو ابن القطاع من علماء القرن السادس الهجرى[3] .

وأنت اذا نظرت الى أحد هذين الكتابين تبينت غنى العربية فى هذا الباب واهتمام اللغويين فى هذه المادة ، حتى إنهم توسعوا فيها ، فاشتقوا

---

(١) اما الامر فليس لنا الا ان نلحقه بالمضارع فهو صورة منه يؤدى معنى خاصا . والى هذا ذهب النحاة الكوفيون . انظر « الانصاف » لابن الانبارى ، المسألة ٧٢ ، وشرح الرضى على الكافية ٢ : ٢٦٨ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبدالعزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ، المعروف بابن القوطيه الاندلسى الاشبيلى الاصل المتوفى سنة ٣٦٧ للهجرة .

(٣) هو أبو القاسم على بن جعفر السعدى اللغوى المعروف بابن القطاع الصقلى المصرى المتوفى سنة ٥١٥ للهجرة .

الافعال من أصول جامدة ، ليس فيها معنى الحدث . وسنأتى الى الكلام على هذا الموضوع .

على اننا لابد أن نستدرك فنقول : ان الاقدمين على اهتمامهم الزائد بالفعل ومعانيه وصوره لم يبحثوا فى زمان الفعل وتحديداته ، فالماضى هو الحدث الذى مضى "Accompli" ولكن هذا الذى مضى لا نعرف فى أى زمان من الماضى ، فهو يصدق على حدث مضى قبل لحظات ، وعلى آخر مضى عليه زمان طويل ، وهذا التوسع أو قل التساهل مبعثه قلة ضبط الازمنة فى النحو العربى .

فلا يستطيع المستقرىء لكلام العرب أن يحدد الزمن تحديدا كالذى نعرفه فى غير اللغات السامية ، وهو ان استطاع ذلك ، فبالقرينة والاشارات الاخرى التى يحتوى عليها النص . ولعل حيرتهم وقلة بحثهم فى هذه الناحية ، تبدوان فيما أسموه بالمضارع ، فالتسمية لا تشير الى زمن معين محدد معروف ، وانما تشير الى شبه هذا بالاسم ، فهو مضارع للاسم ، وتأتى مضارعته للاسم من ناحية حركة آخره(٤) . ثم انهم حين أرادوا أن يدلوا على زمن هذه الصيغة أشاروا الى الحال والاستقبال . وأمر الحال والاستقبال فى هذه الصيغة متروك للنص ، تحدده القرائن والاشارات .

وليس لنا أن نتبين فى العربية ضوابط واضحة تشير الى اتفاق الازمنة أو ما يسمى بـ "Concordance detemps" . فليس صحيحا أن تدل صيغة على زمنين مختلفين ، لم يحدد كلا منهما ضابط متميز بالنسبة للآخر .

ولا ندرى ما المراد بالحال وكم هو طول هذه الفسحة الزمنية ، ثم اذا انطلقنا من هذا الى المستقبل ، لا نهتدى الى أين نصل بالمستقبل ، فهو فسحة زمنية طويلة .

ووقوفهم فى البحث عند هذا الحد من حيث الناحية الزمنية ، دليل على أن الباحثين الاقدمين فى النحو لم يتأثروا فى الامور الجوهرية بالفكر اليونانى ، ونحن اذا أردنا أن نجد آثار المنطق فى النحو لا نجده الا فى

---

(٤) انظر Marcel Cohen, Systeme verbal Semitique, p, 10

التقسيمات وفى الاحكام العامة المطلقة ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول .

ولكن القائلين بتأثر المسلمين بالفكر اليونانى لا يقتصرون على هذا الحد فعندهم ان الفكرة الزمنية والبحث فيها كان نتيجة لتأثر هؤلاء بالنحو اليونانى ، وقد قال بهذا المستشرقون[٥] وغير المستشرقين من المشارقة الذين تأثروا بهم ولزموا أقوالهم[٦] .

فقد قالوا : ان القياس النحوى متأثر بالقياس المنطقى الارسطى ، والرد على هذا الزعم ميسور سهل ، ليس هذا مجال البحث فيه .

وأعود فأقول : لو كان واضع النحو متأثرا فى الامور الجوهرية بالنحو اليونانى ، لنحا فى تحديد الزمن منحى الاغريق ، ولبحث فى قضية الزمن وتحديده كما بحثوا ، ولوقفنا اليوم فى عصرنا الحديث على جلية الامر ، وصرنا لا نحار فى قوله تعالى : « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين »[٧] .

فالفعل « تقتلون » مضارع ولكن النص لا يشير الى الحال أو الاستقبال وانما يشير الى الزمن الماضى .

ولا نستطيع أن نهتدى الى الماضى المستمر "durable" فى العربية بصورة واضحة دقيقة . ونحن اذا وجدنا قولهم « كان يعاشر مشيخة قريش »[٨] وهو متضمن لفكرة الاستمرارية . ومثل هذا كثير فى كلام العرب ، فالاستمرارية حاصلة ، ولكننا لانستطيع تحديد الفسحة الزمنية فيها ،

---

(٥) انظر M. G. Demombynes et Blachère, Grammaire p. 36.

(٦) انظر مقالة الدكتور ابراهيم مدكور فى مؤتمر مجمع فؤاد الاول للغة العربية ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ وموضوعها منطق ارسطو والنحو العربى . وانظر تعليق المستشرق الفرنسى L. Massignon عليه . وانظر تعليق Gibb على الموضوع وذهابه الى ان النحو العربى والنحو السريانى نشآ فى وقت واحد . والى هذا ذهب E. Littmann فى محاضراته .

(٧) البقرة ٩١ .

(٨) الاغانى ، دار الكتب ، الجزء السادس ، ص ٩٦ .

أو قل ان الصيغة لم تشر الى زمن محدود قصير[٩] • فقد جاء فى ابن هشام مـا نصـه : « فوالله انه ليضع رحل رســول الله (ص) اذا أتاه ســهم غرب فأصابه وقتل » •

ومن اهتمام العربية بالفعل غلبة الجملة الفعلية[١٠] على كلام العرب ، ذلك انا لو نظرنا الى كتاب من كتبهم فاحصين على طريقة الاحصاء فى أيامنا ، لاهتدينا الى صدق هذه الدعوى • ولا نريد أن نلل هذه الظاهرة الكلامية ، لان التعليل ربما اخرجنا عن هذا البحث اللغوى • وقد فعل هذا الاستاذ علي الجارم فى مقالة له فزعم « ان العقلية العربية تقتضى أن تكون الجملة الفعلية الاصـل ، والغالب الـكثير فى التعبير ، لان العربى جرت سليقته ، ودفعته فطرته الى الاهتمام بالحدث فى الاحوال العادية الكثيرة • وهى التى لا يريد فيها أن ينبه السامع الى الاهتمام بمن أوقع منه الحديث أو التى لا يهتم هو فيها بمن وقع منه الحديث ، فالاساس عنده فى الاخبار أن يبدأ بالفعل ، عدا الغرس وعاد المسافر •••[١١] •

وقد يلتجىء العربى الى الجملة الاسمية اذا كان القصـد الى الفاعل والى الاسراع بازالة الشك فيمن صدر منه الفعل ، فيبدأ بذكره أولا قبل أن يذكر الفعل لكى يخصصه ، أو لكى يبعد الشبهة عن السامع ويمنعه أن

---

(٩) Th. Noldeke, Zur Grammatik des classischen Arabisch, p. 68.

(١٠) حين انص على الجملة الفعلية فى هذه المقالة اريد منها ما كان فيها الفعل طرفا فى الاسناد فهو مسند ابدا ، وعلى هذا فقولنا : « جاء محمد » جملة فعلية مؤلفة من مسند ومسند اليه • ثم اذا قلنا : « محمد جاء » لم يتبدل شىء فى حقيقة الاسناد فطرفا الاسناد هما كما كانا فى الجملة الاولى ، وهى بهذا جملة فعلية أيضا مؤلفة من مسند ومسند اليه ، والمسند اليه هو الفاعل فى كلتا الجملتين • والى هذا ذهب نحاة الـكوفة ، فقد اخلوا الفعل من قولهم : « محمد جاء » من الضمير الذى عده البصريون فاعلا • ولا اريد ان أقول فى الفرق بين قولهم محمد جاء وجاء محمد ، ان الاول يفيد التجدد ، والثانى يفيد الحدوث • كما ذهب اليه البلاغيون ، انظر السكاكى ، مفتاح العلوم ٢١٣ •

(١١) على الجارم ، مجمع اللغة العربية الجزء السابع ص ٣١٧ لسنة ٩٥٣ •

يظن به الغلط أو التزيد »[١٢] .

ولا أريد أن اعلق على مقالة الجارم ، فهى تعليلات فكرية فلسفية ، ولا يهم الباحث اللغوى غير بحث الصيغ والاساليب . وربما كان سلوك هذا المذهب ابتعادا عن الحقيقة اللغوية التى هى موضوع البحث .

ولقد اهتم النحويون كافة فى مسألة الاعراب ، فذهب الاقدمةن الى أن الاعراب أثر يجلبه العامل . ومن هنا كان بحثهم فى العامل ، فالبصريون يرون أن الفعل صاحب العمل سواء تقدم أم تأخر وسواء كان ذلك مذكورا أم مقدرا . وكثر حديثهم عن العوامل فقد ألف أبو علي الفارسى المتوفى سنة **٣٧٧** للهجرة كتاب العوامل ومختصره ، وألف الشيخ عبدالقاهر الجرجانى المتوفى سنة **٤٧١** للهجرة كتاب « العوامل المئة » . ولم يكن البصريون وحدهم مهتمين بمسألة العامل فقد بحث فيه غير البصريين من نحاة الكوفة . وظل منهج القوم على هذه الحال الى أن تصدى ابن مضاء القرطبى لهؤلاء يفسد عليهم نظريتهم فى العامل فى كتابه « الرد على النحاة »[١٣] . وهو يكرر رأى ابن جنى فى الخصائص عند كلامه عن العوامل اللفظية والعوامل المعنوية ، ومذهبه الى أن العمل الاعرابى فى الحقيقة للمتكلم ونسبته لغيره لملابسة خاصة[١٤] . ثم بحث الموضوع الاستاذ ابراهيم مصطفى من المحدثين ، هذا القول بتوسع وتصرف .

وانتهى الى أن الحركات بعضها علم على معنى اعرابى ، فالضمة علم

---

(١٢) يشترط الجارم ان تصدر الجملة باسم وهو مسند اليه ولو كان المسند فعلا وهذا مذهب كثير من النحويين .
ومما تجب الاشارة اليه ان هذه الجملة المصدرة بالاسم مسندا اليه أو قل ــ فاعلا ــ متلوا بمسند هو الفعل ، كثرت فى عربيتنا الحديثة . وسبب ذلك يرجع الى ان هؤلاء الكاتبين متأثرون بالاساليب المترجمة ، ويتبين صدق هذا فى الاخبار التى تذيعها وكالات الانباء وفى الاقاصيص المترجمة ، ثم سرت هذه الظاهرة الى كتابات اخرى .

(١٣) ابن مضاء ، الرد على النحاة ٨٥ ، ٨٦ .

(١٤) ابن جنى ، الخصائص ١/١١٠ .

الاسناد ، والكسرة علم الاضافة ، أما الفتحة فحركة لا تدل على شيء[١٥] .

والبحث في دلالة الحركات جاء متأخرا ، فلم يشر اليه رؤوس الطبقة الاولى من النحويين ، فقد جاء عن الخليل انه قال « ان الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه »[١٦] . والى هذا ذهب ابراهيم أنيس من المحدثين في كتاب من أسرار اللغة[١٧] .

ولعل العلة في ذهاب الاقدمين هذا المذهب في التعلق بالعامل هو تأثرهم بالمنهج الفلسفي الذي يقول بالعلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، ولا يصح جريا على هذا أن يكون حدث من غير محدث . وقد تعلق البصريون أكثر من غيرهم بهذه الدعوى وأرادوا أن يفيدوا منها في البحوث النحوية واللغوية ، فآل الامر الى خلط وتعقيد وابتداع أبواب ليس من الصعب أن تبعد من دائرة النحو واللغة .

وقد أشار الاقدمون الى هذا ، وقالوا بضعف العلل النحوية وابتعادها عن اللغة وحقيقتها ، ومن هؤلاء ابن جني في باب « علل العربية أكلامية أم فقهية » ما نصه « اعلم ان علل النحويين - واعني بذلك حذاقهم المتفننين ، لا الفافهم المستضعفين - أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين[١٨] والى هذا أشار ابن فارس في قوله :

مرت بنا هيفاء مجدولة تركية تنمي لتركي

ترنو بطرف فاتن فاتر أضعف من حجة نحوي[١٩]

ولم يسلم حتى هؤلاء القدامى من هذا الخلط ، فلم ينصرفوا في بحوثهم اللغوية الى المذهب اللغوي الصحيح ، ولم يستطيعوا أن يجنبوا بحوثهم هذا الدخيل الذي لا يمت للبحث اللغوي بصلة . ومن يتعقب كتاب

---

(١٥) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ص ٥٠ .
(١٦) سيبويه ، الكتاب ٢/٣١٥ .
(١٧) ابراهيم انيس ، من أسرار اللغة ١٤٢ .
(١٨) ابن جني الخصاص ١/٤٨ .
(١٩) انظر ابن خلكان ترجمة ابن فارس ١/٣٦ .

الخصائص لابن جنى يجده يتخبط فى مسائل لا علاقة لها بالبحث اللغوى ، وانما هى من تأثير المنهج الكلامى الذى أشرنا اليه . ولم يدفع ابن مضاء مسألة العامل وينكرها تمسكا بالبحث العلمى اللغوى الصحيح ، فهو ظاهرى المذهب والعقيدة وهو من أجل هذا يريد أن يسود حكم الظاهر على المسائل اللغوية والنحوية ايضا .

وتمسك البصريين بالعامل هو التمسك الذى يرجع الى اصل فلسفى ، أوقعهم فى مأزق أحالت النحو العربى الى تخليط أبعد ما يكون عن البحث اللغوى السليم . فقد وقفوا عند قوله تعالى « وان أحد من المشركين استجارك »[٢٠] فقالوا بفاعلية أحد ولكن لفعل محذوف يفسره المذكور ، ومن هنا نشأ عندهم ما أسموه بالجملة المفسرة التى لا محل لها من الاعراب .

ومبعث كل هذا انهم لا يخلون الفعل من ضمير الاسم السابق ، مدفوعين بالنظر الفلسفى . وموقف الكوفيين من هذا انهم أجازوا أن يخلى الفعل من الضمير وهم يوردون شاهدهم المعروف ، وهو قول الزباء :

ما للجمالِ مشيُها وئيدا

أجندلاً يحمِلْنَ أم حديدا[٢١]

ومن هنا يظهر ان النحويين ، بصريين وكوفيين ، متفقون فى قولهم بالعامل ، غير انهم يختلفون فى مقدار أخذهم به . فالفعل عند كثير من نحاة الكوفة لا يعمل فى الفاعل ، فالعامل عند الكسائى ليس لفظ الفعل وانما كونه داخلا فى الوصف أى كونه متلبسا بالفعل[٢٢] .

ولعل عدم جواز خلو الفعل من الفاعل عند البصريين ، أوقعهم فى مأزق آخر فى باب التنازع ، وهو أن يتقدم عاملان أو أكثر ويتأخر عنهما أو عنها معمول يصلح أن يكون معمولا لكل واحد مما تقدم ، كقولهم مثلا :

---

(٢٠) التوبة ٦ .

(٢١) السيوطى ، الهمع ١/١٥٩ ، شرح الاشمونى على الالفية ٢/٤٣ عن مدرسة الكوفة .

(٢٢) السيوطى ، الهمع ١/١٥٩ .

« قام وقعد اخوك » فقد قال البصريون بأعمال الثاني لقربه ، واختار الكوفيون أعمال الاول لسبقه ، غير ان الفراء قد ذهب الى أنه اذا اتفق العاملان في طلب المرفوع فالفعل لهما جميعا[٢٣] .

ومن اهتمام النحويين بالفعل ألحقوا به في الاعمال أسماء الافعال وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين والصفات المشبهة ، وأفعل التفضيل وأمثلة المبالغة . وأسماء الفاعلين عند الكوفيين أفعال دائمة .

ومن اهتمام العربية بالفعل انها تأخذه من الاسماء ، اقول من الاسماء التي تثبت اصالتها في الاسمية . فكلمة « اسم » لم تخرج من السمو أو الوسم على الخلاف بين البصريين والكوفيين[٢٤] ، وانما هي كلمة قديمة وجدت في سائر اللغات السامية فأفادت منها العربية فصاغت منها فعلا هو « سمّي » . ولم يلتفت النحويون الى هذا ، وانما شغلوا أنفسهم في الكلام عن همزة الاسم[٢٥] .

والباحث في الافعال ثلاثية أم غير ثلاثية يجد ان طائفة منها ذات اصول جامدة فالفعل « رأسَ » مأخوذ من الرأس والرأس كلمة وجدت في اللغات السامية كافة وهكذا في « كبده » أي أصاب كبده ، وصبع به وله وعليه مأخوذ من غير شك من الاصبع . وهناك أفعال مأخوذة من أعضاء الجسم كقولهم « نابه » « ينيبه » وهو من الناب . و « ورك » من الورك ، وتورك بالمكان أقام به ، ولعل الفعل « ترك » بناء على افتعل للفعل « ورك » .

ومن هذا الباب « فخذه » أي أصاب فخذه . وربما كان هناك علاقة بين « ضرع » وهو اسم وبين « رَضَعَ » وهو فعل[٢٦] .

واذا أردنا أن نستوفي هذا الباب وجدنا حشدا كبيرا من الافعال

---

(٢٣) الرضي ، شرح كافية ابن الحاجب ١/٧٩ .
(٢٤) ابن الانباري ، الانصاف المسألة الاولى .
(٢٥) يرى الخليل ان همزة الاسم زيدت للتوصل الى النطق بالساكن ؛ الكتاب ٢/٦٦ .
(٢٦) انظر محاضرات بول كراوس على طلبة كلية الآداب في القاهرة ١٩٤٣ .

لا ترجع الا الى اسم جامد صريح ، فالتامر واللابن مأخوذان من التمر واللبن وتمره اطعمه التمر ، ولعل « بات ترجع الى البيت ، وابتنى صار له بنون » .

ولقد انقطعت الصلة فى كثير من الاحيان بين المادة الفعلية وبين الاصل الاسمى . فكلمة الجن وهى كلمة قلبها البحث اللغوى فردها الى اصول غير سامية ، هى التى ولدت لنا « جن » بمعانيها المخلفة بحيث صار الباحث لا يقرب بين هذا الاسم والفعل . وقل مثل ذلك فى كلمة « الانس » وهو اسم ، والفعل « أنس » وليس من شك ان الفعل خارج من الاسم . أما المصدر « أنس » فلا نرى الا انه معمول على الفعل .

ومن اهتمامهم بالفعلية انهم حسبوا كثيرا من الادوات افعالا ، فأداة النفى « ليس » فعل جامد عندهم ، ولم يقولوا بتركيبها ، ويفصلوا القول فيه . وهكذا قل فى بئس ونعم وعسى ، وربما اعتبروا « لات » فعلا معتمدين على قوله تعالى « وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا »[٢٧] .

ولقد أعطت كلمة « ال » أبنية فعلية ، وكلمة « أل » كلمة سامية وتعنى الاله . وكان يحيى بن يعمر[٢٨] يقرأ « جبر َإل َ » بتشديد اللام ، وقال بعض المفسرين الا ِل ّ هو الله واحتج بقوله تعالى « وأن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة » . وقال أبو عبيدة الا ِل ّ العهد .

وخلاصة القول ان الفعل يحتل فى العربية مكانة عظيمة لما تحظ بالدراسة اللازمة .

---

(٢٧) الحجرات ١٤ .

(٢٨) يحيى بن يعمر نحوى مشهور انظر نزهة الالباء لابن الانبارى .

التركيب والبناء في العربية

دفعني الى الكتابة في هـذا الموضوع ما ذكره المستشرق الالماني Brockelmann في دراسته المطولة المقارنة في اللغات السامية ، وهو : أن ليس في اللغات السامية ادغام للكلمات[1] • ولا يريد بالادغام في مقالته ما أراده النحويون في هذا المصطلح الذي أفردوا لـه بحثا طويلا مسهبا في كتبهم • وانما يريد به وصل كلمة باخرى بحيث يتكون منهما كلمة واحدة ذات معنى مؤلف من معنى الكلمتين المستقلتين •

ولعله أصاب لو استعمل « التركيب » مصطلحا لغويا لما أسماه بالادغام • وكأنه أحس أن في العربية شيئا كثيرا من المركبات ، وهذا الشيء الكثير يفسد عليه رأيه ، فاستدرك ان التركيب غير قديم في اللغات السامية ، وان هذه اللغات كانت خالية مما أسماه « بالادغام » في عصورها القديمة ، وليس من حجة علمية تاريخية تثبت صحة هذه الدعوى •

والذي ثبت في التحقيق العلمي أن في العربيـة تراكيب كثيرة ، وانهـا استفادت من التركيب لتكثير المعاني والمباني • وقـد اعتمد « البناء » في العربيـة على التركيب بصوره المختلفة ولعـل من المفيـد أن انبـه اني لم أرد « بالبناء » المصطلح النحوي الذي يقابل الاعراب ، وانما أردت بـه بنية الكلمة Structure .

ويدخل التركيب في بنية كل من الاسم والفعـل والحرف ، ولعـل التركيب في الحروف يشير الى قدم هذه الوسيلة في العربيـة ، وسنعرض للادوات التي أفادت من التركيب على مر العصور وكر الدهـور ، فلزمت صورتها المعروفة والتي ورثتها العربية واستعملتها وكأنها كلمات مستقلة • ولو نظر الباحث في هذه الكلمات لوجدها مركبات استفادت من التركيب ، ولاسيما في صورتها المنحوتة ، والنحت لون من ألوان التركيب في العربية

(١) Brockelmann Grundriss I, S. 5.

خضعت لـه الحروف والاسـماء . وكان مذهب الخليل بن أحمد : « ان الكلمتين اذا ركبتا ، ولكل منهما معنى وحكم ، أصبح لهما بالتركيب حكم جديد »[٢] . وتبع الخليل فى مقالته جمهور الـكوفيين ، ومنهم الكسائى والفراء ، وليس كما رأى الاستاذ طه الراوى من : أن الخليل قد شذ عن جمهرة النحاة فى رأيـه فى الادوات المنحوتة[٣] . ولنـا أن نعرض للادوات التى دخلهـا التركيب عـلى طريقـة النحت فلزمت صورتهـا المعروفة الموروثة :

١ ـ لن

وهى مركبة عند الكسائى من الكوفيين وحده ، وعنده انها مركبة من « لا » و « أن » وحـذفت الهمزة تخفيفا ، والالف للساكنين[٤] . وقـول الـكسائى فى « لن » هو قول الخليل وهو صاحب الرأى فيه ، جاء فى كتاب سيبويه :

فأما الخليل فزعم انها « لا أن » ولكنهم حذفوا لكثرته فى كلامهم ، كما قالوا : ويلمه ، يريدون وي لامه وكما قالوا يومئذ ، وجعلت بمنزلة حرف واحد[٥] .

وعن الازهرى : انه « حكى هشام عن الكسائى مثل هذا القول الشاذ عن الخليل »[٦] . على ان جمهور البصريين يرد هذه المقالة ويقول بعـدم تركيب « لن » وانها : حرف بسيط برأسه وهو مذهب سيبويه لان الاصل فى الحروف عدم التصرف[٧] . وليس أصله « لا » فأبدلت الألف نونا كما

---

(٢) ابن جنى : سر صناعة الاعراب ـ حرف الـكاف ـ .
(٣) طه الراوى : تاريخ علوم اللغة العربية ، ص ٢٨ .
(٤) الاشمونى ، الشرح ٣/٢٨٣ ؛ ابن هشام ، المغني حرف اللام .
(٥) سيبويه ، الـكتاب ١/٤٠٧ والنص فيه غموض .
(٦) ابن منظور ، لسان العرب مادة لن .
(٧) الزبيدى ، تاج العروس مادة لن .

ذهب جماعة من اللغويين[٨] . فذهب الفراء مثلا الى أن أصل « لن » و « لم » لا فأبدلت الالف نونا فى احدهما وميما فى الآخر[٩] .

وما دام القدامى قد قربوا بين « لن » و « لم » فلابد لنا من النظر فيها والقول بتركيبها وان لم ينص عليه متقدم من اللغويين والنحويين وقد قال بهذا المستشرق الالمانى « برجشتراسر » فزعم : ان أصل النفى فى العربية أن يكون بلا وما ، وان العربية قد اشتقت من « لا » أدوات منها : ليس ، ولن ، ولم ، وقال : « لن مركبة من « لا » و « أن » ولم « ربما كانت مركبة من « لا » و « ما » الزائدة[١٠] .

وقال فى مكان آخر حين عرض لحروف العطف : « ثم » خاصة بالعربية ويظهر انها مشتقة من « ثم » المقابلة لـ Sam العبرية و tamman الآرامية ، و (أو) سامية الاصل ، و (أم) حديثة عربية ، وأصلها : أما ، كما ان (لم) أصلها "lama" وكم أصلها ka - ma[١١] . والذى رأيته ان النحويين المتقدمين لم يقولوا بالتركيب وردوا هذا الرأى الى الخليل والكسائى ، أما المتأخرون فقد قالوا بالتركيب ولاسيما اللغويين منهم ومن هؤلاء ابن جنى فى سر صناعة الاعراب .

٢ ـ كأن

وهى مركبة من الكاف و (أن) فأصل قولهم كأن زيدا عمرو ، انما هو : ان زيدا كعمرو ، فالكاف هنا تشبيه صريح وهى متعلقة بمحذوف . ثم انهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذى عليه عقدوا الجملة ، فأزالوا الكاف من وسطها وقدموها الى أولها لافراط عنايتهم بالتشبيه ولاجل تقديم الكاف فتحوا همزة « ان »[١٢] .

---

(٨) المصدر السابق .
(٩) الرضى ، شرح الكافية ٢/٢٣٥ .
(١٠) برجشتراسر ، التطور النحوى للغة العربية ، ص ١١١ .
(١١) المصدر السابق ص ١١٩ .
(١٢) ابن جنى ، سر صناعة الاعراب ص ٣٠٥ .

ويلتزم ابن جنى قاعدة التركيب ويرفض ما عداها ، فهو يذكر رأى الخليل فى « لن » وتركيبها ويقول به ويعقب عليه بقوله : « فهذا يدلك ان الشيئين اذا خلطا حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا الا نرى ان لولا مركبة من « لو » و « لا » ومعنى « لو » امتناع الشيء لامتناع غيره ، ومعنى « لا » النفى أو النهى • فلما ركبا معا حدث معنى آخر وهو امتناع الشيء لوقوع غيره • فهذا فى « لن » بمنزلة قولنا كأن ومصحح له ومؤنس به وراد على سيبويه ما ألزمه الخليل »[13] •

٣ ـ لكن

اختلف فيها النحويون فهى بسيطة عند البصريين[14] • وهى مركبة عند الفراء من الكوفيين من « لكنْ » و « أنَّ » فطرحت الهمزة للتخفيف ونون لكن للساكنين كقوله :

« ولاك اسقنى ان كان ماؤك ذا فضل »[15] •

وهذا علة نصبها الاسم عنده[16] •

ويرى غير الفراء من أهل الكوفة انها مركبة من « لا » و « أن » و « الكاف الزائدة لا التشبيهية وحذفت الهمزة تخفيفا »[17] •

ولعل السبب فى اختلاف رأيهم فى هذه المواد يرجع الى انهم لم يستكملوا أدوات البحث اللغوى فى اللغة العربية وذلك يقتضيهم النظر فى اللغات السامية الاخرى ليستطيعوا أن يقطعوا برأى علمى أصيل • ذلك ان النظر فى العبرية يهدى الباحث الى القول بتركيب هذه المادة من « لا » و « كن » التى تعنى فى العبرية « هكذا » • وبهذا قال « برجشتراسر »

---

(١٣) المصدر السابق •
(١٤) الزبيدى ، تاج العروس ، مادة لكن •
(١٥) ابن هشام المغنى ١/٢٢٦ •
(١٦) الزبيدى ، تاج العروس •
(١٧) ابن يعيش ، شرح المفصل ٨/٧٩ ؛ ابن هشام ، المغنى ١/٢٢٦ •

في محاضراته الموسومة بالتطور النحوى للغة العربية[١٨] .

وقول بعض الكوفيين بتركيبها من « لا » والاحرف الزائدة الاخرى أقرب الى الصواب وأهدى الى الطريق الصحيح الذى توصل اليه بالفطنة والنظر السديد .

٤ ـ ليس

يرى الخليل انها مركبة من لا ايس فطرحت الهمزة والزمت اللام بالياء [١٩] . وهو قول الفراء ايضا والدليل على ذلك قول العرب « ائتنى به من حيث ايس وليس أى من حيث هو ولا هو »[٢٠] .

أما غير الخليل من البصريين فقالوا بخلافه . فهى عند ابن السراج حرف بمنزلة « ما » والى ذلك ذهب أبو علي الفارسي وابن شقير وغيرهم[٢١] . والقول بفعليتها واسميتها كثير ، قال ابن سيدة : « ليس كلمة نفي وهى فعل ماض وأصلها ليس بكسر الياء »[٢٢] .

وذهب ابن هشام الى انها فعل لا يتصرف ، وزنه فعل بالكسر ، ثم التزم تخفيفه ولم نقدره فعل بالفتح لانه لا يخفف ولا فعل بالضم ، لانه لم يوجد فى يائي العين »[٢٣] .

وقول العرب « ائتنى به من حيث ايس وليس » مفيد فى هذا الباب ، ذلك ان ايس يعنى الوجود و « ليس » يعنى عدم الوجود .

والنظر فى اللغات السامية يدل على هذا ، فالمادة « يش » فى العبرية تفيد الوجود والمادة « ايث » فى الآرامية تفيد الوجود وقد ركبت « لا » مع هذه المادة التى تفيد الوجود . والى هذا ذهب برجشتراسر فى بحثه[٢٤] .

---

(١٨) برجشتراسر ، التطور النحوى ، ص ١١١ .
(١٩) ابن منظور ، لسان العرب مادة ليس .
(٢٠) الزبيدى ، تاج العروس ، مادة ليس .
(٢١) ابن هشام ، المغنى ، حرف اللام ١/٢٢٧ .
(٢٢) ابن منظور لسان العرب مادة ليس .
(٢٣) ابن هشام ، المغنى ١/٢٢٧ .
(٢٤) برجشتراسر ، التطور النحوى ص ١١١ .

ولو رجعنا الى العربية وقصرنا عليهـا البحث دون النظر فى اللغات السامية لوجدنا فيهـا ما يؤيد القول بتركيب « ليس » من « لا » و « ايس » فقولهم « ايس » للدلالة على الوجود يقابله فى العربية مادة « شيء » وهى مقلوب لكلمة « ايش » السامية ، والتى وجدت فى العبرية مؤدية هذا المعنى ، والتى تحجرت فى العربيـة فى جمل معدودة مقيدة فى معجمات اللغة فى قولهم « ايس » • فكأن « ليس » « لا ايس » اى انها من « لا ايش » ومعناها « لا شيء » ثم قوى التركيب على طريقة النحت فصارت ليس •

٥ ـ لات

ولابد للباحث فى « ليس » أن يعرض لـ « لات » وهى أداة من أدوات النفى الحقت بليس وعملت عملها وقيدت بشروط •

وقد علل النحويون التاء فى هذه الاداة فقال جماعة انها للتأنيث ، وقال آخرون انها للمبالغة[٢٥] وفاتهم انها مركبة ولم يفطنوا الى تركيبها • وهى لا تختلف عن ليس • وربما كانت « لا ايث » فصارت فى العربية « لا ايت » ثم استفادت من النحت فصارت « لات »[٢٦] •

٦ ـ لهنك

ذهب الفراء الى انها منحوتة وان أصلها : « والله انك كما روى عن ابى أدهم الكلابى : له ربى لاقول ذلك • بقصر اللام ثم حذف حرف الجر كما يقال : الله لافعلن ، وحذفت لام التعريف ايضا كما يقال : لاه أبوك أى

---

(٢٥) ابن عقيل ، شرح الفية ابن مالك •

(٢٦) جاء فى ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ٤٠٣ ما ننقله لما فيه من فائدة فى هذا الباب : « وقال بعض البغداديين : التاء تزاد فى أول حين ، وفى اول اوان وفى اول الآن وانما هى « لا » ثم تبتدىء فتقول : تحين وتلان • » وربما كان فى هذا مفتاح الامر فى تركيب « لا » حيث ان من شرط اعمالها ان اسمها وخبرها اسما زمان وان يحذف الاسم غالبا ولم تجيء « لات » الا فى قولهم :

لات حين مناص او ما حمل على الحين او ما يرادفه •

لله أبوك • ثم حذف الف « فعال » كما يحذف من الممدود اذا قصر كما يقال : الحصاد والحصد قال :

الا لابارك الله فى سـهيل اذا ما الله بارك فى الرجال

ثم حذفت همزة انك »[27] •

ولم يقل سيبويه بتركيبها • وقد ذهب الى انها كلمة تكلم بها العرب فى حال اليمين ، وليس كل العرب تتكلم بها •

وعن سيبويه تقول العرب : لهنك لرجل صدق • يريدون • « ان » ولكنهم أبدلوا الهاء مكان الالف وروى ابن فارس قول الشاعر :

لهنـك من عبيسـة لوسـيمة على هنوات كاذب من يقـولها[28]

وقد قال الفراء بتركيب كثير من الادوات « فمنذ » مركبة عنده من « من » و « ذو » وحذفوا الواو تخفيفا[29] ، و « هلم » عنده مركبة من « هل ام » أى أقصد فخففت الهمزة بأن القيت حركتها على اللام وحذفت فصارت : هلم[30] •

٧ ــ مهما

هى مركبة عند الكوفيين من « مَه اسم فعل بمعنى اكفف زيد عليهـا « ما » فحدث بالتركيب معنى لم يكن »[31] • وهى عند البصريين مركبة من « ما » الشرطية زيد عليها « ما » فنقل اجتماعها فابدلت الاولى هاء[32] •

٨ ــ مهمن

هى أداة كوفيـة أضافهـا الكوفيون الى أدوات الجزم[33] واحتجوا بقول الشاعر :

---

(٢٧) الرضى ، شرح الكافية ٢/٣٥٧ •
(٢٨) سيبويه ، الكتاب ٢/٤٧٤ ، الصاحبى ص ٤ •
(٢٩) ابن يعيش ، شرح المفصل ٤/٩٥ •
(٣٠) ابن يعيش ، شرح المفصل ٤/٤٢ •
(٣١) الاشمونى ، الشرح ٤/١١ •
(٣٢) المصدر السابق •
(٣٣) المخزومى ، مدرسة الكوفة ص ٢٦٦ •

أماوىَّ مهمن يستمع فى صديقه ... أقاويل هذا الناس ماوىَّ يندم[٣٤]

وهى مؤلفة من (مه) و (من) وتركيبها كتركيب « مهما » ولم يقل بها البصريون[٣٥] . ودخل التركيب فى الاسماء ، والمركبات من الاسماء معروفة فى كل زمان ، وقد أفادت منها العربية فى تكثير المعانى . وفى العربية قدرة على الاستفادة من هذا النوع ، وهى دائمة الاستفادة منه . وربما وجدنا فى اللهجات الدارجة الشيء الكثير من هذه المركبات . وللمجاورة والاتباع فى العربية أثر فى ذلك .

والمركبات على ضربين : ضرب يقتضى تركيبه أن يبنى الاسمان معا ، وضرب لا يقتضى تركيبه الا بناء الاول . فمن الضرب الاول نحو العشرة وما نيّف عليها ، الا اثنى عشر ، ونحو قولهم وقع فى « حيصَ بيصَ » ولقيته « كفةَ كفةَ » ، و « صحرةَ بحرةَ » ، وهو جارى (بيتَ بيتَ) ، ووقع (بينَ بينَ) وآتيك (صباحَ مساءَ) و (يومَ يومَ) ، وتفرقوا (شغر بغَرَ) و (شذرَ مذرَ) و (خِذع مِذع) وتركوا البلاد (حيث بيث) و (حاث باث) ومنه (الخازِ بازِ) .

والضرب الثانى نحو قولهم افعل هذا بادى بدي وذهبوا ايدى سَبا ، ونحو معدي يكرب وبعلبك وقالي قلا[٣٦] .

والذى يلاحظ فى هذا الباب ان العربية حين بنت جزئى المركّب اختارت الفتح التماسا للخفة والخفة متطلبة فى هذا الباب ذلك ان المركب كلمة طويلة ثقيلة . ومع هذا فقد جوز الفراء اعراب العدد المركب[٣٧] .

ولقد جد فى العربية مركبات منحوتة اقتضاها الدين الاسلامى الحنيف ، وهذه المنحوتات أبنية نُحتَ كل منها من كلمتين أو أكثر ، كالبسملة ، والحمدلة ، والحولقة ، أو الحوقلة ، والهيللة ، والحسبلة ،

---

(٣٤) الرضى ، شرح الكافية ٢/٣٣٥ .

(٣٥) ربما كانت هذه الاداة من استخدام التنوين فى « مهما » كما استخدم التنوين فى ما فصار « من » .

(٣٦) الزمخشرى ، المفصل ص ١٧٦ .

(٣٧) السيوطى ، همع الهوامع ، باب العدد .

والحيعلة ، والسمعلة ، فانها منحوتة من : بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولا اله الا الله ، وحسبي الله ، وحي على الصلاة ، وسمع الله لمن حمده . وقد اشتق من هذه المنحوتات افعال رباعية فقيل بسمل وحمدل وحَيعَل ...

وذهب ابن فارس الى أن أكثر الابنيــة التى تزيد اصولهــا عن ثلاثة منحوتة عن كلمتين ، مثل قول العرب للرجل الشديد : ضبطر ، من ضبط وضبر وفى قولهــم صهصلق ، من صهل وصلق ، وفى الصلدم انـــه من الصلد والصدم[٣٨] .

وربما كان فى الصلدم قول غير هـــذا فهو صلد ذُيّل بالميم خدمــة للتمييم مقابلة للتنوين . ومن المركبات المنحوتة قولهم « ايش » يريدون به أى شيء[٣٩] ، فقد نص عليــه ابن السيد فى شرح أدب الكاتب وصرحوا بأنه سمع من العرب . وقد وقع فى شعر قديم : من آل قحطان وآل ايش . وقد استخدمت النون فى بناء الرباعى من الاسماء فقيل ضيفن ، وهرشن ، وشدقن ، ورعشن كما استفيد من الميم فقيل خضرم وصلدم .

وقد دخل النحت فى الافعال غير الثلاثية فالرباعى دحرج[٤٠] مؤلف من « دحَرَ » و « درج » . وقد ذهب هذا المذهب ابن فارس كما أشرنا الى ذلك . وقــد ذهب الزمخشــرى فى الـكشاف الى ان قرضب آت من « قرض » و « قضب »[٤١] . وبناء الرباعى فى العربية جاء بطرق عدة منها :

١ ــ اضافة ميم ذيلا أو كسعا Suffite كقولنا حرجم .

---

(٣٨) ابن فارس الصاحبى ص ٢٢٧ .

(٣٩) الخفاجي ، شفاء الغليل ص ١٥ .

(٤٠) يرى بعض الباحثين الى ان الفعل دحرج آت من درّج ثم ابدل من الراء الاول حاء .

(٤١) يلوح ان الاصل فى قرضب هو قضب والراء تعويض من الضاد الاولى . والتعويض بالراء ظاهرة سامية معروفة بالـكلمة الآرامية « ترتين » تقابل « اثنين » فى العربية والراء فيها عوض عن النون وكذلك « بر » و « برتا » الاراميتين تقابلان « ابن » و « بنت » ولا وجه للرباعى « فرقع » الا هذا السبيل فهو من « فقع » بتضعيف القاف .

٢ ـ الاستفادة من التنوين كما في ضامن وتضامن والاصل هو تضامّ •

٣ ـ الاستفادة من فك الادغام في المضعف والتعويض من الحرف الاول المضعف حرفا آخر هو النون مثلا كقولهم :

جندل وهو من جدّل ، قنطر وهو من قطّر ، وفك الادغام والتعويض بالنون شهير في العربية فضمير المخاطب المنفصل أنت واخواته هو « اتّ » في سائر اللغات السامية • وقد ورد الادغام وفك الادغام في ألفاظ كثيرة مثل قبّرة قنبرة •

وكقولهم حنجرة وسنبلة ودمّلة • ولعل فك الادغام هو الذي جاء بالفعل « انطى » وهو من أتّى بمعنى أعطى • جاء في الآية الكريمة : « وآتى المال على حبه » ثم حدث ابدال بين التاء والطاء • ولهذا فقول القدامى « باستنطاء بكر » لا أساس له ، فهو من هذا الباب وليس الاستنطاء مقيدا ببكر دون غيرهم ، والدليل وجود الكلمة حية في سائر أقطار العربية •

وقد يعوض بالهاء : « فجمر » تصبح « جمهر » وهو من « جمّ » •

٤ ـ الاستفادة من الميم صدرا في الفعل Préfixe كقولهم مَسخر ومشدق •

٥ ـ الاستفادة من الشين كسعا في الفعل كقولهم في اللسان الدارج « حركش » وهو لم يصبح فصيحا بعد • والشين التي تذيل الافعال مقتطعة من « شيء » فقول العامي « دگش » يريد به دق شيئا • وكقولهم « لا شي » و « يلاشي » وهو مركب منحوت من « لا » « شيء » •

٦ ـ وربما خرج العامي من الشين الى الجيم لفائدة معنوية ، فقوله « صخرج » اثبات لما فيه قوة الصخر وطبيعته ، ومنه « صفرج » اثبات لما فيه شيء من الصفرة •

بحث" مقارن" في التثنية

لقد ضاع من العربية شيء كثير ، على ان ما انتهى من اللغات السامية الاخرى قليل جدا بالقياس الى الثروة الكبيرة فى اللغة العربية ، ومن أجل هذا لا يجد الباحث مادة وافرة يتخذ منها أدواته وأسبابه فى البحث ، ليتوصل بذلك الى اعطاء صورة واضحة جلية عن كثير من الحقائق اللغوية[1] .

موضوع التثنية فى العربية واللغات السامية الاخرى من الموضوعات التى يحسن الوقوف عندها طويلا ، ذلك ان مصادر البحث وجلها كتب النحو واللغة لا تقول الا الشيء اليسير .

والتثنية أو المثنى ظاهرة لغوية وجدت فى اللغات السامية ، واللغة اليونانية[2] وفى السنسكريتية ولها آثار فى اللغات الجرمانية[3] . ولكننا نستطيع أن نقرر ان التثنية ظاهرة سامية أو قل عربية قبل كل شيء[4] .

والبحث فى هذا الموضوع يستدعى النظر فى الكلمة « اثنان »[5] من حيث هى من أسماء العدد ، ومن حيث هى من أسماء أيام الاسبوع ، وهذه الاسماء من أقدم الكلمات فى اللغات السامية .

والاثنان اسما لليوم ، من أيام الاسبوع من الاسماء العربية الاسلامية . فلم يكن العرب فى جاهليتهم يسمون أيامهم بأسام مفردة كما سمتها الفرس غير انهم أفردوا لكل ثلاث ليال من كل شهر من شهورهم اسما على حدة

---

(١) ابن الانبارى ، نزهة الالباء ص ٣٣ .

(٢) Cf. Gesenius, Bebrew Grammer, (Oxford 1910) p. 244.

(٣) Cf. Grim's Grammer 2nd ed., p. 814.

(٤) Cf. The Litevature on the Semitic dual in Grünert, Die Begriffs - Präponderanz und duale a potiori im Altarab. (Wien, 1886), P. 21.

(٥) Cf. Philippi Z. D. M. G. XXXII, P. 21 - 98.

مستخرجا من حال القمر وضوئه فيها[٦] ثم انهم كانوا يطلقون على يوم الاثنين (أهون أو أهود)[٧] .

أما (الاثنان) من أسماء العدد فهي نقطة البدء في الموضوع ، وهي مادة ذات صور كثيرة في معجمات العربية ، فمنها الفعل ثنى والاسم ثنى بكسر الثاء واسكان النون وربما كان منها اسم مفرد هو اثن أو ثن وتنكب عنه الاستعمال مستغنيا بالواحد والأحد .

والمعنى الاصيل للمادة هو فكرة وجود شيئين أو طرفين متلازمين أو غير متلازمين ، ومن هذه الفكرة جاء الفعل ثنى بمعنى طوى ولوى فصار الشيء وكأنه ذو شقين ومنها ايضا جاء (الثنيان) بضم الثاء للرجل الذي يلي السيد .

وقد افترضنا ان (للاثنين) اسما مفردا لم يألفه الاستعمال هو (ثن) وهو ثنائي وربما استند على نصف الحركة المتمثلة في همزة الوصل ليكون على ثلاثة . ثم حمل عليه الاستعمال لفظ المؤنث فقيل (اثنتان) أو ثنتان والتاء فيها كالتاء في بنت واخت وكلتا . وهذه التاء علامة للتأنيث المحمول على التذكير قياسا كما حملوا على (ابن) (ابنة) وان وجدت بنت وهي صاحبة الاصالة[٨] ولكن النحاة العرب قالوا : « واما تاء بنت واخت وهنت وكلتا وثنتان فليست لمحض التأنيث بل هي بدل من اللام في حال التأنيث ولذا سكن ما قبلها »[٩] . وكأنهم اشترطوا في تاء التأنيث أن يفتح ما قبلها .

ولفظ (اثنان) من الالفاظ السامية فهو في اللغة العبرية (شنايمْ) Shnäyim للمذكر و (شتايمْ) Shtäyim للمؤنث ، وفي الاكدية (شين) للمذكر و(شتين) للمؤنث وفي الحبشية نجد (سنوى) و(سانيت) بمعنى اليوم الثاني من الاسبوع أو الشهر . على ان الحال تختلف في

---

(٦) البيروني ، الاثار الباقية طبعة ساخو ليبسك ص ٦٣ — ٦٤ .
(٧) ابن سيدة ، المخصص ، الايام والليالي والشهور للفراء ص ٦ .
(٨) انظر التطور النحوي ص ٦٢ .
(٩) الرضي شرح الكافية ٢/١٦١ ، راجع مسألة الجنس في : Wensinck, Gender in the Semitic Languages

الآراميــة والسريانيــة فهي (ترين) trên للمذكر و(ترتين) tertên للمؤنث .

ولا زالت هــذه اللفظة حية في لغة لبنــان الدارجة وهم يستعملونهــا بمعنى الرفيق أو الشريك في اللعبــة التي تتطلب اثنين يقومان بهــا[١٠] . والراء في هذه اللفظة ليست أصيلة فهي من فك الادغام الحاصل في النون فيدل باحــدى النونين راء ، ويدلنــا على هــذا ان كلمة (برتا) Barta مؤنث (بر) Bar بمعنى بنت تجمــع على (بنــات) كمــا تجمع (بتْ) العبرانية والتي تعني بنت على (Bânôt) أي بنات وهو ايضا من فك الادغام الكائن في تاء المفرد . وكذلك الحــال في لهجة قرويي جنوبي العراق اذ يقولون بت بكسر الباء للبنت ويجمعونها بنات .

وفي العربية ألفاظ تدل على معنى (الاثنين) مثل كلمة (زوج) كما في قوله تعالى : (والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج)[١١] .

ومن هذه الالفاظ (كلا)[١٢] للدلالة على المثنى المذكر ، وقد حمل عليها قياسا (كلتا) للدلالة على التأنيث . وليست هــذه اللفظة مما اختصت بها العربية ففي اللغة الحبشية يوجد (كلأتو) للمذكر و (كلأتي) للمؤنث ، وفي حالة المفعولية توجد صيغة واحدة للمذكر والمؤنث وهي (كلأت) .

ولفظ كلأ يدل على الفصل والقطع والتنصيف ومن هنــا نشأت فكرة التثنية[١٣] وفي العبرية توجد (كلآيمْ) Kil'ayim للدلالة على المثنى .

والنحاة العرب بحثوا في هــذه المادة ولاسيما في اعرابهــا فقالوا ان الالف في كلا علامة اعراب أو هي دلالة مثيرة الى الاعراب ، ثم قالوا ان الالف في كلتا للتأنيث وعند آخرين وهم جماعة أهل الكوفة ، ان الالف في كلا وكلتا للتثنية ثم قالوا ولم يستعمل واحدهما اذ لا احاطة في الواحد

---

(١٠) انيس فريحة مجلة الابحاث آذار ١٩٥٨ .

(١١) سورة (ق) ٥٠ ، ٧ .

(١٢) Cf. Brockelmann, Grundriss, P. 455.

(١٣) Cf. A. Dillman, Lexicon Linguae Aethiopicae cum indice Latino

فلفظهما كلفظ الاثنين سواء ، وقالوا ويجوز للضرورة استعمال الواحد كما في البيت :

في كلت رجليها سـلامى زائده كلتاهما مقرونة بواحده[١٤]

وأهل الكوفة يقولون ان (كلا) من (كل) (بتشديد اللام) فحذفت اللام وزيدت الالف للتثنية والتاء للتأنيث[١٥] . والتاء في كلتا ليست مبدلة من الواو كما يرى الكوفيون ، وليست للالحاق كما يرى الجرمي بل هي للتأنيث كما بينا آنفا .

والنحويون ربما كانوا يهرفون وذلك لانهم لم يفطنوا الى المقارنة في دراسة النحو واللغة ، ففاتهم نتيجة لهذا علم كثير .

والمثنى من الموضوعات النحوية التي لم تبرز البروز الواضح الا في العربية من اللغات السامية . فقد زال تمامـا من اللغة السريانية ، ولم نعد نستطيع أن نتبين صيغة المثنى (tryanaya) الا في خمس كلمـات هي : (trên) اثنـان للذكر و (tertên) للمؤنث و (Ma'tin) مئتـان و (Misrîn) وتعني مصر ... وهـذه الـكلمات بصيغة المثنى وان كانت مكسورة ما قبل الياء والنون فالمعروف عند الباحثين ان حركة ما قبـل الياء والنون الفتحة[١٦] . وقد اعتاضوا عن التثنية بالعـدد (ترين) و(ترتين) وهما اثنان واثنتان يسبقان الاسم المجموع فيقولون مثلا (trên Gavrin) ويعني رجلان[١٧] .

وفي الآرامي الانجيلي Aramean Biblique فالتثنية مقصورة على أعضاء الجسم المزدوجة كمـا في (يداين) و(رجلاين) وعلامتـه اليـاء والنون . وهما في الآشورية ضيقة الاستعمال كذلك وعلامته الألف اللينة المتبوعة بالنون كمـا في apchan وتعني (حبلان) ، على ان النون تحذف

---

(١٤) شرح الـكافية ، الرضي ج ١ ص ٣٢ .

(١٥) ابن الانباري ، الانصاف المسألة ٦٢ .

(١٦) القس بولس الـكفرنيسي ، غرامطيق اللغة الآرامية السريانية ص ٥٠ .

(١٧) اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية للمطران يوسف داود .

اذا اسند الى ضمير كما فى Inâshu (عيونه)[١٨] وكذلك اقتصر فى النصوص البابلية على أعضاء الجسم المزدوجة • ولا يوجد المثنى فى الحبشية الا فى بقايا متحجرة والعلامة (a) كما فى عشرا ومعناها عشرون • وفى اللغة العبرية يستعمل المثنى فى أعضاء الجسم المزدوجة وفى الادوات التى تتألف من شقين كالمقص والميزان مثل (يدايم) "Yaday im" وهناك كلمات دلت على الجمع وجاءت على صيغة المثنى كما فى (شمايم) سموات و(مايم) مياه • وتوجد فيها كلمات دلت على المفرد وهى بصيغة المثنى كما فى (صهورايم) أى الظهيرة •

وعلامة التثنية فى العبرية ياء وميم مفتوح ما قبلهما •

أما فى اللغة الجنوبية فالتثنية فى الاصل أن يلحق المثنى فتحة وياء فى اللغة المعينية ay ثم زيد مد ونون ân قبل العلامة الاولى كما فى (معليانى) Ma'liyanay ، وفى اللغة السبئية يسبق المثنى لفظ (اثنين) مثل tani Namiran وتعنى (نمران)[١٩] •

ونستطيع أن نتبين من هذا العرض ان علامة التثنية هى الالف والنون أو الياء والنون مسبوقة بالفتح الا ما جاء من الكلمات المشار اليها آنفا • وسأخلص الى الوقوف عند علامة التثنية فى العربية وقفة يستدعيها البحث •

والبحث فى هذه الظاهرة اللغوية يؤدى الى أن نقول ان المثنى مادة لغوية اختصت بها العربية ولزمتها فى الفصيحة من أقدم العصور حتى الآن ، وقد تعدى الامر هذه الفصيحة الى اللهجات المحلية الدارجة كما سنرى • ولكننا لو فحصنا أقدم النصوص العربية التى يطمأن الى صحتها ومن هذه نصوص القرآن الكريم ، لرأينا ان المثنى لم يكن ثابت القواعد محدود الصورة فى هذه النصوص • فهناك تردد وترجح فى صيغة المثنى نفسه وفى صيغة الفعل الذى اسند اليه فلم يتحمل هذا الفعل ضمير المسند اليه على

---

(١٨) Cf. Brockel mann, Précis de liguistique Sémitique. P. 133

(١٩) اغناطيوس غويدى ، المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ص ١٣ •

هيأة التثنية ، وسنعرض لهذه النصوص لتبين صحة هذه الدعوى :

قال تعالى : قد كان لكم آية فى فئتين التقتا[٢٠] وقد تمت المطابقة فى هذه الآية .

وقال تعالى : ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما[٢١] ولم يراع في هذه الآية ان أحد المتعاطفين وهو مسند اليه جمع وذلك ان الفعل وهو طرف في الاسناد قد تحمل ضمير التثنية .

وقال تعالى : فارتدا على آثارهما قصصا[٢٢] وقد تمت المطابقة فى هذه الآيــة .

وقال تعالى : فلما دخلوا على يوسف آوى اليــه أبويه ، ورفع أبويه وخروا له سجدا[٢٣] ، وفى هذه الآية جاء المثنى (ابويه) ثم عقب فى الشق الاخير من الآية بالفعل (خروا) وهو مسند للجمع ولم تأت الآية (وخرا) على التثنية ثم انه لما كان الفعل مسندا لضمير الجمع جاءت الصفة منصوبة على الحال وهي مجموعة أيضا . وقال تعالى : كلتا الجنتين آتت اكلها[٢٤] ولم تتم المطابقة . والنحوى القديم لا يعدم أن يتلمس لما يراه فى كتاب الله من تأويل وتعليــل وتخريج فقد قالوا ان لفظ (كلا) أو (كلتــا) مفرد وقد حمل على اللفظ فى هذه الآية وجاءت عندهم قاعدتهم أن الحمل على اللفظ أفصح وأكثر . وقد استعملوا هذه القاعدة فى كثير من الادوات اللغوية كما فى اســم الموصول (من) وفى (كل) وفى كثير من أســماء الجمع مثــال (ركب) و(وفد) ونحوهما .

وقال تعالى : هذا خصمان اختصموا فى ربهم[٢٥] والمطابقة غير حاصلة فى هذه الآية فقد اسند الفعل الى ضمير الجمع المذكور دون أن يسند الى

---

(٢٠) آل عمران ، ١٣ .
(٢١) الانبياء ، ٣٠ ، انظر ابا عبيدة ، مجاز القرآن ص ٩ .
(٢٢) الكهف ، ٦٤ .
(٢٣) يوسف ١٠٠ .
(٢٤) الكهف ، ٣٣ ، انظر السيوطى ، همع الهوامع ج ١ ص ٤١ .
(٢٥) الحج ، ١٩ .

ضمير الاثنين وهذا وجه من وجوه الكلام في الاسلوب القرانى •

وقال تعالى : ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم[٢٦] ، والمطابقة حاصلة في هـذه الآية بين المسند والمسند اليـه • غير ان فيهـا مشكلة وهى مشكلة ان وعملها وسنعرض لها عرضا خاصا غير آبهين بأقوال النحويين في الموضوع •

وقال تعالى : والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما[٢٧] والمطابقة حاصلة بين المسند والضمير في كلمة (ايدى) ، ولكن القول لنا في كلمة (ايدى) نفسها فهى جمع ولم تكن مثنى •

وقال تعالى : اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا[٢٨] والمطابقة تامـة بين طرفى الآية •

وقال تعالى : وان طائفتـان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما[٢٩] ، والمطابقة غير حاصلة في هـذه الآية • فقد اسـند الفعل الى ضمير الجمع المذكر ، ولكن الضمير في الظرف هو ضمير المثنى •

وقال تعالى : فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين[٣٠] وقد اسند الفعل (قال) في هذه الآية الى ضمير المثنى اشارة لقوله (لها) و (الارض) ولكن الآية عادت فوضعت هذا المثنى بوصف الجمع المذكر العاقل في قوله (طائعين) •

وفي لغة القرآن كثير من الآيات الاخرى التى جاء فيها المثنى محافظا على المطابقة في الفعل والضمير • ولكن عددا غير قليل من الامثلة لا تستقيم فيه هذه المطابقة التى أشرنا اليها كما عرضناها في الآيات السالفة الذكر •

ونستطيع أن نخلص من ذلك الى أن العربية القديمة حتى زمن القرآن ومـا بعـد ذلك بقليـل لم تكن تراعي المثنى من حيث ما يسمى في نظـام

---

(٢٦) طه ، ٦٣ •
(٢٧) المائدة ، ٣٨ ، انظر ابا عبيدة مجاز القرآن ص ٩ •
(٢٨) آل عمران ، ١٢٢ •
(٢٩) الحجرات ، ٩ •
(٣٠) فصلت ، ١١ •

تأليف الجمل (Syntaxe) • وعـدم المراعاة ربما جاءت من أن المثنى داخل فى حيز الجمع وبذلك عومل فى أمثلة كثيرة من القرآن الكريم كما ظهر من عرضنا للآيات • غير ان العربية الفصيحة قد حافظت على المثنى فى الفترة التى تبعت الفترة الاسلامية وحين تقدم النثر العربى ونشأ ما اصطلح عليه النقاد والمحدثون بالنثر الفنى • ومن أجل ذلك قل أن نجد هذا التردد فى الاساليب الكلامية فى هذه الفترة بين التثنية والجمع •

وقد رأينا ان علامة التثنية تتردد بين الالف والنون والياء والنون وقد يكون النون ميما كما مر بنا ولم يخصص سائر اللغات السـامية ـ ما عـدا العربية ـ الالف والنون أو الياء والنون بحالة اعرابيـة خاصة ، كمـا هو الحال فى العربية • فكتب النحو تقيد المثنى بالالف والنون فى حالة الرفع والياء والنون فى حالتى النصب والجر • ونريد هنا أن نلقى ضوءا على هذه الحقيقة اللغوية النحوية • ولابد لنـا أن نرجع الى آيات الله البينات ونقف قليلا عند قوله « ان هذان لساحران » •

نجد فى كتب اللغـة « ان القراء يختلفون فهـذا يرفع ما ينصبه ذاك وذلك يخفض ما يرفعه هـذا »(٣١) • وقـد حـار الاوائل من المسلمين فى تعليل هذه المسائل المشكلة ، فزعم بعضهم ان فى القرآن لحنا ، فقد روى أبو معاوية محمد بن خازم التميمى السعدى المتوفى ١٩٣ للهجرة عن هشام ابن عروة بن الزبير بن العوام عن أبيه عن عائشة انها قالت : « ثلاثة أحرف فى كتاب الله هن خطأ من الـكاتب : قوله : « ان هذان لساحران »(٣٢) وهذه قراءة ابن كثير وحفص ، أما أبو عمرو بن العلاء فقـد قرأ : « ان هذين لساحران » على الجهة الظاهرة المكشوفة وقد قرأ ابن مسعود : « أن هذان لساحران » بفتح همزة أن وهى بمعنى (نعم)(٣٣) • وقد قرأ أبي (ان هذان لساحران) باسكان نون (أن) •

---

(٣١) الطبرى ، تفسير ١٧/ ١٢٠ •
(٣٢) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ٣٤ •
(٣٣) الزمخشرى ، الـكشاف ٣/ ٢٧ •

وقد تكلم النحويون في مسألة اللحن هذه واعتلوا لكل حرف منها[٣٤] . فقد قال بعضهم ببناء (هذان) وقال غيره باعرابها[٣٥] وقد خلص غيره وعدها لغة ونسبها الى بنى الحارث بن كعب[٣٦] واستشهدوا الشعر فذكروا قول الشاعر : أحب منك الجيد والعينانا .

وذكروا ايضا قول الشاعر :

واهاً لهند ثم واها واهـا يا ليت عيناها لنا وفاها
ان أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وليس القولان منسوبين .

غير ان اللسان قد أورد في هذه اللغة قول هوبر الحارثى :

تزود منا بين اذناه ضربة دعته الى هابي التراب عقيم[٣٧]

ولغة بنى الحارث بن كعب قلب الياء الساكنة اذا انفتح ما قبلها ألفا فيقولون أخذت الدرهمان واشتريت ثوبان[٣٨] . وفي هذه اللغة ان ألف حرفى الجر (الى) و(على) تبقى على حالها اذا كان مدخولها ضمير غائب ومخاطب ، كما جاء في نوادر أبى زيد ، أن المفضل الضبي ذكر لبعض أهل اليمن قوله[٣٩] :

أى قلوص راكب تراها طاروا علاهن فطر علاها

ولم ينسب السيوطى هذه اللغة لبنى الحارث بن كعب وحدهم ، فقد عزاها لبنى العنبر وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان ومزدادة وعذرة[٤٠] .

ويتبين من هنا ان التزام المثنى للالف والنون اسلوب في الكلام لا

---

(٣٤) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ٣٦ .
(٣٥) الرضى ، شرح الكافية ٢/١٧٣ .
(٣٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٢ .
(٣٧) اللسان فى ١٠/٦٤ ، فى ١٩/١٦٣ ، فى ٢٠/٢٢٦ .
(٣٨) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ٣٦ ، ابن فارس ، الصاحبى ص ٣٠ .
(٣٩) أبو زيد النوادر ص ٥٨ ، ابن فارس ، الصاحبى ص ٣٠ .
(٤٠) السيوطى : همع الهوامع ١/٤٠ .

علاقة له بحال من أحوال الاعراب . فهى تمثل لغة قسم كبير من العرب ، وهى بذلك مسألة من مسائل اللهجات الاقليمية ويؤيد هذا حال المثنى فى لهجاتنا الحديثة الدارجة فكيف نفسر الياء والنون علامة فى التثنية القديمة فى النصوص العربية ؟ وهل هى حال خاصة بالنصب والجر ؟ هذا ما نشغل أنفسنا بالاجابة عنه .

اقول بأن الالف والنون علامة فى التثنية فى احوالها الثلاث كما دلت على ذلك لغة الجماعات التى أشارت اليها كتب النحو واللغة . ولعلي استطيع أن اقول ان الياء والنون علامة فى التثنية لغة ايضا تمثل قبائل معينة ، وجهات معينة . غير انه لم تنص المصادر على وجود شيء من هذه اللغة ، واقول ان المصادر لا تسعفنا كثيرا فى التماس اللغات واللهجات وهو راجع الى أمور عدة منها :

(١) قلة المصادر التى بأيدينا لنتبين الصورة الواضحة للغة العربية فى لهجاتها وتاريخ تطورها . وقد عرفنا ان شيئا كثيرا من هذه الاسانيد قد ضاع وعفى عليه الزمان .

(٢) سوء تحرى الرواة للهجات العربية مقيدة بالبيئة أو الاقليم .

(٣) ارساء العربية على هيأة لغة الصدر الاول للاسلام ممثلة بالقرآن والحديث ، واهتمام المسلمين بهذه اللغة غيرة عليها وتعصبا لها ، وقد ذهب فى هذه اللغة عناصر كثيرة من عادة اللهجات الاقليمية . ولعل جانبا مهما من هذه الخلافات الاقليمية يبدو فى كتب القراءات .

قلنا اذن ان الياء والنون لغــة كالالف والنون فى المثنى ونتبين صدق هذا عما عرضناه فى صدر هذه المقالة عن المثنى فى اللغات السامية الاخرى فالياء والنون أو الميم علامة معروفة فى جملة لغات منها أو قل لهجات سامية من هذه الإسرة الكبيرة اللغوية .

ولعــل الياء فى التثنية مســألة من مسائل الامالة ، والامالة من صفات اللهجات المحلية قديما وحديثا . ولم تكن الامالة عامة فى مسألة من المسائل ، فابن فارس يقول فى اختلاف لغات العرب والمراد باللغات اللهجات : ومن

وجوه الاختلاف ، الاختلاف في الامالة والتفخيم في مثل (قضى) و(رمى) فبعضهم يفخم وبعضهم يميل[41] والتفخيم ضد الامالة .

وليست العربية بدعا في مسائل الامالة فهي معروفة في أغلب اللغات السامية ، ففي العبرية مثلا تمال الالف الى الواو أو الياء .

وحقيقة الامالة أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة وبالالف نحو الياء وسببها قصد المناسبة لكسرة أو ياء أو لكون الالف منقلبة عن مكسور أو ياء أو صائرة ياء مفتوحة[42] وليست الامالة لغة جميع العرب ، فأهل الحجاز لا يميلون[43] .

وقد تكون الامالة خاصة بالاصوات وبالعادات الكلامية التي يدرج عليها قوم من الاقوام ، ومن أجل هذا اهتم بها علماء التجويد . والقراء يختلفون ، بعضهم من يميل وبعضهم من يهمل الامالة ، ذلك ان اسباب الامالة ليست بموجبة لها ، بل هي المجوزة عند من هي في لغته[44] .

وابن الجزري ينقل عن أئمته ما يفهم جواز الامالة[45] . وينقل السيوطي كلام ابن الجزري بجواز الامالة[46] .

ذكر الداني في التيسير في حديثه عن الاحرف التي أمالها القراء قال : « اعلم ان حمزة والكسائي كانا يميلان من ذوات الياء فالاسماء نحو قوله (عز وجل) موسى وعيسى ويحي الموتى وطوبى واحدى وكسالى واسارى ويتامى وفرادى والنصارى والايامى والحوايا وبشرى وذكرى وبقيا وضيزى وما اشبه مما ألفه للتأنيث وكذلك الهدى والعمى والضحى والزنى ومأويه ومأويكم .

والافعال نحو قوله تعالى : أبى وسعى وزكى فسوى ويخفى

---

(41) ابن فارس ، الصاحبي ص ٢٠ .
(42) الرضي ، شرح الشافية ٣/٤ .
(43) المصدر السابق .
(44) المصدر السابق .
(45) ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ٢/٣٢ .
(46) السيوطي ، الاتقان ص ١١٥ ، جمع الجوامع ٢/٢٠٠ .

وتهوى[٤٧] ، على ان الباقين قد قرأوا باخلاص الفتح فى جميع ما تقدم .

ونتبين من كتب القراءات ان اصحاب الامالة من القبائل هم تميم وقيس وعامة أهل نجد وهم لا يختلفون فى ذلك ، كما ان أكثر اليمن يميلون الف حتى لان الامالة غالبة فى ألسنتهم فى أكثر الكلام[٤٨] .

وابن يعيش يقول : « عامة أهل نجد من تميم وقيس وأسد يسرون الى الكسر من ذوات الياء فى نحو . شاء وخاف وجاء وكاد ... »[٤٩] .

ويقول سيبويه : « ان ممن يميل قوما من قيس وأسد ممن نرتضى عربيته[٥٠] أما أهل الحجاز فلا يميلون والفتح على ذلك لغتهم[٥١] .

ولنرجع الى المثنى بالياء فنقول ان الياء فيه ، ربما كانت من امالة الالف ، وان قالوا بامتناع امالة الف التثنية ، ذلك انهم أمالوا الف (كلا) و(كلتا) وحصول التثنية فى هاتين الكلمتين واضح جلي . كما يرى الكوفيون ، ومن أجل ذلك قرأ حمزة والكسائى (كلتا الجنتين آتت اكلها) بامالة الالف .

ومن هنا نستطيع أن نقرر ان المثنى بالياء لغة جماعة من الناس ، أو قل جهات اقليمية من جهات اقليمية من جهات العربية . ثم لما أن درجت العربية فى طريقها التطورى وآن لها أن تسجم فى لغة هى لغة القرآن والحديث اختص الاستعمال المثنى بالالف لحال الرفع ، والمثنى بالياء لحال النصب والجر .

والمثنى بالياء فيه شيء ينبغى أن نقف عنده وننبه عليه وهو ان الياء فى المثنى فى الفصيح من العربية قد اكتسبت حركة خاصة وصفة خاصة تبعدها عن ياء الامالة . وهذا الشيء الخاص ما يسمى فى علم الاصوات الحديث بـ (Diphtongue) وهو كأن نقول رجلين Rajulayn بدلا من رجلين

---

(٤٧) الدانى ، التيسير باب الامالة .
(٤٨) السيوطى ، همع الهوامع ٢/٢٠٤ .
(٤٩) ابن يعيش ، شرح المفصل ٩/٥٤ .
(٥٠) سيبويه ، الكتاب ٢/٢٦٢ .
(٥١) ابو شامه ، ابراز المعانى ص ١٥٢ .

Rajulain بالامالة • ونجد صدق هـذه الدعوى فيما بقي من اسـتعمال المثنى في لهجاتنا العربيـة الحديثة • فقد التزم الياء دون تفريق بين الرفع والنصب والجر والياء بهذا لغة عند الناطقين بالعربية في يومنا هـذا • ولو نظرنا الى هذه الياء لوجدناها ياء الامالة في جهات كثيرة من الوطن العربي كما في العراق وفي سوريا وفي مصر وفي جهات اخرى • على ان هذه الياء ترد في المثنى بهيأة ما أسميناه بـ Diphtongue في جهات اخرى ، كما في نواح معروفة من لبنان وفي جهـات المغرب كمدينة فاس مثلا • وقد اعتبر اللغويون الامالة من نطق العوام واسلوبهم في الكلام • فقد ذكر ابن الخطيب في الاحاطة في حديثه عن أهل غرناطة في الاندلس : « وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها اعراب كثير وتغلب عليهم الامالة[٥٢] • فأهل غرناطة يقلبون ألفات المد الى امالة دقيقة تكاد تكون ياء مثل قولهم (بيب) للباب و(ميل) للمال[٥٣] ، ومن ذلك قولهم (ميدة) للمائدة[٥٤] • ومن ذلك قولهم عيشة في اسم المرأة والصواب عائشة[٥٥] •

على ان الدراسة الحديثة للغة تستفيد من اللهجـات دون النظر نظر القدامى بعزوها لطبقة العوام من الناس •

وقد اهتمت العربية بالمثنى فشاع فيهـا الخطاب للمفرد بصيغة المثنى كما في الشعر كقولهم (خليلي) و (قفا) و (ودعا) • ومن اهتمام العربية بالمثنى اننـا نجد عددا من المصـادر ترد مثناة مثل (سعديك) و(حنانيك) و(لبيك) و(حواليك) و(دواليك) •

وقد وردت مثنيات في العربية ، وهو ما نسميه بالمثنى التغليبي ، وهو تغليب أحد المتجاورين والمتشابهين على الآخر ، فيجعل الآخر مسمى باسمه ثم يثنى ذلك الاسم قصدا اليهما جميعا • والتغليب يكون تارة للشرف وأحيانا

(٥٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ١/٣٥ •

(٥٣) تحقيق حسن حسني عبدالوهاب ، الجمانة في ازالة الرطانة ص ٢١ •

(٥٤) المصدر السابق ص ٣٣ •

(٥٥) الخفاجي ، شفاء العليل ص ١٣٤ •

للشهرة وطورا للخفة مثل (العمران) لابى بكر وعمر (والقمران) للشمس والقمر[٥٦] .

ونستطيع أن تتبين طائفة كبيرة من هذه المثنيات والتى لا نلمس فيها تغليب طرف على آخر بل التثنية حاصلة عن صفة مشتركة بقدر معين فى الطرفين ، كما فيما يلى :

١ ـ الابردان الغداة والعشى والظل والفيء .

٢ ـ الابيضان اللبن والماء أو الشحم واللبن .

٣ ـ الاحمران الخمر واللحم .

٤ ـ أما الليل والنهار فقد اختصا بمثنيات كثيرة منها الجديدان والملوان والدائبان والطريدان والعصران والاحدثان والاحرمان .

٥ ـ الاخشبان جبلا مكة الملصقان بها .

٦ ـ الفرقدان نجمان منيران فى بنات نعش .

٧ ـ النجدان الضلالة والهدى .

٨ ـ الثقلان القرآن وعترة الرسول (وفى الحديث انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى) .

ومن المثنيات ما كان كالاداة أو الآلة المؤلفة من طرفين كالجلمين والمقصين والمدروين والكلبتين ولكن الاستعمال لم يرع صورة المثنى فى هذه فجاء الجلم والمقص . وفى العبرية شيء من هذا فالادوات المؤلفة من شقين وردت بهيأة المثنى عندهم مثل (رحايم) للرحى و(مئوزنايم) للميزان ... والخ .

والنون فى التثنية وكذلك الميم ساكنة فى سائر اللغات السامية عدا العربية . فالنون فيها مكسورة وربما كان الكسر تمييزا للمثنى عن جموع التكسير التى تنتهى بألف ونون مثل (الفتيان) على وزن (فعلان) بكسر

---

(٥٦) لتعلقهم بالقمر وحاجتهم اليه على عكس الحال من الشمس التى لا تستقر اليها نفوسهم فهى جالبة للحر الذى من مرادفاته الموت . الرضى ، شرح الكافية ١٧٢/٢ .

الفاء و(ذكران) على وزن فُعلان بضم الفاء .

على اننا لا نعدم أن نجد فى شواهد اللغة مثنيات بنون مفتوحة وربما كان ذلك لهجة من اللهجات المحلية . كما ورد فى قول الشاعر :

(أحب منك الانف والعينانا)

واذا قلنا ان فتح النون لهجة من اللهجات ، وجدنا دليلا على هذا القول فى القراءات الشاذة التى تؤلف مادة للغات الضيقة المحلية ، فقد قرئ فى الشواذ (أتعدانني) بضم نون المثنى .

الجمع في العربية

« بحث ومقارنة »

الجموع في العربية من المسائل الصعبة ، والاكتفاء في شرح وبسط هذه المسألة بما جاء في كتب النحو واللغة ، غير محقق للغرض العلمي الذي تصبو اليه الدراسات اللغوية الحديثة ، ذلك أن وضع علوم اللغة العربية وتدوينها وصيرورتها على هذه الصورة من النضج ، لم يتيسر الا في عصور متأخرة ، بالقياس الى تاريخ اللغة الطويل . فالذي جاء في الاخبار أن وضع النحو يرجع الى أبي الاسود الدؤلي[1] (المتوفى سنة ٦٩/٦٨٩) ، ولا نريد أن نناقش صحة هذا الخبر . وتفشي اللحن في هذه الفترة يشير الى أن اللغة قطعت مراحل طويلة ، بحيث لم تسلم للعربي سليقته التي كانت تعصم لسانه من الزلل ، ولعل اللحن والعجمة قد دبا في العربية قبل هذا العصر ، فهذا صهيب بن سنان وهو من صحابة رسول الله (ص) كان ينطق العربية بلكنة بيزنطية ، وذلك لان البيزنطيين قد اختطفوه وهو صبي فتأثر بذلك لسانه[2] وما قيل عن صهيب ، قيل عن سحيم عبد بني الحسحاس الشاعر أنه كان يرتضخ لكنة أجنبية[3] ، ربما كانت حبشية نوبية .

وقد طبع (كتاب الله) العربية بطابع مبين ، وقضى بذلك على آثار اللهجات الاقليمية ففي القرآن ، لاول مرة في تاريخ اللغة العربية ينكشف الستار عن عالم فكري تحت شعار التوحيد ، ولا تعد لغة الكهنة والعرافين

---

(١) الجمحي : طبقات ٥ ، ياقوت : ارشاد ٢٨٠/٤ ؛ ابن الانباري : نزهة ٣ ـ ١٣ .

(٢) ابن حجر : الاصابة ١٩٥/٢ ؛ وقد جاء في البيان والتبين ٣٢/١ : أن صهيباً كان يقول : انك لهائن ، يريد انك لحائن .

(٣) الجاحظ : البيان ٣٢/١ .

الفنية الا نموذجا ضعيفا له ، من حيث المواد اللغوية ومسالك المجاز فى اللفظ والدلالة[٤] .

اذن فعهدنا باللهجات قديم جدا ، ولم نستطع تحديده على وجه الضبط ، غير أن كتب اللغة تشير الى أجزاء من هذه اللهجات لا تؤلف الا امارات يسيرة لها ، وهى أمور لا تتعدى العناصر الصوتية ، ولا تتجاوز مسائل الابدال ، على ان هذه لا ترسم صورة واضحة المعالم للغة الاقليمية . ولم يعدها علماء العربية شيئا جيدا ، فالسيوطى يحشرها فى باب « الردىء المذموم من اللغات »[٥] كالكشكشة والكسكسة والتلتلة والعنعنة والفحفحة والعجعجة وغيرها . وهم لا يتفقون فى نسبة كل من هذه الى أصحابها الذين جرت ألسنتهم بها ، فالعنعنة لغة قيس وتميم عند السيوطى ، وهى تعرض فى لغة قضاعة عند الثعالبى[٦] ، وفى « اللسان » غير هذا[٧] .

وربما علقوا اللهجة على كلمة واحدة لا تتعداها الى غيرها ، ومن ذلك الاستنطاء فى لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والازد ، وقيس ، والانصار تجعل العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء ، كأنطى فى أعطى . والذى يقلب النظر فى هذه الكلمة يجد أنها مسألة ابدال ليس غير ، وما زالت الكلمة مستعملة فى أيامنا هذه[٨] .

ونريد أن نخلص من هذه المقدمة الى أن موضوع اختلاف اللهجات فى الاقاليم والقبائل العربية غير متيسر للباحث غير اننا نستطيع أن نلمح مواد لغوية قديمة جدا احتفظت بها العربية ، وهى تدل على اختلاف اللهجات

---

(٤) برهان فك : العربية ٥ (ترجمة النجار) .
(٥) السيوطى : المزهر ١/٢٢١ .
(٦) الثعالبى : فقه اللغة ، (المقدمة) .
(٧) فى اللسان : قال الفراء : تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف « أن » اذا كانت مفتوحة عيناً .
(٨) لعل « أنطى » من « اتى » بتشديد التاء وفك الادغام فى العربية وفى غيرها من اللغات السامية يستدعى تعويض احد الحرفين المتجانسين بالنون كثيرا وربما كان بحرف آخر كالياء أو الراء ، فيحصل من ذلك « انتى » ثم يبدل بالتاء طاء فتصير « أنطى » .

المحلية ، ومن هذه المواد مادة الجمع ، ولاسيما ما اصطلح عليه علماء اللغة بجموع التكسير ، ويعنى هذا اننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع .

فالشيخ يجمع على « شيخة » ، ويجمع على « شيوخ » ، ويجمع على « أشياخ » . والمتتبع للاصول العربية يجد شيئا غريبا فى هذا الباب فالحب (بكسر الحاء) وتعنى المحبوب تجمع على (أحباب) ، (حبان) (بكسر الحاء وتشديد الباء) ، و (حبوب) ، و (حببة) (بكسر الحاء) و (حب) (بضم الحاء)[٩] ، وربما دل هذا على أن صيغة من هذه الصيغ قد استعملت فى جهة من الجهات عند قوم من الاقوام ، فى حين أن جهة اخرى قد ألفت استعمال صيغة اخرى من هذه الصيغ . وكثرة صيغ جموع التكسير فى العربية تسترعى التأمل والنظر ، بحيث لا نستطيع أن نفسر ذلك بغير القول بتعدد اللهجات .

وقد اختصت اللغة العربية بجموع التكسير ، وخلت من ذلك اللغات السامية الاخرى[١٠] ، غير ان فى الحبشية شيئا من صيغ هذه الجموع[١١] ، وقرابة الحبشية من العربية واضحة جلية بحيث يميل بعض الباحثين الى اعتبار الحبشية فرعا من العربية[١٢] .

وفى هذه الكثرة من صيغ جموع التكسير ، ضاع علماء اللغة والنحو الاقدمون ، فقد ذكروا أن جمع التكسير ما تغير بناء واحده كرجال وأفراس[١٣] ، ولكنهم جعلوا « ركب » و« وفد » من أسماء الجموع ولو أنهما من راكب ووافد ، وما كان مفرده بالتاء التى تشير الى الواحدة عدوه

---

(١٩) اللسان مادة حبب وكذا فى التاج .

(١٠) Renan: Histoire des Langues semitiques 3 ed., p. 342.

(١١) Dillmann: Grammatik der oethiopischen sprache, p. 237.

(١٢) S. Guyard: Nouvel essai sur la Formation du pluriel brisé Arabe paris 1870, p. 4.

(١٣) الرضى : شرح الكافية ٢/١٩٠ .

من أسماء الجنس[١٤] . وقد ذهب ابن يعيش الى أن صيغ جموع التكسير أبنية جمع على حسب واحده ، فاذا كان الواحد خفيفا ، قليل الحروف ، قلت حروف جمعه وحركاته لتكسيره ، واذا ثقل الواحد ، وكثرت حروفه ، كثر ما يلحق جمعه ، لما ذكرناه من أن الجمع بزيادة على الواحد[١٥] .

وقد نظر جماعة من اللغويين الى أن فى الجمع فكرة مؤداها : الزياده فى المعنى تعتمد على الزيادة فى البناء[١٦] .

وقد حار المحدثون الاوربيون فى صيغ جموع التكسير وطريقة بنائها ، فذهب جماعة منهم الى أن المقطع الذى يدخل حشوا فى المفرد ، هو الذى يولد صورة الجمع[١٧] ، ومنهم من اعتبر هذه الصيغ أسماء مفردة تضمنت معنى الجمع[١٨] ، ومنهم من رأى أن الجمع فى اللغات السامية عامة ، كلمة مجردة (abstrait) لجنس (neutre) [١٩] .

ونستطيع أن نقول ان جموع التكسير سبقت الجموع الصحيحة فى اللغة العربية ، ذلك أن البحث المقارن فى اللغات السامية الأخرى يدلنا على هـذا ، فقد احتفظت العبرية بعدة كلمات جمعا يشبه ما ندعوه بصيغة منتهى الجموع وهى (حنامل) (hanamil) وتعنى النمل ، وهى فى العربيـة (حنامل) ايضا وكذلك « عرافل » و « حلاميش[٢٠] » ولعل كلمة (أبيب) (abib) العبريـة ، وتعنى « الحصيد » فى العربيـة تعتبر مادة للدلالة على

---

(١٤) سيبويه : الـكتاب ٢/٢٠٣ .

(١٥) ابن يعيش : شرح المفصل ٥/١٥ .

(١٦) البيضاوى ، تفسير (الطبعة الاوربية) .

(١٧) Dillmann, Grammatik der oethiopischen sprache p. 237.

(١٨) Wright, Arabic Grammar London 1862.

(١٩) E. Meyer, Die Bildung und Bedeutung des pluriel in den semitis - chen und indogermanschen sprachen, p. 16.

(٢٠) Gesenius, Hebrew and English Lexicon.

وتقابل (الحلاميش) الخلاميس فى العربية وهى الابل تظمأ أربعة أيام ثم تعـود فتشرب فى اليوم الخامس ، ومعلوم ان لفظ « خمس » أصـل فى الـكلمة .

وجود صيغ جموع التكسير فى العبرية ، ولكن هذه الصيغ كانت فى اللهجات الدارجة العبرية قبل أن تصبح العبرية لغة أدبية تنتظم اللهجات العديدة .

ونستطيع أن نقول ان جموع التكسير فى العربية تعين مرحلة بدائية فى تاريخ اللغة ، بدلالة الجنس ، ذلك انها تتأرجح بين التذكير والتأنيث ، ولغة القرآن على كمالها وبيانها ، أبقت هذه الناحية فالانعام وهى من دون شك جمع تكسير جاءت فى الآية الكريمة : « وأن لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه »[21] . وكذلك جاء فى قوله تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء »[22] . وكذلك تعالى : « وينشىء السحاب الثقال »[23] ، وقوله : « والسحاب المسخر بين السماء والارض »[24] . فقد وصف السحاب فى الآية الاولى بـ « الثقال » وهى جمع تكسير ، فى حين أنه وصف بـ « المسخر » فى الآية الثانية ، على اننا نجد السحاب فى آية ثالثة موصوفا بالجمع ، ثم عاد عليه ضمير غائب مذكر مفرد ، كما فى قوله تعالى : « حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء »[25] . وكذلك قوله تعالى : « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون »[26] ، وقوله تعالى : « والفلك تجرى فى البحر بأمره »[27] ،

---

(٢١) سورة النحل ٦٦ ، جاء فى المجاز لابى عبيدة ١/٣٦٢ يذكر ويؤنث ، وقال آخر المعنى يدل على النعم لان النعم يذكر ويؤنث كما فى قول الراجز ،

أكل عام نعم تحوونه   يلقمه قوم وتنتجونه
أربابه نوكى ولا يحمونه

والزجر لقيس بن الحصين الحارثى كما فى الخزانة ١/١٩٦ ؛ والعينى ١/٥٢٩ والكتاب ١/٥٣ .

(٢٢) سورة النور ٣١ .

(٢٣) سورة الرعد ١٢ .

(٢٤) سورة البقرة ١٦٤ .

(٢٥) سورة الاعراف ٥٧ .

(٢٦) سورة الشعراء ١١٩ .

(٢٧) سورة الحج ٦٥ .

وقوله تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة »[٢٨] ، وقوله تعالى : « وترى الفلك مواخر فيه »[٢٩] ، فقد وصفت الفلك بوصف مذكر وهو « المشحون » ، ثم أنث الفعل فى الآية الثانية ، وفى الآية الثالثة جاء المسند فعلا مسندا لنون الاناث ، ونون الاناث الصق بالعاقل من غير العاقل ، وهذا تحقيق أكيد للتأنيث . على ان اللغويين حين يعرضون لهذه الكلمة يقولون : انها تقع على الواحد وعلى الجمع[٣٠] ، وقال تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى فى الجبال بيوتا »[٣١] ، والفعل مسند الى ياء المخاطبة .

وقال تعالى : « كأنهم أعجاز نخل منقعر »[٣٢] ، وقال تعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد »[٣٣] فالنخل فى الآية الاولى وصف بمذكر ، وفى الآية الثانية وصف بجمع مؤنث ثم عاد عليه ضمير غائب مؤنث . ولكن النحويين الاقدمين حملوا الجمع على التأنيث[٣٤] . وعندهم أن زيادة علامة التأنيث فى آخر الجمع ، كالتاء والالف المقصورة والالف الممدودة ، انما زيدت لتحقيق التأنيث[٣٥] . وعند المبرد أن كل جمع مؤنث ، ولكن المبرد وكثيرا من الاقدمين لم يستوفوا كلام العرب استقراء ، ولم يعتمدوا كثيرا على لغة القرآن التى لا يكفى الاعتماد على سواها . ولا أدرى كيف يتأولون قوله تعالى : « ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهم »[٣٧] .

ويتبين من عرضنا لهذه النصوص القرآنية أن جموع التكسير فى عصر

---

(٢٨) سورة يونس ٢٢ .
(٢٩) سورة النحل ١٤ .
(٣٠) أبو عبيدة ، مجاز القرآن ١/٦٢ ، ٢٨٨ .
(٣١) سورة النحل ٦٨ .
(٣٢) سورة القمر ٢٠ .
(٣٣) سورة ق ٢٠ .
(٣٤) الزمخشرى ، المفصل ٣٨ (الطبعة الاوربية) .
(٣٥) المبرد ، الكامل ٤ (الطبعة الاوربية) .
(٣٦) سورة يوسف ٣٠ .
(٣٧) سورة يوسف ٥٠ .

النبوة ، ما زالت تحتفظ بالطابع المحلى ، وانها صيغ تخص لهجات مختلفة ، لم تصل حد القواعد المقررة التى تتبع نظاما مضبوطا ، من حيث علاقتها بالوصف والفعل والضمائر ، وما نسميه الآن (syntax system) . ولعل صيغ جموع التكسير يمكن أن ترد الى صيغ محدودة ، وذلك ان بعضا منها يحصل من صيغة اخرى باستخدام المد مثلا ، فكلمة « تارة » تجمع على « تير » ، ولكنها تصبح « تيارا » باستطالة الفتحة[٣٨] . وهذا دليل آخر على ان صيغ جموع التكسير وصيرورتها على هذه الكثرة ، ناتج عن اللهجات الاقليمية ، اذ من المعلوم ان بعض الاقاليم تطيل فى الحركات حتى تصبح مدا طويلا . ومن هذه ايضا « أسد » جمع بضم الهمزة واسكان السين أو ضمها ، فاذا اشبع الضم على السين صار مدا ، وصارت الكلمة « أسود » . ومثل هذا « أحبة » و « أحباء » . وتستعين العربية على الثناء مثل « سنة » و « أمة » و « أخ » بتذيلها بحرف ثالث عند الجمع ، فنقول « سنوات » أو « سنهات » ، ونقول « إموان »[٣٩] ومثلها اخوان ومثلها « عضوات » جمع لعضة[٤٠] .

وصيغ الجموع لا تعتمد على مفردات معروفة ذات وزن معين لا تتعداه الى غيره ، فكلمة « رجال » تصح أن تكون جمع « رجل » ، وهو كثير ، كما انها جمع « راجل » كما فى قوله تعالى : « وان خفتم فرجالا أو ركبانا »[٤١] ، وصيغة « فعال » (بكسر الفاء) من صيغ جموع التكسير ، يكون من مفرداتها « فعيل » مثل « كبير » ، و « فعيلة » مثل « كبيرة » ، و « فعل » (بفتح الفاء واسكان العين) مثل « سهام » جمع « سهم » ، و « فعل » (بفتح الفاء والعين) ، مثل « جبل » و « جبال » . وأرى ان « رجال » جمع « راجل » ربما جاء فى القرينة (contexte) وهو انه اتبع بـ (ركبان) ، وركبان جمع « راكب » اسم الفاعل من « ركب » فكذلك حمل عليه « رجال » .

---

(٣٨) سورة يوسف ٥٠ .
(٣٩) المبرد ، الكامل (الطبعة الاوربية) ٣٤ .
(٤٠) سيبويه الكتاب ١٨ (الطبعة الاوربية) .
(٤١) سورة البقرة ٢٣٩ .

وفى قراءات القرآن مادة غزيرة لغوية ، ففى قوله تعالى : « حتى يلج الجمل فى سم الخياط »[٤٢] جاءت قراءة ابن عباس « حتى يلج الجمل » (بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها) ومعلوم ان « فعل » (بضم الفاء وفتح العين وتشديدها) صيغة من صيغ جموع التكسير ، وان مفرد هذه الصيغة هو « فاعل » مثل « ركع » فى « راكع » و « سجد » فى « ساجد » على أن مفرد « الجمل » الجمل (بضم الجيم واسكان الميم) وهو الحبل[٤٤] ، ومجىء صيغة هذا الجمع لهذا المفرد غريب ، ولاسيما عن ابن عباس[٤٥] وهو فى عصر النبوة وعصر القرآن ، وفى هذا اشارة الى أن هذه الصيغ لم تكن مقررة ، مبنية على قواعد ثابتة ، فهى سماعية تخضع لمألوف المتكلم فى الاستعمال المحلى . وقد قرأ ابن مسعود « الجمل » (بضم الجيم وفتح الميم)[٤٦] وقد ذكر السيوطى أن فى الجمل ست صيغ للجمع وهى « أجمل » و « جامل » و « جمال » و « جمالة » و « جمالات »[٤٧] .

وفى العربية مخلفات لمواد لغوية قديمة ، فقد ذكروا أنه ليس فى العربية جمع على « فعلى » (بكسر الفاء) الا « الظربى » جمع « ظربان » و « الحجلى » جمع الحجل بفتحتين[٤٨] . وقد اختلفوا فى بعض الصيغ ، فذهب سيبويه الى أن « الكليب » و « المعيز » جمع ، وذهب غيره الى أنها اسم جمع[٤٩] .

وقد تبين لنا ان الجمع لم يتبع نسقا معينا ، وانما هو استعمال الناس

---

(٤٢) سورة الاعراف ٤٠ .

(٤٤) حدث فى انجيل متى ١٩/٢٤ تصحيح مثل هذا بين دلالة الجمل على الحبل دون الحيوان المعروف ، انظر Bar Bahlul Lexicon 500

(٤٥) الزمخشرى ، الكشاف ٢/١٠٣ ؛ اللسان مادة (جمل) .

(٤٦) اللسان .

(٤٧) H. Derenbourg. Essai sur les pluriels arabes, p. 62.

(٤٨) السيوطى ، المزهر ٢/١٠٣ .

(٤٩) الرضى ، شرح الشافية ٢/٩٢ .

وما درجت عليه ألسنتهم ، فقد جـاء قوله تعـالى : «أو كانوا غزى »[٥٠] (بتشديد الزاى) ومفردها غاز ومعلوم أن وزن « فعل » (بضم الفاء وتشديد العين وفتحها) مفرده « فاعل » كما بينا .

ولكن اللغويين تأولوا ذلك بالتخريج والحمل[٥١] . وقد قرأ الحسن وغيره (غزى) بالتخفيف[٥٢] ويجمع (غاز) على (غزى) (بكسر الغين وتشديد الياء) على صيغة (فعول) (بكسر الفاء) وهذه الصيغة لم تكن من صيغ الجمع ذلك ان (فعول) (بضم العين) كما فى (شهور) هى الصيغة الجارية . ولـكن جمع اسم الفاعل من الفعل الناقص على هذه الصيغة يستدعى تغيير الضمة بالكسرة ، وذلك لان جمع (غاز) يكون (غزوو) كمـا ان (جاث) يجمع على (جثوو) ، ثم قلبت الواو الاخيرة ياء ، فصـار لدينـا (غزوى) و (جثوى) ، ثم قلبت الواو ياء لاجتماعهـا مع الياء كمـا هو مطرد فى العربيـة ، فصارتـا (جثي) و (غزي) بضمتين ، فقلبت الضمة الثانية كسرة لمناسـبة الياء ثم تعدت الـكسرة الى الحرف الاول للمجانسة فصارتا (غزي) و (جثي) بكسرتين وقد قرئت (جثي) بالكسرة كما فى (اللسان مادة جثا) ، على انه لم تكسر الباء فى (بكى) (بضم الباء مجانسة لكسرة الكاف) .

ولابد أن نتعقب شيئا من صيغ جموع التكسـير فى العربيـة ، لنرى كيف تصلح هذه الصيغ أن تدل على اختلاف اللهجات بالاستفادة من مد أو حركة أو امالة ، كما يبدو فى الامثلة الآتية :

فقد جاء فى قوله تعالى : « ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »[٥٣] وسكارى (بضم السين) قرئت : (سكارى) (بفتح السين) و (سكرى) على أن يكون جمعا[٥٤] ، ومن المعلوم ان الذى قرأ (بضم السين) لا يقبل

---

(٥٠) سورة آل عمران ١٥٦ .
(٥١) أبو عبيدة ، المجاز ١/١٠٦ .
(٥٢) ابن حجر ، فتح البارى ٨/١٥٥ .
(٥٣) سورة النساء ٣٤ .
(٥٤) الزمخشرى ، الـكشاف ١/٥١٣ .

الفتح ذلك ان الضم ما ألف استعماله في بيئته • على ان الذي قرأ (سكرى) للدلالة على الجمع يجمع المفرد « سكران » على « سكرى » مثل (أسرى) و (هلكى) و (جوعى) •

ومثل « سكارى » « كسالى » فقد وردت في قوله تعالى : « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى »[٥٥] وقرئت بضم الكاف وفتحها[٥٦] وهي جمع (كسلان) وقد جمع هذا على (كسلى) مثل (سكرى) في (سكران)[٥٧] وقد قيل ان مفردها (كسل) بفتح فسكون ايضا •

وعلى هذا الوزن جاء (حوايا) جمعا في (حوية) و (خطايا) في (خطيئة) و (أيامى) جمعا في (أيم) كما في قوله تعالى : « الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا »[٥٨] وقوله : « انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا »[٥٩] وقوله تعالى « وانكحوا الايامى منكم »[٦٠] •

ومن هذه الصيغة (الاسارى) جمع في (الاسير) كما في قوله تعالى : « وان يأتوكم أسارى تفادوهم »[٦١] وقرئت (أسارى) بفتح الهمزة و (أسرى) كما في (سكرى)[٦٢] ، وقد وردت أسرى في مكان آخر من قوله تعالى : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض »[٦٣] •

ومن هذه الصيغة (النصارى) جمع في (نصري) و (نصران) مثل (ندمان) و (ندامى)[٦٤] ولعل (نصراني) مفرد مصنوع على طريقة النسبة • ومثل هذه الصيغة (فرادى)[٦٥] وقد قرئت (فرادى) بفتح الفاء

---

(٥٥) سورة النساء ١٤٣ •
(٥٦) الزمخشري ، الكشاف ١/٥٧٩ •
(٥٧) اللسان مادة (كسل) ، وابو عبيدة المجاز ١/٢٦٢ •
(٥٨) سورة الانعام ١٤٦ •
(٥٩) سورة طه ٧٣ •
(٦٠) سورة النور ٣٢ •
(٦١) سورة البقرة ٨٥ •
(٦٢) الزمخشري ، الكشاف ١/١٦٠ اللسان (اسر) •
(٦٣) سورة الانفال ٦٧ •
(٦٤) اللسان مادة (نصر) •
(٦٥) سورة الانعام ٩٤ ، أبو عبيدة المجاز ١/٢٠٠ •

و (فردى) جمعاً (لفرد) و (فردان) وقد رأينا ان هذه الصيغة من صيغ الجمع تكون لعدة صيغ من المفرد ، كما انها تشترك مع صيغة اخرى هى (فعلى) وهذه الصيغة تقوم على مفرد من وزن فعيل فى الغالب الكثير مثل (قتيل) و (قتلى) و (جريح) و (جرحى) ، وربما اشتركت هذه الصيغة ، وهى صيغة جمع ، مع صيغة المفرد المؤنث وهى (فعلى) لمذكر هو (فعلان) مثل (سكران) و (سكرى) . ولا نخلص بعد هذه الصيغ المعقدة المتشابكة الا الى القول بدلالة هذه الاجزاء اللغوية على اللهجات المحلية . وتعمل اللهجات عملها أكثر من ذلك ، وفى هذه الصيغة تدخل الامالة فتصبح « كسالى » بامالة الالف نحو الياء عند من يقول بالامالة ، وقد تمال هذه أكثر فأكثر نحو الياء حتى تغدو ياء فيقال (كسالى) بالياء ، ولعل (صحارى) بالالف و (صحاري) بالياء من هذا الباب ، وذلك باستخدام الامالة بين الاثنين .

وقد تأتى صيغة الجمع لاكثر من صيغة فى المفرد مثل (أكنة) فى قوله تعالى : « أكنة أن يفقهوه »[٦٦] فمفردها « كنان »[٦٧] و (كن)[٦٨] وقد جمع (الند) على (أنداد) وهو جمع (نديد)[٦٩] أيضا و (الخدن) و (الخدين) على (أخدان)[٧٠] وقد جمع (الراجل) على (رجل) باسكان الجيم (كصحب) و (تجر) فى صاحب وتاجر[٧١] .

أما صيغة (فعالل) و (فعاليل) و (أفاعل) و (مفاعل) و (مفاعيل) فهى صيغ متشابهة استعمل فيها المد الحاصل من أشباع الكسرة حتى صارت لكل صيغة ، صيغة مثلها بطريقة المد ، ومثل هذا (المفاتح) و (المفاتيح) و (الدراهم) و (الدراهيم) ، ومثل هذا ايضا (المطافل) و (المطافيل) جمع فى المطفل وهى امرأة ذات طفل ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى :

---

(٦٦) سورة الانعام ٢٥ .
(٦٧) أبو عبيدة ، المجاز ١/١٨٨ .
(٦٨) اللسان مادة (كن) .
(٦٩) اللسان مادة (ند) .
(٧٠) اللسان مادة (خدن) .
(٧١) أبو عبيدة ، المجاز ١/٣٨٤ اللسان مادة (رجل) .

وان حديثـــا منك لو تبذلينــه جنى النحل فى ألبان عوذٍ مطافل[٧٢]

و (المشاكل) جمع على مفرد هو « المشكل » وليس من ضير فى أن يكون على مفرد هو (المشكلة) وأبى اللغويون المحدثون فى قبول (المشاكل) جمعا فى (المشكلة) ، وفاتهم أن تحمل على (المصيبة) التي يقال فى جمعها (مصائب) وأصلها (مصاوب) ومثله (المراضع) جمعا فى المرضعة كما يذهب الزمخشرى فى قوله تعالى : « وحرمنا عليه المراضع من قبل »[٧٣] •
ويتبين من هنا ان من كان يميل الى اشباع الكسر ، تولدت عنده صيغة للجمع تختلف عن الاخرى •

ومن هـذا الجمع ما اضطربت الاقوال فى مفرده فالاساطير جمع فى الاسطورة كما جاء فى (اللسان)[٧٤] وهى ايضا جمع فى (الاسطارة)[٧٥] ومعناها الترهات •

وقال الطبرى فى (الاساطير) من قوله تعالى : « أساطير الاولين »[٧٦] : الاسطارة لغة الخرافات والترهات ، وكان الاخفش يقول : قال بعضهم : واحدته اسطورة ، وقال بعضهم أسطارة ، قال ولا أراه الا من الجميع الذى ليس له واحد[٧٧] • وقال أبو عبيدة : جمع (سـطر) على (أسطر) ثم جمع (أسطر) على (أساطير)[٧٨] • وهذا باب جمع الجمع كالرجالات ، والجمالات ، والاقاويل ، والبيوتات ، فقد جاء فى (الاشتقاق) لابن دريد : « بيوتات العرب الثلاثة »[٧٩] •

---

(٢٧) الرضى ، شـرح الشـافية ٤/١٤٥ ، ومن هـذا الباب قول الفرزدق :
تنفي يداها الحصى فى كل هاجـرة نفي الدراهم تنقـاد الصياريف
(٧٣) الزمخشرى ، الـكشاف ٣/٣٩٦ •
(٧٤) اللسان مادة (سطر) •
(٧٥) المصدر نفسه •
(٧٦) سورة الانعام ٢٥ •
(٧٧) الطبرى تفسير ٧/١٠١ •
(٧٨) اللسان مادة (سطر) •
(٧٩) ابن دريد ، الاشتقاق (الطبعة الاوربية) ٢٣٨ •

وقد جاء فى كتب اللغة ان عندهم جموعا لا واحد لها ، مثل « العبابيد » و « المذاكير » و « الابابيل »[٨٠] ، وصاحب اللسان يذكر للجمع الاخير ثلاثة مفردات هى (ابيل) بتشديد الباء و (ابول) بتشديد الباء وفتحها و (ابالة) بتشديد الباء ايضا . والزمخشرى يدخل هذا فى باب (جمع ليس على زنته واحد)[٨١] ، ومنهم من اعتبر شيئا من هذا الباب داخلا فى طائفة المفرد ، ومن هذا (سراويل) فقد عدها جماعة مفردا[٨٢] ، وفات القدامى فى كثير من الاحيان رد الالفاظ الى اصولها ، و « السراويل » معرب فارسى ، أصله « شلوار » فى الفارسية[٨٣] ، ولعل العربية عمدت الى الابدال فقيل (سرابيل) ابعادا للكلمة عن أصلها الفارسى ، وقد جاءت فى قوله تعالى : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر »[٨٤] .

وكأن الكلمة حين أبدل فيها الباء بالواو استبعدت عن أصلها الفارسى ، وأصبحت بذلك غير (سراويل) التى ظنوا انها مفرد ، أو قولهم فيها : انها جمع لا واحد له ، ولذلك فقد قالوا : واحد السرابيل (سربال)[٨٥] .

وكأن هذه الصيغة ، قد شاعت فى العربية للجمع الذى لا يسلم فيه الواحد ، فحسبوا ما جاء على وزنه جمعا ولو كان دخيلا أعجميا مفردا فى لغته التى جاء منها ، فالفراديس وهو معرب عن الفارسية (Paridaiza)[٨٦] ، توهموا فيه صورة الجمع فصاغوا عليه

---

(٨٠) اللسان ، مادة (أبل) .

(٨١) الزمخشرى ، المفصل (الطبعة الاوربية) ١٥ .

(٨٢) الواحدى ، شرح ديوان المتنبى (الطبعة الاوربية) ٧٩٣ .

(٨٣) ادى شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ؛ الجواليقى ، المعرب .

(٨٤) سورة النحل ٨١ .

(٨٥) الزمخشرى ، الكشاف ٢/٥٢٦ ، اللسان ، مادة (سرب) .

(٨٦) O. Block et W. V. Wartburg, Dictionnaire Etymologique de la Langue Francaise.

« الفردوس » مفردا ، وقد جاء في قوله تعالى : « كانت لهم جنات الفردوس نزلا »[87] .

ولعل « الحذافير » وهو جمع « الحذفور » و « الحذفار »[88] ، قد جاء من « الاظافير » جمع « ظفر » أو « أظفور » بعد هذين الابدالين ، وحين حصلت الحذافير بهذه الطريقة ، توهموا أن لهـا مفردا كالذى ذكرناه . ومعنى الحذافير في قولهم : « أعطاه الدنيا بحذافيرها » أى بأسرهـا . وعلى هذه الطريقة جاءت « جراثيم » من « شراشيم » ، وهذه الاخيرة تعنى في العبرية الاصول والجذور[89] ، وهي في السريانية من أصل « شرشا »[90] وهو الجذر ايضا ، وما زالت مستعملة في لغة اللبنانيين الدارجة ، وكأنها عربيـة الاصل ، وقـد بدأت تتعدى اللسـان الدارج عند نفر من الكتـاب اللبنانيين ، فيجمعونها على « شروش » . ولكن هذه الاصول السامية أعطت العربية « جراثيم » بطريقة الابدال وظلت الـكلمة محتفظة بميم الجمع العبرى ، ثم صيغ عليها مفرد هو (جرثومة) .

واتبعت « الحذافير » بكلمة أخرى على شاكلتها وهى « الجزامير » ، و « الجزامير » ، تفيد المعنى نفسه كما زعم صاحب اللسان[91] ، وهذا ما يسميه الاقدمون بالاتباع ، كقولهم (شذر مذر) ، وعلى عادتهم أخذوا من من « الجزامير » مفردا هو (الجزمور) . وليس من شك أن اللفظ الثانى من ألفاظ الاتباع لا يقصد بـه تأديـة المعنى الاول ، وانما يراد به تثبيت المعنى باستخدام وقع اللفظة ، وكونها تؤلف مع سابقتها سجعا له في ذهن السامع جرس وقوة .

وقد جاء في كتب اللغة « الخراطين » ديدان طوال تكون في طين

---

(٨٧) سورة الـكهف ١٠٧ .
(٨٨) اللسان مادة حذف .
(٨٩) Gesenius, Hebrew and English Lexicon.
(٩٠) القرداحي ، اللباب (قاموس سرياني – عربى) .
(٩١) اللسان مادة (حذر) .

الانهار[٩٢] ، وقال الازهرى : ولا احسبها عربية محضة • ولم يصوغوا من هذه مفردا • ولعل « الخراطيم » من الخراطين ، وحسبوه جمعا لوجود الصيغة ، ولشدة الضرورة الى استعماله مفردا وهو « خرطوم » ثم لكون الخرطوم أنفا مقدما للفيل ، أطلقوه على السيد الشريف المقدم ، ومنه جاء أخرنطم ، أى رفع انفه وغضب ، وأصله (انخرطم) مثل (احرنجم) • ولكنهم لم يحملوا على الجمع كلمة صيغتها صيغة جمع ، ان لم تكن تشتمل على فكرة الجمع فى المعنى ومن أجل ذلك لم يحملوا « السمادير » وهو ضعف البصر[٩٣] ، على الجمع ، ولكنهم صاغوا منها « أسمدر » فعلا أى ضعف بصره ، ولقد فسروا قوله تعالى « انما سكرت أبصارنا »[٩٤] ، أى غشيت سمادير وهو ما يتراءى للانسان من ضعف بصره[٩٥] • وهو معرب عن « سمراد » ومعناه الوهم والخيال ، كما يقول « أدى شير »[٩٦] •

وقد فرقوا بين ما يأتى للمؤنث من الصيغ وما يأتى منها للمذكر ، فلا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل غير انهم قالوا : « فارس » والجميع « فوارس » و « هالك » و « هوالك » • قال ابن جذل الطعان يرثى ربيعة ابن مكدم :

فأيقنت انى ثائر ابن مكدم   غداة اذ أو هالك فى الهوالك[٩٧]

وعلى هذا نستطيع أن نحمل (بواسل) جمعا فى (باسل) وهذا الجمع قد شاع فى اسلوب أدبائنا فى عصرنا الحاضر ، ولو أن (باسل) يجمع على « بسل » كما تذهب الى ذلك كتب اللغة • وعندهم أن فواعل تأتى دائما فى غير العاقل كالخواطر والسوابق والعوامل وهى جموع فى الخاطر والسابق للفرس والعامل للدواب العاملة • على ان هذه الالفاظ

(٩٢) اللسان مادة (خرطن) •
(٩٣) اللسان مادة (سمدر) •
(٩٤) سورة الحجر ١٥ •
(٩٥) أبو عبيدة المجاز ٣٤٧/١ •
(٩٦) أدى شير ، الالفاظ الفارسية المعربة •
(٩٧) أبو عبيدة ، المجاز ٢٦٥/١ •

الدالة على العاقل من صيغة « فواعل » تشير الى أن الجمع كان فى « فاعل » مطلقا فى فترة زمنية لا نستطيع تقديرها .

والنظر فى الاساليب يدل على ان العربية خصت صيغة جمع بمفرد معين فى الدلالة على مادة من المواد ، كما خصت صيغة جمع آخر بالمفرد نفسه فى الدلالة على مادة اخرى . فالعين وهى الباصرة قد جمعت فى القرآن على (أعين) وعين الماء قد جمعت فى القرآن نفسه على « عيون » ولا اريد أن اقول هذا ، ولكنى أود أن اسجل ملاحظة جرى عليها نص الذكر الحكيم[٩٨] ، ومثل هذا « الابيات » وقد استعملت فى الغالب جمعا لبيت من القصيدة ، أما البيوت فقد وردت غالبا جمعا للبيت بمعنى المنزل ، على ان البيت بمعنى المنزل جاء فى الشعر وربما فى غير الشعر مجموعا على « أبيات » .

أما جمعا التصحيح فالمؤنث منها ما كان بألف وتاء كما تقول كتب النحو . وملاك الامر فيه ان الجمع يحصل من الزيادة فى طول الكلمة أو قل من المقطع الذى يضاف بأشباع الفتحة كما فى « فاطمة » فنقول « فاطمات » اذ ليس للتاء فى « فاطمات » وظيفة فى صيغة الجمع مطلقا . كما جاء فى قوله تعالى : « كأنه جمالة صفر »[٩٩] وقد قرئت « جمالات »[١٠٠] . ومثله قوله تعالى : « وألقوه فى غيابة الجب »[١٠١] ، وقد قرئت « غيابات »[١٠٢] .

أما جمع التصحيح المذكر فالتزامه بالواو والنون أو بالياء والنون ، اشارة الى أنه أحدث عهدا من جمع التكسير وذلك لانه يشير الى أن اللغة بدات مرحلة جديدة تخضع فيها للقواعد المقررة متخلصة من الشذوذ وتعدد الالسنة .

---

(٩٨) جاء فى جمع العين على (عيون) فى عشر آيات من القرآن الكريم ، كما جاءت (الاعين) فى اثنتين وعشرين آية .
(٩٩) سورة المرسلات ٣٣ .
(١٠٠) الزمخشرى ، الكشاف ٤/٦٨٠ .
(١٠١) سورة يوسف ١٠ .
(١٠٢) الزمخشرى ، الكشاف ٢/٤٤٧ .

ودليلنا على افتراض هذه المسألة ما نجده فى لغة سامية اخرى وهى العبرية من اطراد الجمع فيها بالياء والميم وهذه اللاحقة تساوى الياء والنون فى العربية والياء والميم فى الجرائيم آتيان من الصيغة العبرية وهى « شراشيم »(١٠٣) ولكن العربية على عادتها افترضت أن يكون مفرد « الجرائيم » « جرثومة » كما فى الاسطورة والاساطير .

واطراد الجمع فى العبرية يشير الى المرحلة اللغوية العالية التى بلغتها العبرية ، على ان الباحث لا يعدم أن يجد صيغا قديمة تشير الى المتحجرات اللغوية الدالة على شيوع صيغ جمع التكسير فى العبرية قبل مرحلتها الاخيرة ، ولعل كلمة (عزازيل)(١٠٤) العبرية والتى كتب عنها كثيرا ونوقش معناها فى القرن الماضى ، من هذه البواقى اللغوية الدالة على صيغ جمع التكسير .

واختص جمع التصحيح المذكر بالعاقل ولكن شيوعه فى اصول غير عاقلة يشير الى بدء مرحلة استعمال هذا الجمع ، وفى هذه الفترة لم تستقر بعد الاصول التى بدأت تسير عليها اللغة . فقد جمعت ألفاظ العقود من العدد على هذا الجمع . ووردت منه ألفاظ عدها النحويون ملحقة به لمخالفتها قواعدهم التى استنبطوها من الكثير الغالب وهى أرضون ووابلون وأهلون وعالمون وجاء منه كلمات ذات اصول ثنائية (Bilitères) مثل (بنون) و (مئون) و (قلون) و (سنون) و (عضون) كما فى قوله تعالى : « الذين جعلوا القرآن عضين »(١٠٥) أى فرقوه أعضاء ومثله

---

(١٠٣) جاء فى اللغة العبرية كلمة « سرافيم » وهى جمع ل « سرف » وقد جاءت الكلمة مجموعة فى (سفر اشعياء ٥/٢ — ٨) وهم ملائكة لهم أجنحة ستة واقفون فى مقام الملك السيد عزيا ، ولكن العرب استخدموا الكلمة « سرف » واضافوا اليها (افيل) وهو الاله فصارت « اسرافيل » وربما كان ذلك قياسا على جبرائيل وميكائيل .

(١٠٤) وربما كانت « عزازيل » ما عرف عند العرب بـ (عزرائيل) وهو الملك الذى عزل لتخلفه والذى قبع فى صحرائه ، سفر اللاويين ٨/١٦ .

(١٠٥) سورة الحجر ٩١ .

(عزين) فى قوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال عزين »[١٠٦] جمع عزة ومعناها فرقة .

ومنه « ثبة » جمعت على « ثبين » كما فى قول عمرو بن كلثوم :

فاما يوم خشيتنا عليهم فتصبح خيلنا عقبا ثبينا[١٠٧]

ومن هذه الجموع « ربيون » فقد قالوا تعنى الجماعة الكثيرة والواحد منها « ربي »[١٠٨] وقد جاءت فى قوله تعالى : « وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون »[١٠٩] .

ومثله « علّيون » أى الغرف العالية فى الجنة ، فى قوله تعالى : « وما أدراك ما عليون »[١١٠] ولعلّ منها كلمة (عليون) العبرية[١١١] ومن هذا الباب « الربانيون » كما فى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب »[١١٢] ، قول أبو عبيدة : « احسب ان الكلمة ليست بعربية ، انما هى عبرانية أو سريانية »[١١٣] والصحيح ان الكلمة من الاصول السامية القديمة .

أما مجىء جمع التصحيح بالواو والنون ، فهى مسألة تسترعى النظر ، فالنحاة يقيدون هذه الصورة بالرفع ، وهم على حق فى هذا الزعم ، ذلك انهم نظروا الى اللغة وقد سلخت من تاريخها قروناً طوالا ، فاستقرت فى صورتها العامة على هذه الحال . ولكن البحث والمقارنة يشيران الى أن مجيئه بالياء والنون يطابق العبرية كما بينا . ونخلص من هذا الى أن الواو والنون أو الياء والنون وهما زيادتان لاحقتان للجمع موضوع من موضوعات اللهجة ، ومعنى هذا ان جهة من جهات العربية كانت تسير فى جمعها على

---

(١٠٦) سورة المعارج ٣٧ .
(١٠٧) معلقة عمرو بن كلثوم ضمن شرح العشر ١١٦ .
(١٠٨) ابن حجر ، فتح البارى ٨/١٥٥ .
(١٠٩) سورة آل عمران ١٤٦ .
(١١٠) سورة المطففين ١٩ .
(١١١) R. Blachère, Le Coran II, 106.
(١١٢) سورة آل عمران ٧٩ .
(١١٣) الجواليقى ، المعرب ، باب الراء .

هـذه الصورة ، فى حين ان جهة اخرى كانت تسـير على التزام الصورة الاخرى ، وربما كان من يلتزم طريقا آخر فيقول بالامالة ، على اننا لم نجد اشارة الى هذا الفريق من الناس •

وفى شواهد العربية ما يؤيد هذه الدعوى فقد جاء فى كتب اللغة هذا البيت من الرجز :

نحن اللذون صبحوا الصباحـــا   يوم النخيـل غارة ملحـاحا[١١٤]

فاسم الموصول (اللذون) جاء على لغة هذيل فى حالة الرفع أما غيرهم فيقول « الذين » فى كل الاحوال •

وربما اسـتطعنا أن نخرج قوله تعـالى : « ان الذين آمنـوا والذين هادوا والصابئون والنصارى »[١١٥] على هذا الباب ، وذلك ان من العرب من كان يلتزم الواو والنون فى الجمع فى جميع الاحوال كمـــا التزمت « الذين » فى كل الاحوال •

غير أن النحاة يتأولون رفع (الصابئون) وحقه أن ينصب فيقولون : ان العرب تخرج المشرك فى المنصوب الذى قبله من النصب الى الرفع على ضمير فعـل يرفعه أو اسـتئناف ولا يعملون النصب ، ويستشهدون بقول ضابىء بن الحارث البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله   فانى وقياربهـا لغـريب[١١٦]

ومن العـرب من يجعـــل اعراب مـــا يجمـع بالواو والنون فى النون[١١٧] • وقد جاء منه قول سحيم :

دعـانى من نجـد فان سنينه   لعبن بنـا شـيبا وشيبننا مردا

ولم تختص العربية بالنون فى الجمع فقد ورد فى العبرية فى الاسفار المتأخرة من العهـد القـديم ، وفى نصوص شعرية[١١٨] • ومن أمثلتهـا

---

(١١٤) ابن عقيل ، شرح الالفية ١/٧٣ •
(١١٥) سورة المائدة ٦٦ •
(١١٦) أبو عبيدة ، المجاز ١/١٧٢ •
(١١٧) ابن يعيش ، شرح المفصل ٥/١١ •
(١١٨) Gesenius, Herew Grammar, p. 242.

(ملاخين)[١١٩] وتعنى (ملوك) ، و (حطين)[١٢٠] وتعنى الحنطة ، ومن هـذا (مدين)[١٢١] ، وتعنى (زرابى) ومنه (يامين)[١٢٢] ، وتعنى أيام ، ومنه (عيين)[١٢٣] ، وتعنى (كومات) ، ولعل هـذا كان بتأثير الآرامية التى سيطرت فى حقبة (التركوم) على العبرية ، ويدلنا على هذا (ملين) وهى جمع (ملا) وتعنى الكلمات وهى آرامية صحيحة .

وربما استطعنا أن نثبت هذا بوجود الياء والنون فى الجموع الآرامية القديمة والتى ما زالت حية فى أسماء الاماكن اللبنانية .

ومن هذه الاسماء (دارين) وهى جمع (دارا) وتعنى الدار ، ومنه ايضا (عبدين) اسم مكان ومعناه الفلاحون .

ومنه ايضا (عبرين) جمع عبرا وهو الساحل والمعبر .

ومنه (عترين) ومعناه الثروات .

ومنه (جب حنين) ومعناه بئر الحنان .

ومنه (جزين) ومعناه خزائن .

ومنه (حزين) ومفرده حزي ومعناه القعر والهوة .

ومنه (سبرين) وهى تحريف (سفرين) أى الكتب .

ومنه (شاتين) أى الشاربون .

ومنه (مهرين) أى مخاصمون .

ومنه (نمرين) أى نمورة .

ومنه (وردين) أى أزهار .

وغير هذا كثير مما هو باق فى أسماء القرى اللبنانية والسورية .

---

(١١٩) سفر الامثال ٣/٣١ .
(١٢٠) سفر حزقيال ٩/٤ .
(١٢١) القضاة ١٠/٥ .
(١٢٢) دانيال ١٣/١٢ .
(١٢٣) ميخا ١٢/٣ .

الاعراب في اللغة ودلالته

بحث مقارن في اللغات السامية

البحث في هذا الموضوع ينصب على مسألة الاعراب وكيف كانت ، ومسألة الاعراب ولاسيما في العربية من المسائل الثقيلة لدى الباحثين في فقه اللغة ، فقد تصدى لها القدامى من علماء العربية ، كما بحث فيها المحدثون من عرب ومستشرقين • ولقد اهتم به النحاة واللغويون منذ عهود ازدهار العربية ، ذلك ان الحفاظ على الاعراب كان ضرورة نافعة ومعنى هذا ان الاعراب كان ثقيلا على الالسنة ، فقد فشا اللحن ، وفسدت الطبيعة اللغوية ، وصار الناس يسمعون فيستنكرون هذا الاعوجاج في الالسنة • وقد جاء في الاخبار ان أبا الاسود الدؤلي سمع رجلا يقرأ في كتاب الله : ان الله بريء من المشركين ورسوله بالخفض ، فاستعظم ذلك منه(١) • وكان هذا سبب وضعه للنحو ، والاخبار كثيرة في هذا الموضوع وان كان يلوح على طائفة منها طابع الوضع والافتعال •

وما دام هذا الاعراب ثقيلا على الالسنة فقد تخفف منه كثير من الناس ، بحيث صار للناس لغة في التخاطب لم يلتزم فيها هذا القيد الثقيل في حين أنهم يلتزمون بالاعراب اذا كتبوا • فقد ذكر الجاحظ في كتاب البخلاء شيئا عن شيوع اللحن بين العامة والذي نقلناه في غير هذا المكان(٢) •

على ان هذا لا يعني ان الناس عامة لا يعربون كلامهم ، فقد ذكر الجاحظ شيئاً من ذلك • فهو يعد من أجل المتع أن يستمع المرء الى حديث الاعراب الفصحاء العقلاء ، أو الى محاضرة العلماء البلغاء(٣) •

---

(١) ابن الانباري ، نزهة الالباء ص ١٠ •
(٢) البخلاء طبعة الحاجري ص ٣٣ •
(٣) البيان ١/٦٢ •

وقد بقيت مسألة الاعراب قضية العربية الكبرى طوال العصور المتعاقبة ، وما زالت كذلك حتى يومنا هذا . ومن أجل ذلك كان من المفيد النافع أن تدرس هذه القضية دراسة دقيقة .

لقد احتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الاعراب وهى من صفات العربية الموغلة فى القدم ، فى حين ان سائر اللغات السامية ـ ما عدا الآكدية ـ قد فقد هذه الظاهرة منذ أقدم العصور ، وقد دل على هذا الاعراب بقايا كما فى العبرية مثلا .

أما فى اللغة الاكدية فقد عرفت الحركات الثلاث فى البابلية القديمة فى النصوص التى ترجع لعهد حمورابى ثم تطورت هذه الحركات الثلاث وانتهت الى حركتين هما الضمة للرفع والفتحة للنصب والجر ، ولم تلبث هذه المرحلة طويلا حتى تطورت الى مرحلة الحركة الواحدة وهى الكسرة الممالة .

ولعل علاقة اللغة النبطية بالعربية وقربها منها أوجد الاعراب فى النبطية كما تؤيد ذلك النقوش التى عثر عليها . وقد ذهب "Nöldke" المستشرق الالمانى الى أن النبط كانوا يستعملون الضمة فى حالة الرفع ، والفتحة فى حالة النصب والكسرة فى حالة الجر . ولا يعقبون هذه الحركات بالنون[٤] .

ويرى المستشرق Lithmann ان أواخر الكلمات فى اللهجة النبطية قد يحدث فيها تغيير بحسب موضعها فى الاعراب[٥] . وللاعراب أثر فى اللغة العبرانية يتبينه الباحثون فى حالتى المفعول به وفى ضمير التبعية[٦] . على ان هذا الاثر ضئيل جدا ، فقد أوشكت تخلو من الاعراب

---

(٤) Th. Nöldke Die Semitischen Sprachen Leipzig 1899, S. 51 f.

(٥) Enno Littmann Inscriptions, Leiden 1914 p. 37 ff.

(٦) ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٥ .

لغة العهد القديم • غير ان علامة النصب فى العبرية القديمة هى الفتحة الطويلة التى نشأ عنها حرف الهاء ، والهاء المتطرفة فى هذه اللغة تشبه الالف اللينة ، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف العلة • وتظهر هذه فى آخر الاسم المنصوب بنزع الخافض ، كما تظهر فى آخر الظرف المنصوب (ليلا)[٧] وتعنى (ليل) ، و (عتا)[٨] وتعنى (حين) • وكما تلحق هذه العلامة الظروف فانها تلحق المصدر فينصب كما هي الحال فى المفعول المطلق فى العربية ، ولكنها فى هذه الحالة تكون متلوة بميم زائدة (للتمييم) الذى يقابل التنوين فى العربية[٩] مثال ذلك (يومام) وتعنى (يوما) و (حنام) وتعنى (مجانا) ، والمتتبع لشوارد النصوص فى اللغة العبرية ربما وجد آثارا تشير الى شيء يشبه الضمة والكسرة لعلهما بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين فى العبرية القديمة •

ويكاد يجمع المستشرقون على ان الاعراب ظاهرة سامية فالمستشرق الالمانى Bergstraesser يقول : ان الاعراب سامى الاصل تشترك فيه اللغة الاكدية وفى بعضه اللغة الاثيوبية (الحبشية) ونجد آثارا منه فى غيرها[١٠] • على ان هؤلاء يعللون سبب وجود هذه الظاهرة فيرجعون ذلك لخلو اللغات السامية من ادغام للكلمات أى وصل كلمة باخرى لتتكون من الكلمتين كلمة واحدة لها معنى مركب منهما كما فى اللغات الآرية[١١] • ذكر هذا اسرائيل ولفنسون كما ذكره غيره[١٢] •

---

(٧) تكتب الهاء فى العبرية فى آخر الاسم ولا تلفظ •

(٨) ربما قابلت هذه الكلمة (حتى) فى العربية ، فقد جاء فى القراءآت ان احدهم قرأ (عتى حين) •

(٩) راجع مقالتنا (النون فى اللغة العربية) المنشورة فى الجزء الثالث من مجلة كلية الآداب والعلوم ١٩٥٨ •

(١٠) برجشتراسر : التطور النحوى ص ٧٥ •

(١١) ولفنسون ص ١٥ •

(١٢)
Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Spkachen, Berlin 1908. I. S. 5.

ولا نريد هنا أن نعرض للرد على هذا الرأى لان ذلك يخرجنا عن مادة الموضـوع • ولكننـا نكتفى بالقول ان فى العربيـة شيئا مما يقولون فالتركيب والنحت من الادوات فى هذا الموضوع وقـد استفيد من النحت فى بناء الافعال الرباعية وغير الرباعية •

ويختلف الرأى فى دلالة الحركات على المعانى الاعرابية بين القدماء والمحدثين فى اللغة العربية • وأول من أشار الى هذه المشكلة من القدامى هو الخليل بن احمد[١٣] • ولعل الجدل فى دلالة هـذه الحركات على المعانى الاعرابية وعدم دلالتهـا ، دار بين تلامذة سيبويه والكسائى فذهب جمهورهم الى الاول وذهب آخرون الى الثانى[١٤] •

ويمثل رأى الذاهبين الى ان الحركات دوال على معانٍ اعرابية ، أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحق الزجاجى ، فقد نقل السيوطى فى الاشباه والنظائر[١٥] قوله : « ان الاسـماء لما كانت تعتورهـا المعانى وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، جعلت حركات الاعراب تبين عن هـذه المعانى وتدل عليهـا ليتسع لهم فى اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة » •

ويمثل رأى الطائفـة الاخرى قطرب أبو علي محمد بن المستنير[١٦] وهو تلميـذ سيبويه • وقـد انفرد « قطرب » فى هـذا الرأى ، ولم يقل بمقالته نحوى أو لغوى آخر غيره •

على ان المحـدثين قـد عرضوا للموضـوع نفسـه فكانوا فريقـين كالمتقـدمين • وهؤلاء بين عـرب وبين مستشرقين ، فطائفـة منهـم تذهب مذهب الزجاجى النحوى ، وطائفة اخرى تذهب مذهب ابى علي محمد بن المستنير (قطرب) •

---

(١٣) سيبويه : الـكتاب ٢/٣١٥ •
(١٤) المخزومى : مدرسة الـكوفة ص ٢٨٣ •
(١٥) السيوطى : الاشباه والنظائر ١/٧٦ ـ ٧٨ •
(١٦) لمصدر السابق ١/٧٩ •

وممن ذهب مذهب هذا الاخير الدكتور ابراهيم أنيس فى كتابه (من أسرار اللغة العربية)[17] على انه يحلو له أن يتعصب للرأى بشكل يخيل للقارىء انه المبدع والاول والمعيد فى هذا القول ، وكأنه لم يكن هناك فى القرن الثاني الهجرى رجل اسمه (قطرب)[18] ، وهذا الرأى فى جملته غريب وقد انفرد فيه صاحبه ولم يؤيده فيه الا الدكتور ابراهيم أنيس بعد أكثر من أحد عشر قرنا ووجه الخطل فى هذا الرأى ان العربية كانت معربة منذ أقدم العصور ، والنصوص شاهدة على ذلك ، وقد كان هذا الاعراب سهلا على الالسنة ثم ثقل وصعب حين فسدت الضبائع العربية وفشا اللحن وتحول المجتمع العربى الخالص الى مجتمع ضخم كبير فيه أجناس شتى ، ولاسيما فى الحواضر العربية ، فلم يلجأ للاعراب فى فترة متأخرة للسبب الذى ذكره صاحب الرأى المتقدم ، على ان وجود الاعراب فى اللغات السامية الأخرى فى عهودها السحيقة فى القدم ثم اضمحلال هذا الاعراب لا يؤيد مذهب قطرب فى شىء وقد عرضنا للموضوع فيما تقدم ، على ان الدكتور ابراهيم أنيس حين يقول بهذا الرأى ينتهى الى « انه ليس للحركات الاعرابية مدلول وان الحركات لم تكن تحدد المعانى فى أذهان العرب الاقدمين وهى لا تعدو أن تكون حركات يحتاج اليها فى كثير من الاحيان لوصل الكلمات بعضها »[19] ، ثم انه يرى « ان النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الاعراب وقاسوا بعض الاصول رغبة منهم فى الوصول الى قواعد مطردة منسجمة »[20] ثم هو يفترض افتراضا لا يقوم على أساس علمى تاريخى فيقول « ولعلهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كاليونانية ففيها يفرق بين حالات الاسماء التى تسمى Cases ويرمز لها فى نهاية الاسماء برموز معينة[21] ،

(١٧) انيس : من أسرار اللغة ص ١٤٣ ٠
(١٨) قطرب أبو علي محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة ٠
(١٩) انيس : من أسرار اللغة ص ١٥٨ ٠
(٢٠) المصدر نفسه ص ١٣٩ ٠
(٢١) المصدر نفسه ص ١٧١ ٠

وفات الاستاذ ان اليونانية تختلف نحوا وطبيعة عن العربية ولم يكن واضع النحو عارفا أو قل متأثرا باليونانية بأى وجه من الوجوه » .

ثم انه يستدل بخلو اللهجات الاقليمية الحديثة من الاعراب . ولم يبق له من أثر فى اللهجات الاقاليم العربية ويعجب من هذا[٢٢] على اننا لا يمكن لنا أن نجعل من خلو اللهجات الدارجة من الاعراب دليلا على ان الاعراب ظاهرة لم تكن موجودة فى العربية الاولى[٢٣] . وقد رأينا ان اللغات السامية جميعها كانت معربة ثم زال هذا الاعراب فى العهود التى تعاقبت عليها .

وقد افاض الدكتور علي عبدالواحد وافي فى الرد على الرأى المتقدم فى كتابه « فقه اللغة » .

وقد عرض للموضوع نفسه الاستاذ ابراهيم مصطفى[٢٤] وقرر ان الحركات دوال على معان بل ان من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى[٢٥] ثم هو يقول « وما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص وهى لا تعمل فى تصوير المعنى شيئا . ونحن نعلم ان العربية لغة الايجاز ، وان العرب كانوا يتخففون ما وجدوا السبيل ويحذفون الكلمة اذا فهمت والجملة اذا ظهر الدليل عليها ، والاداة اذا لم تكن الحاجة ملجئة اليها » وعنده ان الفتحة ليست علامة اعراب ولا دالة على شيء وانما هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، فهى بمثابة السكون فى لغة العامة[٢٦] ، وأما الضمة فهى علم الاسناد أما الكسرة فانها علم الاضافة[٢٧] . ورأى الاستاذ مصطفى فى الفتحة غريب فى بابه ولا

---

(٢٢) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

(٢٣) الدكتور وافى : فقه اللغة ص ١٣ .

(٢٤) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢٥) واستخدام الحركات فى الدلالة على المعانى وتعددها يخرج عن هذا الباب وربما افرد له مقالة خاصة .

(٢٦) احياء النحو ص ٥٠ .

(٢٧) المصدر نفسه ص ٨٠ ــ ١٠٠ .

يستند الى سند علمى فقد دلت المقارنات الى أن الفتحة وجدت فى حالة النصب فى كثير من اللغات السامية ولم يكن هناك سبب للفتحة المستحبة •

ويرى الاستاذ Mareel Cohen ان هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الاعراب لم تكن مراعاة الا فى اللغة الفصيحة الادبية ، أما لغة التخاطب فلم تكن معربة[٢٨] • وهو يستدل على ذلك (بأن قواعد هذا شأنها فى التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقة بعضها ببعض ، كل هذا غير ممكن فى لغة التخاطب وانما هو من اختصاص اللغة الفصيحة المهذبة) • وقد فات صاحب هذا الرأى الحقيقة التاريخية ، ولم يكن ملما بأن اللغة المعربة كانت لغة العرب فى الجاهلية ولغة القرآن التى عمت العرب جميعا وأخضعت لها لهجات الاقاليم • ولم تكن لغة القرآن مهيأة للقراءة والكتابة فحسب ، بل كانت لغة يستعملها الناس على اختلاف طبقاتهم • وكتب الادب والاخبار تؤيد هذا • ولا سبيل الى افتراض هذه الصعوبة على اللغة فى وقت تحسها نحن الآن •

أما الاستاذ (فك) المستشرق الالمانى فيرى ان حركات الاعراب هى صفة من صفات العربية وسمة من أقدم سماتها اللغوية والتى فقدت فى اخواتها الساميات باستثناء البابلية القديمة[٢٩] • وعنده ان العربية حافظت فى مختلف عصورها على هذه الظاهرة بالرغم من ظهور اللحن واللهجات الاقليمية فى الحواضر •

---

(٢٨) عبدالواحد وافى : فقه اللغة ص ١٣٠ عن
Cohen, Les Langues du monde.

(٢٩) يوهان فك : العربية ترجمة الدكتور النجار ص ٣ •

النون والميم في اللغة العربية

سأدرس في هـــذا البحث حرفين مهمين من حروف العربيـة • وسأجتهد ما استطعت وبمقدار تهيئة الوسائل لدى أن أذكر جوانب مهمة من هاتين المادتين •

والحرفان اللذان سأعرض لهما هما النون والميم ، والنون كما جـاء في كتب العربيـة المشهورة : (كتـاب سيبويه المتوفى سنة **١٧٧** للهجرة والمفصل للزمخشري المتوفى سنة **٥٣٨** للهجرة وشرحه لابن يعيش المتوفى سنة ٦٤٣ للهجرة وقـد اعتمد صاحب الشرح على ابن جنى المتوفى سنة **٣٩٢**) من الاصوات البينية الذولقية المجهورة •

ولكن صاحب المفصـل يصف الحرف بتحديد مخرجه فيضع النون والراء واللام في مكان واحد ، ويسمى هذه الاصوات بالاصوات الذولقية (apicales) ، والذولق طرف اللسان المدبب •

وهناك عبارة سيبويه بصـدد الراء فيقول : من مخرج النون غير انه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه الى اللام ، ويعيـد ابن يعيش عبارة (الكتـاب) في شـرحه ، ولـكن هؤلاء جميعـا تعوزهـم الـكلمة الفنية الاصطلاحية للرابطة الانفية بين النون واللام (nasalisation) .

ولا يهمنـا كثيرا في هـــذه المقالـة البحث في الاصوات وطبيعتهـا ومخارجهـــا بقـدر مـا يهمنـا من طريقة استعمالهـا ودخولهـا في اللغة وبنـاء الكلمات •

ولعـل النون من الاصوات التى يحسن السكوت عليهـا للغنة التى تحصل في النطق غناء أم تجويدا أم ترسلا في القول ، ومن أجل هـذا لزمتها الفواصل القرآنية المسجوعة •

وأنا أرى ان الذى يضيف النون فى كلمة (رجل) عند التنوين كما لو كتبت (رجلن) ، شأنه شأن القروى الجافى الذى لم تصقله الحضارة ، وجاءته كلمـة (راديو) الحضرية فأضاف لها فى طبيعته القروية السهلة السمحة (نونا) فصارت (راديون) •

واستعمال النون فى الاصول العربية كثير جدا ذلك أن طبيعته تتمشى مع العربية ، ولهذا كانت جمهرة الكلمات العربية منونة منصرفة ، وطائفة قليلة منها لم تقبل التنوين • وكتب النحو مطولة أم موجزة تفرد لغير المنون بحثا خاصـا ، ومن أجل هـذا ايضا صار النحويون يتلمسون للكلمة التى لا تقبل التنوين عللا خاصة تمنع من أن يختم الاسـم بهـذه النون ، ولهذا ايضا لم تكن العلة الواحدة عندهم بمانعة للصرف وانما اشترطوا فى ذلك أن تكون علتان أو علة بمقام علتين ، وذلك فى الجموع التى يكون ثالثها ألفا وبعدها حرفان أو ثلاثة ، كمساجد ومصابيح • وستعرض لهذه العلل بالبحث والنقاش •

وقد أسلفت ان هذه النون تدخل فى كثير من الكلمات العربية ، وقد صنفها النحويون أصنافا أحدها : تنوين التمكين كزيد ورجل وعندهم ان فائدته الدلالة على خفة الاسم وتمكنه فى باب الاسمية ، لـكونه لم يشبه الحرف فيبنى ، ولا الفعل فيمنع من الصرف •

الثانى : تنوين التنـكير وهـو اللاحق لبعض المبنيـات للدلالـة على التنكير ، تقول « سيبويهٍ » اذا أردت شخصا معينا اسمه ذلك و « ايه » اذا استزدت مخاطبتك من حديث معين فاذا أردت شخصا ما اسمه سيبويه أو استزادة من حديث ما نونتهما •

الثالث : تنوين المقابلة ، وهو اللاحق لنحو « مسلمات » جعلوه مقابلة النون فى نحو «مسلمين» •

الرابع : تنوين التعويض وهو اللاحق لنحو غواش وجوار عوضا من الياء ولأذ فى نحو « ويومئذ يفرح المؤمنون » عوضا عن الجملة التى تضاف اذ اليهـا •

وهذه الانواع الاربعة مختصة بالاسم .

وزاد جماعة تنوين الترنم ، وهو اللاحق للقوافي المطلقة ، أي : التي آخرها حرف مد ، كقول جرير :

أقلي اللومَ عاذل والعتـابن   وقولي ان أصبت لقد أصابن

والاصل « العتابـا » و « أصابـا » فجيء بالتنوين بدلا من الالف ، لترك الترنم .

وزاد جماعة التنوين الغالي وهو : اللاحق للقوافي المقيدة زيادة على الوزن ، ومن ثم سمي غاليا كقول رؤبة بن العجاج في احدى أراجيزه :

قالت بنات العم يا سلمى وانن   كان فقيرا معدما قالت وانن

والحق انهما نونان زيدتا في الوقف ، وهـذا يؤيد مـا قلت من أن النون صوت يحسن السـكوت عليـه ولذلك فقـد التزم في الـكثير من اصول العربيـة .

وأنا أرى ان هذه النون الساكنة التي لحقت آخر الاسم لفظا لا خطا ، كان من حقها أن تثبت في الخط ايضا كما تثبت في اللفظ ، وهـذا طبيعي مقبول يتمشى مع الدعوات الـكثيرة الى تيسير الـكتابة العربية .

ولقد لحقت هذه النون جمع المذكر السالم والمثنى وثبتت في الكتابة ، والنون في هذين لا تختلف عن أي من النونين اللتين تلحقان الاسم ، ومن أجل هذا قالوا ان التنوين في (مسلمات) يقابل النون في (مسلمون) ونقول ان النون في جمع المذكر السالم عرض من الحركة والتنوين في الاسم المفرد .

ومن اهتمام العربية بالنون انها ألحقتها باسماء معروفة لتجعل معانيها مختصة مقيدة بنوع من المعنى لا ينصرف الى غيره مما هو قريب منه ، ومن أجل هذا قالوا للطفيلي (ضيفن) وللمرتعش (رعشن) .

ومن عناية العربية بالنون انها ألحقتهـا بالافعـال المضارعة في حالة توكيدها وللتوكيد عندهم شروط معروفة مقيدة في كتب النحو ، وهي أن يكون الفعـل جوابـا لقسم متصلا بلامه مثبتا مسـتقبلا . وفي استعمالات

العربية ما يجافى هذه الشروط اللازمة قال تعالى : « يا ايها النحل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده »(١) وقوله تعالى : « الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة »(٢) واعتماد النون فى هذا الاسلوب عناية به لانه من الاصوات السهلة الخفيفة التى يحسن السكوت عليها ، والتوكيد حاصل من الزيادة اللاحقة ، ولم يقولوا بالتوكيد الا توسعا فى استخدام القاعدة المنطقية : « الزيادة فى المبنى زيادة فى المعنى » هذه القاعدة التى أرادوا أن يستخدموها فى نواح لغوية كثيرة ولم يوفقوا فأفسدوا من حيث أرادوا الصلاح .

وقد استعمل المصدر منصوبا فى العربية ، والنصب على المصدرية صار لونا من ألوان المفاعيل ، وقد يأتى هذا المصدر منصوبا لفعل قاصر ولا أرى حاجة فى بحث عامل النصب فى هذا الخصوص ، خشية ان ابتعد عن جادة البحث ، ولكنى أريد أن أشير الى أن طائفة من الاسماء تنصب وتنون وتجرى مجرى المنصوب على المصدرية كما نقول حقا ، أصلا ... الخ ولم تجىء محلاة بأداة التعريف أو مضافة لتزول عنها النون .

والباحث فى اللغة ملزم أن يمعن فى البحث فيسجل كل ظاهرة لغوية تدخل فى الموضوع ولو كانت شاردة فى الالسنة الدارجة الدنيا ، ودراسة اللهجات العامية الحديثة مفيدة فى دراسة العربية وتاريخها بصورة عامة ، وتسجيل شوارد العامية الاقليمية يعود على العربية وفقهها بأجزل النفع .

والمتعقب لحرف النون فى العامية فى المواطن القروية من جنوب العراق ـ أقول القروية لا الحواضر ـ يرى ان هذا الحرف يلحق الفعل الاجوف المضارع باطراد لا للتوكيد ، وانما هو صوت لين سهل يزين آخر هذا الفعل فيقولون(*) : أروحن ، أشوفن ...... ، والذى نلاحظه ان هذه النون تلحق المضارع الاجوف والنون فيها وسيلة للتخلص من

(١) النمل : ٢٧ ، ١٨ .

(٢) النساء : ٤ ، ٨٧ .

(*) كما يلحقون هذه النون بالفعل المضارع الثلاثى المضعف كقولهم (امدّن) و (امرّن) وهذا كثير عندهم ولاسيما فى اللغة الشعرية .

الساكنين ، وهما حرف اللين ولام الفعـل • والمتعقب للموضوع نفسه فى لهجات الحواضر يستطيع أن يقيد شيئا كثيرا من هـذا ، ومن الأمثلة على ذلك ، ان هناك أفعالا ثلاثية الاصل ولكنها تصبح رباعية بزيادة هذه النون فى آخر الفعل ومنها : وهدن بمعنى ضلل وغرر ، ولعـل أصلها ألقاه فى الوهدة ، ومنها رهدن وهو يفيـد الاناة والتريث وهنـاك (تربن) من التراب و (سخمن) من السخام أو الصخام على الابدال العامى • وليس لنا أن نقول ان الاصل فى (وهدن) هو (هدن) ثم صدرت بالواو وكذلك الامر فى (رهدن) ذلك ان الفعلين الآخرين يشيران الى زيادة النون وكما لحقت هذه النون هذه الافعال فقد لحقت مصادر من هذا الباب : كالولدنة والحمرنة • كمـا لحقت أدوات اخرى : كقولهم : (لمّن) ويريد بهـا (لما) ، ويقولون (حيفن) و (بعدين) بالامالة والأصل بعدا و (همين) أو (هماتين) بالحاق النون بكلمة (هم)[3] الفارسية •

وعنـدى ان الذى يضيف النون فى هـذه الأمور فى لغته السـائرة الدارجة كالذى أضافها الى رعش وضيف ، فقال رعشن وضيفن اللذين أسلفنا الـكلام عليهما • وفى فصيح العربية شيء من هذا مثل هـرشـن للبعير الواسع الشدقين ، وضيوَن لذكر السنور[4] •

وقد استعملت النون فى جمع (الذين) فقيـل الذين وسمع الذون على لغة هذيل أو عقيل[5] • والمتتبع لهذه المادة فى النصوص والاستعمال ربما وصل الى الاصل فى هذا الاسم ، وهو (اللذ) بسكون الذال ، وربما كان الذال وحده هو اسم الموصول ، كما قال الكوفيون : ان الذال وحده هو الذى يفيد الاشارة فى (ذا) • ويؤيد ما نذهب اليـه ان الدال المهملة

(٣) كلمة فارسية كانت مستعملة فى الـكوفة على عهد الجاحظ •

(٤) قال ابن برى : أنشد الفراء :

ثريد كأن الشمس فى حجراته   نجوم الثريا أو عيون الضياون

وقد ورد فى هذا الباب طلخن وهو التلطخ بما يكره ، الا ترى ان الاصـل لطخ •

(٥) ورد فى الشواهد النحوية : نحن الذون صبحوا الصباحا •

فى السريانية هى اسم موصول ، وما بقى فى اللسان الدارج فى القطر المغربى يؤيد هذا أيضا فيقولون « الكتاب ديالى » أى الذى لى ، وما المد فى عقب الذال الا تسهيلا للوصل والنطق ، ثم زيد على الذال الياء لغرض المد زيادة لازمة . وقد أورد ابن مالك انه قرىء « صراط ذين انعمت عليهم » بغير الالف واللام . وعلى هذا فان كلمة الذى مرت بمراحل حتى صارت الذين وقد جاء فى التنزيل العزيز « وخضتم كالذى خاضوا »[٦] ولم تستعمل الذين ، وجاء فى الشواهد الشعرية ـ اولئك أشياخى الذى تعرفونهم ـ ويؤيد هذا قول الاخفش النحوى : ان (الذى) حكمه حكم (من) فى أن يكون للمفرد والمثنى والجمع بلفظ واحد .

وتدخل النون فى بنية ضمائر الرفع للخطاب كأنت ... وضمير المتكلم (أنا) . فضمائر الرفع للخطاب عند الباحثين المحدثين وجلهم من المستشرقين مثل « برجشتراسر »[٧] . وتبعه كراوس وبروكلمان ، مركبة من جزءين : جزء يكون الضمير وهو التاء وجزء آخر اشارى وهو (أن) ولعل الحسن بن كيسان وهو أحد الذين خلطوا المذهبين[٨] .

ودونك قول ابن كيسان : (ان الضمير المرفوع هو التاء المتصرفة فكانت مرفوعة متصلة ، فلما أرادوا انفصالها دعموها بأن لتستقل لفظا)[٩] . على ان أهل البصرة يقولون بتركيبها وان (أن) هى الضمير وقد ألحقت بالتاء للدلالة على الخطاب كما لحقت الكاف ذلك[١٠] .

وعلى كلا الرأيين فالنون جزء مهم فى الكلمة سواء أريد به التنبيه الاشارى أم شىء آخر .

أما (أنا) و (نحن) فالكوفيون يرون انهما أصل لا زيادة فيهما

---

(٦) التوبة : ٩ ، ٦٩ .
(٧) المخزومى : مدرسة الكوفة ، ص ٢٢٧ .
(٨) حاشية الصبان على الاشمونى ١/١٢٧ وهمع الهوامع للسيوطى ١/٦٠ .
(٩) شرح الرضى على الكافية ٢/١٠ .
(١٠) عن المخزومى مدرسة الكوفة ص ٢٧٧ .

وأهل البصرة يرون ان مادة الكلمة حاصلة في الهمزة والنون[11] والالف استطالة للفتحة . ولنرجع الى مسألة المنون وغير المنون ، فقد أسلفت أن المنون يؤلف جمهرة الاصول العربية ، في حين ان غير المنون انحصر في أشياء محدودة معدودة وعدم التنوين حاصل عن اشتمال الاسم على علتين من مجموع العلل التسع أو على اشتماله على علة بمنزلة علتين كما يحصل فيما اسموه بصيغة منتهى الجموع .

وعندي ان مسألة المنع من الصرف مسألة راجعة الى صورة الكلمة والناحية الموسيقية فيها .

والدليل على هذا انك تصرف غير المنصرف وتنونه في الشعر ولكنهم قالوا للضرورة ، ومعنى هـذا لما توافرت الناحية الموسيقية في وزن الشعر فقد حرصوا على استكمال هذه الكلمات التي لا تنون . وانها فوق كل ذلك مسألة خاضعة للتعود والالفة ، فنحن نقرأ الاسم منونا في بيت من الشعر ولا نكترث له أو قـل ولا نحس اننا اقترفنـا ضرورة شعرية . جاء في الاشباه والنظائر : (يجوز للشـاعر صرف ما لا ينصرف للضرورة لانه يرده الى أصله وهو الصرف)[12] وقال ابن يعيش : (جميع ما لا ينصرف يجوز صرفه في الشعر لاتمام القافية واقامة الوزن بزيادة التنوين وهو من أحسن الضرورات لانه رد الى الاصل ولا خلاف في ذلك)[13] . ومن أجل هذا سميت النون بنون الترنم في الشاهد الذي مر ذكره . فالنون قصد به زيادة النغمة ، وهـذا يقال ايضـا في النون من ناحيـة الموسيقى اللفظية . أما من ناحية صورة الكلمة فهي ذات علاقة مهمة في الموضوع . فالكلمة المختومة بالهمزة والتي قبلها مد تمنع من التنوين وان لم يكن هذا المد للتأنيث كحمراء ، بل أكثر الاسماء[14] المذكرة مثل أطباء رحماء .

---

(١١) شرح الاشموني ١/١٣٦ .
(١٢) الاشباه ولنظائر ٢/٣٣ .
(١٣) المصدر نفسه .
(١٤) أقول أكثر الاسماء لان الاسماء الثلاثية تنون كسماء وبناء ...

ولا نستطيع أن نقول ان طبيعة الهمزة لا تقبل النون ، انما غاية ما نستطيع قوله في هذا الموضوع ان صورة الكلمة هي التي منعت الكلمة أن تلحق بهـا النون •

وقد جاء في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم »(١٥) ووجه المنع في أمثال هذه الكلمات هو انهم حملوها على ما فيه مد للتأنيث ، ومن أجل ذلك قالوا ان أصلها (شيئاء كحمراء)(١٦) ثم حدث فيها قلب ومن أجل هـذا فوزنها (لفعاء) • وعندي ان الامر لم يكن بهذا الشكل وان شيئا جمعت على أشياء كما نجمع لونا على ألوان(١٧) • وحملا على هذا فلا داعي للمنع من الصرف ما دام ان الهمزة لا تنفر من النون كما في (سماء) و (بناء) و (برء) وان الآية تبقى على قراءتها •

ويبدو لنا ان العلل التي وضعوهـا للمنع من الصرف لم تكن بالدليل القاطع ، فعندهم ان العلمية والعجمة تمنعان من الصرف ولكنهم قالوا « ما كان أعجميا على ثلاثة فهو منصرف كنوح ولوط » •

وعندهم ان العلمية والتأنيث تمنعان من الصرف ولكنهم قالوا (ما كان علمـا لانثى وهو على ثلاثـة أحرف سـاكن الوسـط فهـو منصرف كهند ودعد) •

وهذا التذبذب يؤيد ان المانع من الصرف ليس هذه العلل وانما هي صورة الـكلمة التي ينقصها هذا اللون الموسيقي بحيث ان الـكلمة لو أضيفت أو كانت معرفة بأداة التعريف لانصرفت ، ومعنى هـذا انهـا ابتعدت عن الصورة التي تجافي فيها النون •

وعنـدهم ان صيغة منتهى الجموع كمساجد وأساتيذ ممنوعة من

---

(١٥) المائدة ٤ ، ١٠١ •

(١٦) ابن جني ، المنصف ٢/١٠١ : وقال الخليل « أشياء » مقلوبة كما قلبوا قسي وكان أصلها قؤوس •

(١٧) ألوان اسم منون ، ومعنى هذا ان هذه الـكلمة المختومة بالنون تقبل نونا اخرى في انهم منعوا الاعلام والنعوت المختومة بالف ونون كسلمان وعطشان ولا أدري ما الفرق بين النون الاصلية والنون الزائدة • وقد قرأ « أشياء » بالتنوين •

الصرف ولكن لهذه الصيغة صورة أخرى مختومة بالتاء مثل أساتذة فالتاء فيها تعويض من الياء في أساتيذ ولكن أساتذة وملائكة(*) منصرفة وهذا يؤيد رأينا ان صورة الكلمة ذات أثر في الحاق النون وعدم الحاقها . والاستعمال عامل مهم في هذا الشأن .

وبقدر ما عنيت بحرف النون واستعماله وتقلبه في اللغة سأعنى بصوت آخر سهل مثله يشترك معه في الناحية الانفية وان كان يخالفه في المخرج وهو حرف الميم . وهو حرف من الاحرف الشفوية كالباء والفاء والواو . والاهتمام بالنون يستدعي الاهتمام بنظيره الميم . اقول بنظيره لان الميم يؤدي في غير العربية من اللغات السامية مما يؤديه النون في العربية ، وذلك من أمر التنوين ، فاذا صح أن يكون في العربية تنوين فقد صح أن يكون (تمييم) في غير العربية .

فجمع التصحيح في العربية بواو ونون أو ياء ونون ويقابل هذا في العبرية ياء وميم فكلمة (سنة) وهي (شانا) "Shana" في العبرية تجمع على (شانيم) "Shanim" والميم هنا كالنون في العربية . وكما لحقت النون الاسم المثنى في العربية كذلك تلحق الميم الاسم المثنى في العبرية وان كان المثنى لم يشع في العبرية شيوعه في العربية . وقد احتفظت العربية الفصيحة بكلمات قليلة العدد تشير الى هذه الميم التي اضيفت زيادة « للتمييم » في اللهجات العربية الجنوبية وكونت من هذه الكلمات شكلا خاصا حتى صارت وكأنها جزء من بنية الكلمة . ومن هذه الكلمات كلمة ابنم التي تقابل (ابن) المنونة ولكن الميم بقيت فيها وقد أخضعها عرب الشمال لعاداتهم اللغوية فألحقوا بها النون من أجل التنوين فصارت أحيانا (ابنم) وما زلنا نرى هذه الكلمة قابعة في كتب اللغة والنحو في باب الاسماء التي تحلى بهمزة الوصل .

(*) يسمي اللغويون هذه التاء بتا العجمة وهي التي تلحق الاسماء الاعجمية ، ولا أدري ما الفرق بينها وبين تاء « مغاربة » و « مشارقة » ، والحقيقة انها تاء تأتي في صيغ الجموع .

وقد فطن الى هذا الموضوع (سيبويه) فقال : وقالوا ابنم فزادوا الميم كما زيدت فى فسحم ودلقم[١٨] •

ومن هذه الكلمات ايضا كلمة فم هـذه الكلمة السـهلة التى يخيل للناظر المتأمل انها ثنائية الاصل توهما بالميم الذى زيد فيها كما زيدت الميم فى (ابنم) •

ولكن علماء اللغة يشيرون الى أصلهـا وان كانوا لا يقولون عن هذه الميم شيئاً كثيرا • جاء اللسان : قال الليث : (ألفوه) بضم الفاء أصل بناء تأسيس الفم ، قـال أبو منصور ومما يدلك على ان الاصل فى فم وفو وفا وفى هاء حذفت من آخرها قولهم للرجل الكثير الاكل (فيّه) ورجل أفوه عظيم الفم طويل الاسنان •• والافواه جمع فوه ••• وانما كونه جمع فم فلان أصل فم فوه فحذفت الهاء كما حذفت من سنة فيمن قال عاملته مسانهة وكمـا حذفت من شفة ومن عضة ومن أست وبقيت الواو طرفـا متحركة فوجب ابدالها ألفا لانفتاح ما قبلها فبقيت (فاً) ولا يكون الاسم على حرفين احدهما التنوين فابدل مكانها حرف جلد مشاكل لها وهو الميم لانهما شفهيان وفى الميم هُويّ فى الفم يضارع امتداد الواو[١٩] •

وفى اللســان تأويلات اخرى لا تخرج عن هـذه الشاكلة اذ انهـا مصنوعة لا تخلو من ألاعيب للتوصل الى معرفة الميم •

والصحيح الذى يغنينا عن هـذه الفذلكات هو ما أثبتناه من أن الميم تؤدى وظيفة النون فى اللهجات الجنوبيـة • ورواية الفم بضم الفاء تؤيد هذا ، روى عن الفراء النحوى ان العرب تقول : قبلها فى فُمـِها وثُمـِها • وجاء فى الشعر قول محمد بن ذؤيب العمانى الفقيمى :

يا ليتهـا قد خرجت من فمه حتى يعود الملك فى اسطمه

والمتتبع لهذه الميم فى العربية يجدها فى أمثلة متفرقة فى كتب اللغة وكليا مما ينبغى أن يقف عنده الباحث اللغوى • فقد عرفنا ان هناك طريقة

---

(١٨) اللسان مادة بنو •
(١٩) اللسان مادة فوه •

للتصغير فى الاسماء لا تذكرها كتب الصرف والنحو ، وهذه الطريقة هى الشائعة فى الاعلام المغربيـة كمـا فى خلدون وسحنون وعبدون وجلّون و ... الخ وزيادة التصغير فى هـذه الاسماء هى الواو[٢٠] وما النون الا زيادة اخرى زيدت من أجل ألا تنتهى الكلمة بهـذا المد الطويل وهى على هـذا كالنون فى مسلمون ، وعلى هـذا فاننا نجد طائفة من الاسماء تصغر هذا التصغير ولكنهـا تختم بالميم عوضا عن النون ، (والميم والنون صوتان متشابهان متلازمان) .

ومن هذه الكلمات : حلقوم وزردوم وبلعوم وخيشوم[٢١] فالاصل فيها حلق وزرد وبلع وخش .

وتبدو العـلاقة بين الميم والنون فى اللهجات العربية الحديثة ، فميم الجماعة التى تلحق كاف الخطاب كمـا فى كتابكم تصبح نونا فى اللهجة اللبنانية ، اذ يقولون كتابكن ، ومثل هذا كثير فى العربية .

---

(٢٠) أقول الواو هى علامة التصغير لان الشائع فى تصغير الاعلام للتحبب فى الاستعمالات الدارجة ان نقول حمود فى احمد ومحمد ثم نقول حمودى ولعل الياء هى ياء المتكلم أى حمود المنسوب الى وهذا كثير جدا كحبوب وسعود وزنوبه علما لادشى .

(٢١) وقد يكون من هذا حيزوم وكلثوم .

نظرة في التنوين

لقد قيل ان الحقيقة بنت البحث • وربما تم للباحث الصابر الذى لم يحد عن النهج العلمى القويم غرضه ، غير انه مفتقر الى الوسائل والادوات فى بعض الاحايين • والوسائل والادوات فى العربية هى مادة الكلام ووسائل التعبير وطرائق الاستعمال ، ولم تيسر هذه للباحث فى لغة العرب على نحو ما تيسر له فى اللغات الاخرى ؟ ذلك ان الكثير لم يصل الينا ، وهو ان وصل افتقر الى الصفة العلمية التاريخية ؟ فقد جاء فى الصاحبى لابن فارس « باب القول على ان لغة العرب لم تنته الينا بكليتها وان الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير وان كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله »[1] •

ويسمى التنوين الذى يلحق الاسم المعرب صرفا ، والاسم المنون مصروفا أو منصرفا • وهذا التنوين يعده النحاة دليلا على تمكن الاسم فى الاسمية تمام التمكن • وقد انتهيت فى بحثى السالف الى القول : « ان النون من الاصوات السهلة التى اطمأنت العربية الى السكوت عليها والانقطاع عن الصوت عندها • وربما لمح الى هذا بعض المحدثين بقوله : « ان التنوين قطع للمدّ المثل بالحركات »[2] • وربما حركت نون التنوين بحركة لمناسبة اقتضت ذلك كالتقاء الساكنين كما قرىء فى قوله تعالى : (ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين)[3] • فقد حركت نون (عيون) بالكسر • ويرى الدكتور ابراهيم أنيس « ان الذى يعين تلك الحركة هو طبيعة الصوت وايثاره لحركة معينة أو انسجام تلك الحركة مع ما يجاورها من حركات »[4] •

---

(١) ابن فارس ، الصاحبى ص ٣٤ •
(٢) العلايلى ، مقدمة فى لغة العرب ص ٣٤٣ •
(٣) سورة الحجر ٤٥ ــ ٤٦ •
(٤) ابراهيم انيس ، من أسرار اللغة ص ١٧٥ •

ويقول الاستاذ ابراهيم مصطفى : « ومعنى التنوين غير خفى ؛ فهو علامة التنكير . وقد وضعت العرب للتعريف أداة تدخل أول الاسم ، وهى « ال » ، وجعلت للتنكير علامة تلحقه ، وهى التنوين »[٥] .

واطلاق القول على هذه الصورة جائر على الحقيقة العلمية التاريخية ؛ ذلك ان الاستاذ مصطفى يفترض ان هذا المنهج النحوى هو الوجه الذى اتفقت عليه العرب ، ومعنى هذا انه لم يكن فى كلام العرب ما يشير الى مراحل أسبق من هذا اللون الذى لا يدل على مستوى عال فى التأليف ، وذلك بعد أن تضلع من العربية وعلومها جماعات وقفوا أنفسهم عليها فى عصور متأخرة بالنسبة الى العربية التى سلخت عنها القرون الطوال . وسأرجع الى الموضوع فأفصل القول فيه .

والمنون فى الكلام هو الغالب فى العربية . والصرف هو التنوين . وهذا مذهب المحققين[٦] . والاصل فى الاسم الصرف[٧] . وغير المنون هو القليل المعروف فى كتب النحو ، والذى حصروه فى أبواب معروفة ، والاسم غير المنون لابد أن تتوافر فيه علتان من تسع أو علة تقوم مقام العلتين ، وكل هذا مفصل معروف فى كتب النحو ، وليست بنا حاجة الى الرجوع اليه . على اننا لابد أن نقول ان مسألة العلل المانعة للاسم من الصرف مسألة ينبغى الرجوع اليها بحثا وتحقيقا ؛ ذلك ان كثيرا من غير المنون من الاسماء قد اختلف فيه ، وربما كان الاسم منونا عند بعضهم وغير منون عند فريق آخر . وسنعرض لشىء من هذا .

فمن العلل المانعة للصرف عندهم الالف المقصورة للتأنيث وهى علة تقوم مقام علتين ، وطالب النحو يطمئن الى هذا ويجريه مجرى القواعد المقررة ، غير ان الباحث فى مظان النحو المطولة يجد شيئا غير هذا فقد جاء فى الكتاب : « وانهم فرقوا بين الالف التى تكون بدلا من الحرف الذى

---

(٥) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ص ١٦٥ .
(٦) حاشية الصبان على الاشمونى ٢/٢٢٨ .
(٧) السيوطى ، همع الهوامع ١/٢٤ .

هو من نفس الكلمة ، والالف التى تلحق ما كان من بنات الثلاث ببنات الاربعة ، وبين هذه الالف التى تجيء للتأنيث . فاما (ذفرى) فقد اختلف العرب فيها فقالوا : ذفرى أسيلة فنونوا ، وهى أقلهما ، وقالوا ذفرى أسيلة وكذلك (تترى) فيها لغتان »[٨] .

والالف والنون الزائدتان فى الوصف علة مانعة لصرف الاسم ان كان مؤنثه على (فعلى) . ذكر الرضى فى شرحه على الكافية : « والمطلوب منه انتفاء التاء لان كل ما يجيء منه (فعلى) لا يجيء منه فعلانة فى لغتهم ، الا عند بنى أسد فانهم يقولون فى كل (فعلان) جاء منه (فعلى) (فعلانة) ايضا كغضبانة وسكرانة فيصرفون اذن (فعلان) »[٩] .

ولسنا على يقين من أن بنى أسد وحدهم على هذه اللغة ؛ ذلك ان اللهجات لم تقيد بأهلها واقليمها ، وكتب اللغة ليست وسيلة يطمأن اليها فى هذا الباب .

ثم انهم صرفوا كل ما فيه نون لا يجيء مؤنثه على (فعلى) كما فى (عريان) و (سرحان) و (انسان) وقد فرقوا بين النون الزائدة والنون التى هى من نفس الحرف ، قال سيبويه : « سألت الخليل عن رجل يسمى (مرانا) فقال اصرفه لان المران انما سمى للينة ، وانما المران اللين »[١٠] .

وقد حملوا على ما فيه حرف التأنيث كل ما آخره همزة قبلها ألف زائدة ، وهذا علة منع الصرف فى (أشياء) فهى عند الخليل مقلوبة والاصل (شيآء)[١١] . وقد ذكر الرضى فى شرح الشافية أن : (أشياء) عند الخليل وسيبويه اسم جمع لا جمع كالقصباء والطرفاء وأصلها شيآء[١١] . وقد ذكر الرضى فى الشافية أن : (أشياء) عند (أبيات)[١٢] . وأوضح ان (أشياء) على رأى الكسائى غير ممنوعة من الصرف ومن أجل

---

(٨) سيبويه ، الكتاب ٢/٨ .
(٩) الرضى ، شرح الكافية ١/٦٠ .
(١٠) سيبويه ، الكتاب ٢/١١ .
(١١) ابن جنى ، المنصف ١/١٠١ .
(١٢) الرضى ، شرح الشافية ٢/٣٣ .

ذلك لم يركب المركب الخشن الذى لجأ اليه الخليل وسيبويه فى التماس العلة للمنع من الصرف . ومن هذا الباب ما ذكره سيبويه نفسه : « واعلم ان من العرب من يقول : هذا قوباء[١٣] بالتنوين »[١٤] .

ومهما تكن العلل مانعة للاسم من الصرف ، فانما يتغاضى عنها وينون الاسم الذى حقه عدم التنوين التماسا لفائدة من الفوائد ، وهذه الفائدة هى التزام الناحية الموسيقية التى تحصل فى التنوين .

فقد يجوز للشاعر صرف ما لا ينصرف للضرورة كما جاء فى الاشباه والنظائر للسيوطى[١٥] ، وهو رد للاصل وهو الصرف على رأيه . وابن يعيش يقول : « وجميع ما لا ينصرف يجوز صرفه فى الشعر لاتمام القافية واقامة وزنها بزيادة التنوين وهو من أحسن الضرورات »[١٦] .

ويجوز صرف ما لا ينصرف لتناسب أو ضرورة[١٧] والتناسب نحو قوله تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ »[١٨] ، وقوله تعالى : « سلاسلا واغلالا »[١٩] .

وقد بقي من التنوين بقايا فى اللهجات الدارجة الحديثة ، وذلك كما فى لهجة نجد ، ولعل النون التى تلحق الافعال الجوف المضارعة فى لهجة القرويين من جنوبى العراق (العمارة ، الناصرية) ، انما لحقتها اتماما للفائدة التى تحصل من التنوين فى الاسماء وربما كان شيئا أفاد التنبيه وهو كما فى قولهم (أروحن) و (أموتن) ، وقد أسلفت القول فيه فى مقالتى السابقة ، والآن أود أن أضيف شيئا من ذلك ؛ وهو انهم يضيفون هذه النون الى الافعال المضارعة الثلاثية المضعفة ، وذلك فى الشعر دون النثر ،

---

(١٣) القوباء داء معروف (مختار الصحاح) الرازى .
(١٤) سيبويه ، الكتاب ٢/١٠ .
(١٥) لسيوطى ، الاشباه والنظائر ٢/٣٢ .
(١٦) ابن يعيش ، شرح المفصل ١/٦٧ .
(١٧) السيوطى همع الهوامع ١/٣٧ .
(١٨) سورة النمل ، ٣٣ .
(١٩) سورة الانسان ، ٤ .

يقولون مثلا (امرن) و (اجرن) ، وربما ألحق التنوين فى غير هـذين الموضعين ، وذلك فى الفعل الثلاثي المضارع وهو فى الشعر ايضا ، وعلة هـذا اقامة الوزن كما فى الشـاهد : (اجلبنك يليلي اثنعش تجليبه)[٢٠] والجيم فى الفعل ابدال من القاف ٠

وأود أن أذكر شيئا أخيرا عن هذا الجزء من هـذه القضية قبل أن أنتقـل الى مسـألة اخرى ، وهو انهـم ينونون (سـاجدة) و (زاهدة) و (ساهرة) وهى نعوت ، ولكنهم يجردونها عن التنوين ان نقلت للعلمية جريا مع القاعدة وهى توافر العلتين (العلميـة والتأنيث) ٠ وانهم ينونون (وردة) و (رملة) وهما اسمان ، وانهم يجردونها عن التنوين نقلا للعلمية لتوافر العلتين ٠ وانهم ينونون المصادر مثل (وصال) و (اقبال) و (هدى) ولكنهم يجردونها عن التنوين ان نقلت للعلمية لتوافر العلتين ٠ وفى كتب النحو شيء من هذا وهو أن (اذينة) و (وعينة) ، وهما علمان لمذكرين ، ينونان لعدم توافر القاعدة فيهما ، ولو كانا علمين لمؤنثين لفارقهما التنوين ٠ ومن هذا العرض يتبين ان حرمان الاسم من التنوين مسـألة اعتباطية وهى من غير شك من وضع النحويين واللغويين أنفسهم ٠

وقد ذكر النحويون ان التنوين لا يراعى فى مواضع معروفة وذلك لالتقاء الساكنين مثلا ، وان هذا الحذف كثير فى كلام العرب[٢١] ٠ وانهم مثلا أبعدوا التنوين عن كل اسم غالب وصف بابن ثم اضيف الى اسم غالب أو كنية أو أم وذلك نحو قولك هذا (زيد بن عمرو) انما حذفوا التنوين من هـذا النحو اذا التقى سـاكنان ٠ وذلك قولك (اضرب بن زيد)[٢٢] وأنت تريد الخفيفة وقولهم (لد الصلاة) فى (لدن) واذا اضطر الشاعر فى الاول أجراه على القياس[٢٣] : [الوافر] :

---

(٢٠) على ان النون فى هذا الشاهد الاخير هى للتوكيد وليست من النونات السابقة ٠

(٢١) ابن يعيش ، شرح المفصل ٩/٣٥ ٠

(٢٢) اضرب من زيد علم من الاعلام عند سيبويه ٠

(٢٣) سيبويه ، الـكتاب ٢/١٤٧ ٠

هى ابنتكم واختكم زعمتم لثعلبة بن نوفل بن جسر

وفى كتاب سيبويه باب ما يحرك فيه التنوين فى الاسماء ويمثل له بقولهم : (هذا زيد بن اخيك) و (وهذا زيد ابن اخي عمرو) و (هذا زيد الطويل) و (هذا عمرو الظريف)[٢٤] . وهذا يدل على ان المسألة لم تستقر على حال ، وان من ألف التنوين آثر لسانه التخفيف ولم ينون اتقاء الساكنين ، وأن من روض لسانه على التنوين فشاع فيه قبله فى هذا الباب ايضا .

ويحذف التنوين التماسا للخفة فالمنادى يبنى ولا ينون الا فى الضرورة بالاجماع[٢٥] .

وأرى تعليل هذا ان الاسم باعتماده على جزء سابق وهو (يا) النداء يكون وحدة صوتية ذات طول معين محدود ، واقتضت هذه الزيادة السابقة حذف التنوين اللاحق التماسا للمحافظة على هذه الوحدة الصوتية الموسيقية بحيث ان الاسم يسلم له هذا التنوين قبل زيادة (يا) .

وعلى هذا الوجه نستطيع أن نعلل نصب لا النافية لما بعدها كنصب ان لما بعدها مع ترك التنوين فنقول مثلا (لا ريب) والريب قبل دخول الاداة كلمة تصلح للتنوين ، ولكنه يفارقها بعد دخول الاداة عليه حفاظا على هذه الوحدة الصوتية . وتعليل هذا عند النحويين كما فى كتاب سيبويه (ان ترك التنوين لازم لانها جعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد نحو خمسة عشرة وذلك لانها لا تشبه سائر ما ينصب مما ليس باسم وهو الفعل)[٢٦] .

وربما استطعنا أن نلتمس العلة نفسها فى مسألة نصب الافعال وجزمها ؟ فالفعل (يعملون) مختوم بالنون ان لم يسبقه ناصب أو جازم

---

(٢٤) المصدر السابق ١٤٨/٢ .
(٢٥) السيوطى ، الهمع ١٧٣/١ .
(٢٦) سيبويه ، الكتاب ٢٤٥/١ .

ولكنه يفارق النون ان اعتمد على شيء من أدوات الجزم والنصب فنقول : (لم يعملوا) و (لن يعملوا) • وربما حمل على هـذا مسألة جزم الفعل المضارع المعتل الآخر ؛ ذلك ان المد فى آخره يكون له وهو فى حالة الرفع كما يقولون ، ولكن هذا المد يفارقه ان سبقه جازم ، ويبدو ان هذا الجزم من آخر هذه الوحدة الصوتية يعادله ما استند عليه الفعل من مادة الاداة •

ولا نستطيع أن نعلل الترخيم فى العربيـة بغير هـذه العلة ، ثم ان الحفاظ على هـذه الناحيـة الصوتية مما يحقق التخفيف الذى هدفت اليه العربية فى كثير من قوالب الاستعمال •

والترخيم فى حقيقته اختصـار للكلمة وخرم لهـا من الآخر تحقيقا للخفة • وللترخيم مواطن قيدها النحويون فى كتبهم ، وخصوصا فى النداء نحو (يا جار) بدلا من (يا حارث) • ولعـل من المناسب أن نلحق بباب الترخيم استعمالات كثيرة شاعت فى العربيـة منذ أقدم الازمان ، ومنهـا (عم صباحا) ؛ فقد زعموا ان أصلها انعم صباحا ، ومنها ايضا (وايم الله) فى باب القسم وأصلها (وأيمن الله)(٢٧) •

وحذف النون فى هذه الاخيرة التماسا للخفة ، والتماس الخفة سبب فى كل حالة يحصل فيهـا حـذف التنوين • وقـد فسر الاستاذ ابراهيم مصطفى حرمان العـلم من التنوين حين يردف بكلمة (ابن) وينسب الى أبيه ، بكونه معينـا تمام التعيين(٢٨) • وليس ابتغاء التخفيف كمـا ذهب اليه النحويون •

ومعنى هـذا انهم ينونون العـلم اذا كان فيـه معنى التنكير وأردت الاشارة اليه(٢٩) •

وعند الاستاذ ابراهيم مصطفى ان التنوين علامة التنكير كمـا بينا ، والنحويون يمضون التنكير بنوع واحـد من أنواع التنوين وهو ما يلحق

---

(٢٧) برجشتراسر التطور النحوى ص ١٧٩ •
(٢٨) و (٢٩) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو ص ١٧٩ •

الاعـلام المبنيـة نحو (سيبويه) ومـا يلحق أسـماء الافعـال مثل (صه) و (مه)[٣٠] •

وليس الاستاذ ابراهيم مصطفى بدعا فى هـذه الدعوى ، فقد سبقه لغويون أشاروا الى أن التنوين دال على التنكير ، ومن هؤلاء ابن جني الذى يعقد بابـا للتنكير والتعريف في (الخصائص) ولكنه لا يتقيـد باللغة فى منهجه ، ومعنى هـذا انه يلجأ الى اسلوب فيـه كثير من المحاكمة المنطقية العقليـة التى هى أبعـد ما تكون عن المنهج اللغوى الصحيح • يقول ابن جني : « ان التضاد فى هذه اللغة جار مجرى التضاد عند ذوى (الكلام) فاذا ترادف الضدان فى شيء منهما كان الحـكم منهما للطـارىء ، فأزال الاول ، وذلك كلام التعريف اذا دخل على المنون حذف تنوينه كرجل والرجل • وذلك ان اللام للتعريف ، والتنوين من دلائل التنكير فلما ترادفا على الكلمة تضادا ، فكان الحكم لطارئهما وهو اللام »[٣١] •

ولا يفارقهم هـذا المنهج العقلى فقد قرروا : « ان أصل الاسماء ان تكون نكرات ولذلك كانت المعرفة ذات علامة وافتقار الى وضع لنقلها عن الاصل »[٣٢] • والتعريف على هذا فرع من التنكير ، وان النكرة سابقة على المعرفة ، وان مسمى النـكرة أسـبق فى الذهن من مسمى المعرفة بدليـل طريان التعريف على التنكير •

ويتبين من هذا انهم خصوا التنكير بعلامة تفتقر اليـه وهو التنوين • اذا فكيف يتسنى لهم أن يؤكدوا سبق التنكير على التعريف •

وقـد فصلوا فى التفريق بين المعرفة والنكرة مستخدمين المنطق أداة

---

(٣٠) ولا معنى لاختصاص هذه المسائل بهذا النوع من التنوين لانه كيف يصح ان يكون التنوين فى سيبويه للتنكير ولا يكون فى علم آخر • اما أسماء الافعال فاضافة التنوين اليها ربما كانت لصيرورتها على ثلاثة احرف بدلا من التنائية ، والثلاثى فى الـكلمات العربية أسهل فى الدرج والوصل من الثنائى ، وعلى هذا الاساس يمكن تفسير زيادة الفاء فى (فقط) •

(٣١) ابن جنى ، الخصائص ٢/٦٢ •

(٣٢) السيوطى ، الاشباه والنظائر ٢/٣٤ •

في الحكم على ما يريدون ، فمن ذلك قولهم : « ان لفظ (شيء) و (معلوم) يقع على المعرفة والنكرة ، واندراج المعرفة تحت عمومها دليل على اصالتها كاصالة العام بالنسبة الى الخاص ، فان الانسان مندرج تحت الحيوان لكونه نوعا والجنس اصل لانواعه »(٣٣) .

وأرى ان النحويين واللغويين القدامى لم يفلحوا فى التفريق بين المعرفة والنكرة ، فقد اطلقوا هذه الفروق ولم يستطيعوا أن يتبينوها بدقة تامة . فقد ذكروا فى باب المبتدأ والخبر ان شرط الابتداء التعريف ، فاذا جاء المبتدأ نكرة اشترطوا الافادة فى هذه النكرة ، والافادة معروفة مقيدة بمواضعها فى كتبهم ، ثم انهم وجدوا ان فى كلام العرب ما يند عن هذا فقد جاء المبتدأ نكرة من غير التزام الافادة . ومعنى هذا ان النكرة كما حدودها فى اصطلاحهم تجرى مجرى المعرفة أو قل هى والمعرفة سواء بسواء ، والى هذا أشار ابن مالك فى الارجوزة :

وقس وكاستفهام النفي وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد

والذى أريد من هذا ان التعريف باللام وان التنكير بالتنوين شيء واحد ، والذى يعين فى اثبات صحة هذه الدعوى ما نجده فى اللغة الاكدية العتيقة كنصوص (حمورابى) من (التمييم) الذى يقابل التنوين ، والتمييم فى تلك النصوص لا يقيد الكلمة بالتنكير ، فهو يدخل على الالفاظ عموما ، لا فرق بين معرفة ونكرة كما انه لا يوجد أداة للتعريف .

واتصال التعريف بالتنكير وتبادلهما حاصل فى اللغة الآرامية ، وذلك ان اداة التعريف كانت فى الآرامية العتيقة فتحة ممدودة ملحقة بآخر الكلمة نحو (Sum) أى اسم و (Sma) أى الاسم وربما كان أصل الفتحة الممدودة ha التى هى آلة التعريف فى العبرية والتى توضع فى أول الكلمة(٣٤) .

وان الفتحة فى آخر الكلمات السريانية شيء من هذا ايضا فربما

---

(٣٣) المصدر السابق .
(٣٤) برجشتراسر ، التطور النحوى ص ٧٧ .

كانت للتعريف ثم فقدت هذا الاختصاص فصارت تلحق بالكلمة معرفة أو نكرة على السواء .

ولو كان التنوين مقيدا بالتنكير لكان من العسير علينا فهم الاعلام التى تقبل هذا التنوين ، وهذه الطائفة من الاعلام هى اكثر الاعلام فى العربية .

ومكان أداة التعريف هو آخر الاسم فى كثير من اللغات السامية ، ففى لغات اليمن الجنوبية ان (آن) أداة التعريف وهى تلحق الآخر[٣٥] . وربما كانت هذه هى (هن) كما فى العبرية القديمة . ثم بدلت مكانها فصارت تتصدر الاسم كما فى اللهجة الصفوية والثمودية مثل (هجمل) ومعناه الجمل و (هبيت) ومعناه (البيت) . والتشديد فى الحرف من الكلمة دليل على النون المحذوفة كما هى الحال فى العبرية .

ولما غيرت هذه الاداة مكانها خصت الكلمة المنكرة بالميم للتفريق .

واللحيانية ايضا تتوصل الى التعريف بالهاء المفتوحة فى اول الكلمة على انه وجد فى النقوش أداة التعريف فى كلمة منونة وذلك (هصلمن) ومعناه الصنم[٣٦] .

وربما كانت هذه الاداة هى الهمزة والميم فى لغة حمير من لغات الجنوب كما تذكر النصوص العربية . ويبدو من هذا العرض ان النون والميم متقاربان متبادلان . فقد روى النمر بن تولب الحديث المشهور : (ليس من امبر امصيام في امسفر)[٣٧] .

وتنفرد العربية الشمالية عن اخواتها بهذه الاداة ، ولكن الناظر فى الاسانيد يجد ان النحويين على خلاف ، فان (أل) بجملتها حرف تعريف عند الخليل وسيبويه[٣٨] . وعن الرضى الاسترباذى فى شرحه ان اللام

---

(٣٥) اغناطيوس غويدى ، المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ص ١٤ .

(٣٦) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/٢١٢ .

(٣٧) ابن يعيش ، شرح المفصل الطبعة الاوربية ص ١٢٢ ، العينى ١/٤٦٥ ، مسند أحمد ٥/٣٤٣ ، الرضى ، شرح الكافية ٢/١٣١ .

(٣٨) حاشية الصبان ١/١٧٦ .

وحدها أداة التعريف عند سيبويه[٣٩] وذكر المبرد في كتاب الشافي ان حرف التعريف الهمزة المفتوحة وحدها وانما ضم اللام اليها لئلا يشتبه التعريف بالاستفهام[٤٠] على اننا نرى ان اللام ربما كان بدلا من النون التي وجدناها في اللغات السامية ، كما ان هذه اللام قد تطوى في اللفظ مع الحروف الشمسية ، ويقتضي هذا الطي نوعا من التشديد والضغط[٤١] على المقطع الاول •

ونستطيع أن نخلص الى القول ان التنوين أو التمييم ـ وهي أداة صوتية في آخر الكلمة ـ ربما قصد بها التنبيه والاشارة ثم فقدت مكانها فصارت (أل) في اول الكلمات للتعريف • ولا حاجة لنا أن نطيل الجدل في مسألة التعريف والتنكير بالوجه الذي عرفناه في كتب النحو • وينبني على هذا اننا لا نستطيع الجمع بين (أل) و (التنوين) في كلمة واحدة لانهما يدلان على شيء واحد ولان طبيعة الكلمة العربية أو وحدتها الصوتية لا تسمح بالجمع بينهما في لفظ واحد •

ولابد من كلمة اخيرة في هذا الموضوع ، وذلك ان التنوين ربما توهم فيه فظنوه نونا كما في كلمة (تضامن) اذ الاصل فيها (تضام) بالتنوين من الضم الذي يفيد الجمع • وعلى هذا الاساس نستطيع فهم (صلدم) فالميم فيها من هذه الزيادة أي الغرض (التمييم) مقابلة للتنوين وليست من (صلد) و (صدم) كما ذهب اليه ابن فارس •

وقد أضيف التنوين الى طائفة من الادوات لفظا وخطا فأضاف اليها معاني جديدة أو قل اختصاصات جديدة ، ومنها (ما) الموصولة التي اصبحت (من) وقيدت بالعاقل وان ورد في فصيح العربية ان الاولى استعملت واريد بها العاقل كقوله تعالى : (سبح لله) •

---

(٣٩) الرضي ، شرح الكافية ٢/١٣٠ •

(٤٠) المصدر السابق •

(٤١) لم تعالج مسألة الضغط Stress في اللغة العربية ومن ثم لم تعالج مسألة المقاطع فيها •

ومن هـــذه الادوات (اذا) التى أفادهـا التنوين شيئا آخر فصارت (اذا) أو (اذن) .

ومن هذه الادوات (لا) التى أصبحت مع النون (لن)[٤٢] ، وقيدت بمعنى خاص وهو كونها لنفى المستقبل ، ويرى الخليل ان (لن) مركبة من (لا) و (ان)[٤٣] .

وربما استطعنا أن نقول ان (لن) و (لم) من حقيقة واحدة ولكن الاستعمال قد خص كلا منهما باستعمال خاص .

---

(٤٢) ابن فارس ، الصاحبى ص ١٣٦ .
(٤٣) ابن عقيل ، باب النواصب .

بحوث في اللغة

(١) ضلة العربية بين المولد الجديد والمصطلح الفنى

بعدت الشقة بيننا وبين فصيح العربية حتى غدونا وكأننا لسنا من العربية فى شيء • أو قل كأن العربية غريبة عنا ، نستعين عليها بالدرس • وكثرت الشكوى من صعوبة هذه اللغة ، فظهرت للناس محاولات التيسير فى كل مكان ، ولكن جل هذه لم يأت بطائل ، ولذلك اصوله وأسبابه ، ومنه ان الناس لا تلوك ألسنتهم هذه الفصيحة ، فهى غريبة عنهم • وقد استبدلوا بالفصيحة لغة اخرى أو قل لغات ، وهى ألسنة عامية دارجة •

ولعلى ابتعد عن الصواب اذا استعملنا كلمة « استبدلوا » ذلك ان الفصيحة لم تكن دائرة على ألسنتهم قبل ظهور اللغات الدارجة ، أو ان هذه قد تغلبت على الفصيحة فهزمتها • فقد درج الناس على لغات محلية أو قل لهجات تبتعد عن الفصيح كثيرا ، وا نسبة ابتعادها تختلف من لهجة الى اخرى • وان الناس يتعلمون الفصيحة كما يتعلمون أية لغة غريبة اخرى ، وتعلم هذه ضرورة تستدعيها امور كثيرة معروفة •

وقد كان من رسوخ الدارجة العامية عند الناس وابتعادهم عن الفصيحة انهم صاروا اذا أثقلوا على ألسنتهم وجاروا عليها فتكلموا فى الفصيح ، اسمعوا من هذا الفصيح شيئا فيه كثير من النبرات الصوتية Accents Phonétique التى لا توجد الا فى الدارج من اللهجات ، بحيث بات من السهل على العارف بالاصوات والقوانين الصوتية أن يميز بين المتكلمين عندنا فى العراق كأن يرد أحدهم للموصل ، والآخر للبصرة ، وآخر لبعقوبة من لواء ديالى مثلا •

ويظهر ذلك فى كلامهم اذا استعملوا اللغة الفصيحة ، ذلك ان الفصيح لم يكن سلساً على ألسنتهم ولم يتهيأ له الجهاز الصوتى عندهم ، ومن أجل هذا فقد أبقت فيه الدارجة كثيرا من الآثار والميزات اللغوية •

ولقد هزلت العربيـة ، وضاقت بأهلهـا ، في بعض الاقاليم من دنيا العرب ، في أيامنا هذه • وقد بدأ ضيق هذه اللغة في مطلع هـذا العصر ، حين طلعت علينا المدنية الحديثة بعلومهـا وأفانينها ، وصرنا لا نجد في لغتنا ما يقابل المصطلحات الفنية مثلا عند الغربيين • ومن اجل هـذا ، صار كل مختص يتخذ له مصطلحات يعمل على أن تشيع بين الناس ، وهي بذلك اما أن يكتب لها البقاء ، واما أن تفنى ، والبقاء والفناء راجع للمصطلحات نفسها •

والجدير بهؤلاء أن يفيدوا من الوسـائل التي أفادت العربيـة منهـا كالنحت والتركيب كما في قولهم « البرمائيات » و « الحيمن » و « لاسلكي » و « لاديني » مثلا • وقديما استفادت العربية من هذه الوسيلة فكلمة « رأس مال » والتي استحالت في الرسـم الى « رأسـمال » حين اقتضت الضرورة العلمية ، وحين شاعت الكلمة لحاجة العلم اليها ، اقول ان هذه الكلمة من ألفاظ القرآن الكريم وقد جاءت بلفظ الجمع « رؤس أموال » كما في الآية « وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »[1] •

والتركيب والنحت من المسائل الشائعة في العربية في سائر عصورها وقد أفادت العربية منه كثيرا • والمتصدي كثيرا لموضوع الاصطلاح يلزمه معرفة العربية وصيغها واشتقاقها ليفيد منها في هذا الميدان[2] •

وقد قرأت للكاتب كمال يوسف الحاج رسالة في « القومية والانسانية » فخشيت على العربية من أسلوبه الذي يعمل على اشاعته بين الناس قصداً منه في ذلك ، وارضاء لفكرة طائشة ضالة مضلة ، خدمة لمبدأ معين هو ضد القومية العربية • والعربية عنده لغة هزيلة تتعثر في تيهاء مضلة بين المولد الجديد التافه وبين المصطلح العلمي الفني الذي لا يقوم على أساس •

ولقد وددت أن اسجل للقارىء شيئا من هذه الاستعمالات تنبيهـا له

(١) البقرة ، ٢٧٩ •

(٢) محاضرة للدكتور مصطفى جواد في مؤتمر المجاميع العربيـة لسنة ١٩٥٧ عنوانها « وسائل النهوض باللغة العربية وتيسير قواعدهـا وكتابتها •

وخدمة للعربية ورعايـة لما يقتضيه البحث العلمى فى اللغة • وربما كان فى هذا التسجيل مثاراً للضحك على هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون •

يسـتعمل « الـكاتب » « المتبرجين » على طريقـة النحت لمن ينسبهم « للبرج العاجي » • ويحلو له أن يشتق من « الشخصية »[٣] وهى اصطلاح فلسفى مقابل لـ Personalisme فعلا هو « تشخصن » •

ويدخل فى هذا الباب قوله « يتجمعن » للذى يدخل فى المجتمع أو يلتزم بالفلسفة الاجتماعية •

وهو يعرب الـكلمة الافرنجيـة الفلسـفية "Phenoménologie" بالمظهرية والـكلمة من اصل اغريقي "Phainomenon" وتعنى الظاهرة ، وهذا ما حدا بكاتب لبنانى آخر أن ينقلها الى « الظاهراتية » • وأنا أرى ان الحفاظ على الـكلمة الافرنجية وذلك بصقلهـا وصيرورتهـا بوزن لا تأباه العربية ، ولنا فى الفسلجة أو قل حتى « السكلجة » تجربة وفائدة •

وقد قرأت مقالة اخرى للسيد الحاج[٤] ، والمقالة من هذا النوع الذى لا يحمل الا على العبث والجهـل بالاصول ؛ وهى بعد هذا مثيرة للضحك والاشـفاق • وعنوان المقالة « سـعادة الفيلسـوف » ويريد بذلك « انطون سـعادة » •

يقول الكاتب ما نصه :

ان امة لا تفلسف هى امة تتقزم ، هى امة تتصعلك ، لا يقبلها التاريخ الاكبر فى قدس اقداسه ، انها امة مدعوسة ••••••

ثم يقول :

سعادة ما جاء يتسيس[٥] افقيا لقد كان كبيرا وكبيرا فى سياسته ، لقد

---

(٣) عرب غيره هذا المصطلح الاوربى بقوله « الشخصانية » وهو نوع من أنواع العبث والجهل •

(٤) مجلة المجلة اللبنانية ، العدد الثانى آذار ١٩٥٨ •

(٥) اشتق الفعل « تسيس » من المصدر « سياسة » ولا أدرى ما معنى افقيا أو عاموديا •

تسيس عاموديا • مثله كمثل النسر الذى يحلق فى الجو الفسيح ، النسر لا يتأرض(٦) ••••••

ثم يقول :

كان يغير من فوق ، بل من فوق الفوق(٧) على مساحب الزمان ومرابط المكان •

ثم يقول :

يومها تأنسنت(٨) قوميتنا •

ويقول :

الجو يتمظهر وجودات الانسانية التى تتجسد قوميات ••••

ثم يقول : الحب يجب أن يتبدن(٩) ••••••

ثم يقول :

الحرية اللاوجبه هى التى تتسنسن كيفماكانيا(١٠) •••••

ثم يقول :

القوة هى من جوانيات(١١) النفس البشرية •••••

ولا حاجة بى أن اعلق كثيرا على هذه اللغة الكسيحة المتعثرة ، وربما كان فى نفس كاتبها قصد أن ينزل بالعربية الى هذا الدرك •

وليس الكاتب « الحاج » وحده فى هذه السبيل ، فهناك زمرة تدين بهذا المذهب ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر لبنانى آخر يقول الشعر

---

(٦) اشتق الفعل « يتأرض » من الاسم « أرض » •

(٧) من فوق الفوق استعمال عامى تافه •

(٨) اشتق الفعل « تأنسن » من الاسم « إنسان » •

(٩) اشتق الفعل « تبدن » من الاسم « بدن » •

(١٠) استعمل الفعل « تسنسن » ولا أدرى من اين جاء بها ثم ركب قولهم : « كيف ما كان » وصاغ منها كلمة واحدة ثم نصبها على الحال •

(١١) يريد بالجوانيات ، « الداخلية » وهو يستعمل فى مكان آخر المجتمع البرانى والمجتمع الجوانى للخارجى والداخلى وهى ألفاظ عامية دارجة •

اسمه يوسف الخال وهذا يستعمل الدارج في قصائد له .

جاء في قصيدة أسماها « العودة »[١٢] :

غدا يعود سيدي
شراعه كغيمة بيضاء عند الشفق
أعرفه متى يلوح ، كيف لا ؟
خيوطه أنا الغزلتها اصابعي
. . . .
. . . .
يعود يا هلا !
من المجاهل الوراء قبرص الحبيبة

فقد استعمل « الغزلتها » بادخال « أل » الموصولة على الفعل ولا أظنه استعمل الفصيح المعروف[١٣] أو ان الفصيح كان حاضرا في ذهنه وانما نقل العامية الدارجة ، وذلك لانه استعمل كلمة « اللي » العامية التي تقابل « الذي » في نقده لديوان « من الشعر الشعبي » فقال : « الجيل اللي خرج من الحرب الاخيرة انفتح على تيارات شعرية جيدة » .

(٢) مكانة الجديد في اللغة

اذا قلت للقارىء الكريم : ان اللغة مادة تظهر المجتمع الانساني على حقيقته ، وهي وثيقة الصلة بالانسان وبيئته ، فما أتيت بجديد ، ذلك ان هذا الموضوع قد بحثه ذوو الاختصاص من العلماء في عصورنا الحديثة فكتبوا فيه ، بله القدامى . وقد استعان على هذا الموضوع غير المعنيين بعلوم اللغات ، فقد قال فيه أهل الاجتماع وأهل الفلسفة . وللموضوع جوانب كثيرة ، وأبواب متعددة . فاللغة أساس كل أنواع النشاط الثقافي ، وهي

---

(١٢) مجلة « شعر » في العدد الرابع أيلول لسنة ١٩٥٧ .
(١٣) جاء في الاستعمالات القديمة « ما انت بالحكم الترضى حكومته » .

بذلك خير دليل يهتدى به الباحث الى معالم أى من المجتمعات الحديثة[١٤] .

ونستطيع أن تتبين هذا فى لغتنا العربية ، ذلك اننا نفيد من هذه العربية شيئا كثيرا مما يتميز به المجتمع العربى فى حقبة من أحقابه ، اذ ليس لمن يريد أن يبحث فى المجتمع الاسلامى ، فى القرن الاول الهجرى ويتبين المستوى الفكرى فيه ، الا أن يعرف معانى المصطلحات التى جاء بها الاسلام ، والتى استطاعت العربية أن تكون لها معبرا صحيحا[١٥] .

ولعل ما بقى لدينا من الادب الجاهلى مما يطمئن الباحث الى صحته وضبطه ، لدليل يهتدى به لمعرفة المجتمع الجاهلى فى العادات والتقاليد وطرائق التفكير .

فاللغة لا تقتصر على كونها وسيلة من وسائل الثقافة ، وانما هى أساس كل نشاط ثقافى . « ففى كل مجتمع ، مهما كانت طبيعته وسعته ، تلعب اللغة دورا ذا أهمية أساسية ، اذ هى أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع وهى فى الوقت نفسه رمز الى حياتهم المشتركة وضمان لها .

فما الاداة التى يمكن أن تكون أكثر كفاية من اللغة فى تأكيد خصائص الجماعة ؟ فهى فى مرونتها ويسرها وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعانى تصلح لاستعمالات مختلفة متشعبة وتقف موقف الرابطة التى توحد أعضاء الجماعة ، فتكون العلاقة التى بها يعرفون ، والنسب الذى اليه ينتسبون »[١٦] .

وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه ، وانما هى عامل مهم للترابط بين جيل وجيل .

واللغة من صنع الناس أنفسهم يضعون مقاييسها فتجرى عليها ألسنتهم ، ثم ان هذه المقاييس ليست شيئا ثابتا لا يقبل التبديل والتغيير . ذلك ان المجتمع الانسانى متغير متطور أبدا .

---

(١٤) Block and Tauger, Outline of Linguistic Analysis, P. 5.

(١٥) الرازى ، كتاب الزينة ، وهو من الكتب التى تبحث فى الالفاظ التى جدت فى العربية بمجىء الاسلام .

(١٦) J. Vendryes, Language, P. 240.

بيد ان الذين أقاموا أنفسهم حماة للعربية فى جميع أطوارها لم يتفهموا سنة التطور ولم يقبلوا الجديد • فاللغويون والنحويون من العرب يحصرون الفصيح من اللغة بعصور معينة لا تتعدى صدر الاسلام ، وهذه الحقيقة هى ما يصح أن يحتج بكلامهـا ، فلم يجيزوا الاحتجاج بلغة الفرزدق الشاعر • ومن أجل هـذا وقع للفرزدق مع عبدالله بن ابى اسحق الحضرمى النحوى ما وقع ، فقد جاء فى قصيدة للفرزدق :

وعض زمانا يابن مروان لم يدع   من المال الا مسحتا أو مجلف

وكأن النحوى لم يرتض هـذا البيت ورأى فيـه خروجا على القاعدة النحوية ، فقال للفرزدق : « على أى شىء ترفع أو مجلف ؟ فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك »(١٧) • وفى مكان آخر عقب الفرزدق على قوله السالف بقوله : علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا •

وليس الحضرمى بدعا بين اللغويين النحاة عند العرب ، فقد ذكر أبو حاتم السجستانى : سألت الاصمعى : أتقول فى التهديد (أبرق وارعد) قال : لا ، لست أقول ذلك الا انى أرى البرق واسمع الرعد • قلت : قال الشاعر الكميت :

ابرق وارعـد يا يزيد   فما وعيدك لى بضـائر

قال الكميت جرمقانى من أهـل الموصل ليس بحجة ، ولكن الحجة هو الذى يقول

اذا جاوزت عن ذات عرق ثنية   فقل لابى قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلى وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله • قال أبو حاتم : فأتيت أبا زيد الانصارى وقلت لـه : كيف تقول من البرق والرعد : فعلت السماء ؟؟ قال : « رعدت وبرقت » • قلت فمن التهديد ؟ قال : « رعد وبرق ، وارعد وابرق » فأجاز اللغتين • ثم سألت اعرابيا فصيحا فأجاز اللغتين ايضا ولم يجز الاصمعى الا لغة واحدة(١٨) •

---

(١٧) ابن الانبارى ، نزهة الالباء ص ٢٤ •
(١٨) القالى ، الامالى ١/٩ •

وكان الاصمعي ينكر كلمة « زوجة » ويقول « زوج » ويحتج بقوله تعالى : « امسك عليك زوجك » فقيل ان الشاعر ذو الرمة يقول :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة   أراك لها في البصرة اليوم ثاويا

فقال ذو الرمة ليس بحجة ، اذ طالما أكل البقل والمالح في حوانيت البقالين • وفي نوادر أبي زيد : كان الاصمعي ينكر « هي زوجتي »[١٩] •

ويقول ابن جني : كان الاصمعي ليس ممن ينشط للمقاييس وانه معروف بقلة انبعاثه في النظر وتوفره على ما يرى ويحفظ[٢٠] • وابن جني من علماء القرن الرابع الهجري وهو العصر الذي لم يمنع ما قيس على كلام العرب أن يكون من كلام العرب[٢١] •

ومن أجل هذا فكتب اللغة والمعجمات المطولات يجب أن تكون سجلا للاستعمالات اللغوية • واذا أريد منها أن تتحكم في الاستعمال لم تصبح وصفا للاستعمال الفعلي للغة ، وانما أصبحت معايير يقاس بها « خير استعمالات الكلمات »[٢٢] •

ولم يكن لغويو العرب بدعا في هذا الميدان ، فقد وقع النحاة الرومان في مثل هذه الغلطة حين جمعوا استعمالات اللغة بين عصور شيشرون واغسطس ، وما قبل ذلك كعهد بلاوطوس وترنسي ، وما بعد ذلك كعهد سنكا الامبراطوري[٢٣] •

وقد فعل مثل هذا نحاة الاغريق الذين بنوا نحوهم على اللهجة الاتيكية[٢٤] • والنحو عند هؤلاء جميعا قواعد تبنى على أساسها الجمل •

---

(١٩) السيوطي ، المزهر ١/٢١٤ •
(٢٠) ابن جني الخصائص ١/٣٦٦ •
(٢١) المصدر السابق ص ٣٦٢ •
(٢٢) Jesperson, Language, its N., D. and O., P. 25.
(٢٣) Sturtevant, P. 53.
(٢٤) المصدر السابق •

وليس شيئا من هذا عند علماء اللغة فى العصر الحديث • فهو : علم يصف طرق الاستعمال اللغوى فى مرحلة خاصة من مراحل تاريخ اللغة المدروسة[٢٥] •

وما دمنا آخذين بهذه النظرة الواسعة ، وما دمنا كذلك نعطى الاستعمال قيمته ومكانته فى اللغة فلابد أن نقيد الجديد فى اللغة بعصره وظرفه غير مبالين بكونه خارجا عما ألف الناس من الفصيح المشهور •

ودونك مثالا على ما أقول :

من يتتبع الاحاديث والتعليقات التى تذيعها دار الاذاعة ، وله بصر باللغة والاستعمالات يعجب من شيء جديد التزمته لغة التعليقات على لسان أحد مذيعيها • وهذا الشيء هو كثرة استعمال المصدر مجموعا جمع مؤنث سالما ، فقد ورد فيها ما يأتى :

(١) النجاحات •
(٢) النشاطات •
(٣) النضالات •
(٤) التمردات •
(٥) العصيانات •

وشيء غير هذا • وليس جمع المصدر بالمألوف كثيرا فى العربية • ذلك ان ما جمع من المصادر فى العربية هو الحدث من حيث كونه اصطلاحا نحويا ولكنه انتقل من صورة الحدث الى صورة الجمود فاستحال الى اسم بعيد عن الحدثية ، والاستعمال مرد هذا التوسع اللغوى • فالتعليقات جمع تعليق والتعليق ليس الحدث وانما هو المادة المكتوبة المعروفة التى علق بها على شيء آخر • ومثل هذا : الترتيبات والاستقالات والاصطدامات وغير هذا • وبديهى ان الاصطدامات لا تعطى فكرة الحدث بقدر ما تعطى صورة الاصطدام بين طرفين متنازعين •

---

(٢٥) J. Marouzeau, Lexique de la terminologie Linguistique P. 102.

ويؤيد هذا قوله تعالى : « الخيرات » فقد وردت في عشر آيات وهي جمع خير وكلمة « خير » في العربية اسم تفضيل توسع فيها فأفادت المصدرية واستعملت استعمال المصدر ، أما استعمالها في القرآن في الآيات العشر فلا يفيد المصدرية اذ هي مجموعة على « خيرات » والخيرات معروفة المعنى وليست بالحدث مطلقا ، وانما تنصرف الى النواحي المادية من فعل الخير • كما في قوله تعالى « فاستبقوا الخيرات »(٢٦) •

أما الجموع التي وردت على لسان المذيع في تعليقاته السياسية فهي جديدة ، ومن حق جدتها أن تسجل لانها تضيف استعمالا جديدا • ومصدر طرافتها وجدتها انها تولدت عن طريق الترجمة غالبا ، فهي مقابل لكلمات أجنبية استعملت كثيرا في لغاتها وشاعت في لغات اخرى عن هذا الطريق • وهذه في لغاتها التي انتقلت منها لم تكن لتفيد الحدث بل هي أسماء • فالنضالات (Lutts) لا تفيد الحدث بل هي اسم • أما الحدث فهو (Lutter) •

ومصدر جدتها ايضا ، انها لم تكن قد استقرت في الاستعمال أو انها انتقلت من كونها احداثا الى انها أسماء بحيث تعامل معاملة الاصطدامات والتعليقات وما أشبه ذلك •

ولا اريد هنا أن اسجل مخالفة في الاستعمال اللغوي جريا على تخطئة ما لم يشتهر من الفصيح المعروف ، بل اريد أن اسجل تاريخ هذه الاستعمالات وكيف اضيفت الى العربية •

ولا يفوتني أن اذكر اني سمعت على لسان أحد شهود « محكمة الشعب » انه استعمل « تعاونات » وهذا يدخل في هذا الباب ايضا •

(٣) هجرة الالفاظ

لعلك تدهش ان عرفت ان الالفاظ تنتقل انتقال الناس في اطراف هذه الدنيا ، ذلك انك لم تألف عنوانا كهذا العنوان الذي نثبته اليوم • فقد عرفت

---

(٢٦) البقرة ، ١٤٨ ·

ان الهجرة من خواص الناس ، وان الهجرة ايضا من عادات الطيور ، وأنا أقول لك اليوم ان الالفاظ تهاجر وتعود الى أوطانها . واللغة شأنها شأن فروع المعرفة الاخرى تنتقل بين الناس ، فليست المعرفة ملك أحد دون آخر ، وليس من أمة امتلكت ناصية العلم ولم يشركها في الامر أمة اخرى ، ذلك ان التراث الانساني محصول طائفة كبيرة من الامم ، على ان هذه غير متساوية في الحظوظ ، وفيما أمدت العلم بانجازها .

واللغات متداخلة بعضها ، ولعل من دلالة الحيوية في اللغات انها تقبل من غيرها من اللغات كلما جدت الحاجة الى هذا . ولقد حدث ان دخل في العربية مادة غريبة وافرة من اصول عدة فيها الاغريقي واللاتيني والفارسي بله المواد ذات الاصول السامية التي لا نحسبها من الدخيل ، ذلك ان أسرة هذه اللغات جميعها ، مشتركة في الذي تشتمل عليه من أصول .

والذي نعلمه ان العربية أمدت اللغات الاخرى بمواد كثيرة في مختلف العصور ، وليس أمر الدخيل العربي في الفارسية والتركية بعسير ، على ان لغات اخرى قد أخذت من العربية في ظروف متأخرة مواد كثيرة ، ومن هذه ما شاع منها في اللغات الاوربية الحديثة ، ولعل تاريخ هذه الظاهرة اللغوية يرجع الى أزمنة الحروب الصليبية وما بعدها ، ولعل شيئا من هذا قد حدث قبل هذا التاريخ ايضا . ويستطيع الباحث أن يحصي مواد عربية في كثير من اللغات الاوربية الحديثة أخذتها هذه اللغات عن العربية مباشرة ، دون أن يكون هناك حلقة مفقودة أو وسيطا آخر لاتينيا أو اغريقيا .

والذي جرى في هذه اللغات الاوربية في هذه العصور ، حدث مثله في العربية فقد أخذت العربية كلمات افرنجية واستعملتها كثيرا وأجرت عليها قواعد العربية من تثنية وجمع وربما أخضعتها لقواعد الاشتقاق حتى أحالتها وكأنها عربية بالاصالة .

فقد جاء في احدى معاقدات صلاح الدين الايوبي مع الافرنج سنة ٥٨٧هـ استعماله كلمة (Terme) وتعني هذه الكلمة « الحد والاجل ،

والامد ، والقسط » ، وقد جاءت على « تروم » أى الجمع فقد جمعت كما يجمع « فعل » مفتوح الفاء ساكن العين على فعول[٢٧] • وما زالت الكلمة مستعملة عند عرب فلسطين فى هذه الايام ، وهى تعنى عندهم الموسم • ولا نريد فى هذا المختصر أن نأتى على هذه المواد ، ذلك اننا سقنا هذه على سبيل المثال لنخلص منها الى شيء آخر ، هو ان الالفاظ تجاوز اوطانها ثم تعود ، وهى لا تسلم فى هذه الحركة الطويلة من تغير فى المعنى والاستعمال والشكل ، ومثل هذا حدث فى ألفاظ عربية استعملتها الفارسية فى غير معانيها ، وقد لبست فى الفارسية ثوبا جديدا ، فكلمة « تماشى » لا تدل على مطلق المشى وانما تستفيد فى الفارسية خصوصية فى المعنى تجدها فى الكلمة الدارجة عند قسم من العراقيين باستعمالهم « يتطمش » والتطميش والطماشة لا يدلان على المشى المعروف •

وقد استخدمت الفارسية كلمة (التهور) العربية ولكنها استفادت شيئا آخر لا نجده فى العربية ، وهو الشجاعة ، ومعلوم ان الشجاعة غير التهور فى العربية •

وقد أخذ الاوربيون كلمات عربية ، وشاعت فى لغاتهم وما زالت مستعملة حتى يومنا هذا ولكنهم أطلقوا على دلالات غريبة بعيدة عن معناها فى العربية •

ومن هذه الكلمات كلمة (الكحول) فقد دخلت اللغات الاوربية بواسطة اللغة الاسبانية ، ولكنها استعملت للدلالة على المواد الروحية (Spirits)، ثم عادت الى الشرق مستعملة فى لغة العلم الحديثة ، واستعملها العرب الاستعمال الاوربى نفسه ، ولم يفطن هؤلاء الى ان الكلمة جاءت من أصل عربى وهو « الكحل » والكحل ما تكحل به العين ، وهو معروف ولم يشتهر جمعه فى العربية • واحسب ان صيغة الجمع جاءت من اشباع ضمة الحاء فى المفرد (كُحُل) ، أما لزوم الالف واللام فى الكلمة فلا تفيد

(٢٧) انظر الدكتور مصطفى جواد ، المباحث اللغوية فى العراق ١١٨ •

تعريفا واحسبها كالالف واللام في « الحسين » و « العباس » وسبب الألف واللام راجع الى ان الـكلمات العربية التى انتقلت الى اللغات الاوربية عن طريق اللغة الاسبانية صدرت بهذه الاداة بصورة عامة ، وانت اذا استقريت الاصول العربية في اللغات الاسبانية وجدتها محلاة بالاداة كالقنطرة والحمراء وغير هـذا •

وقـد أخـذت اللغـات الاوربيـة كلمة « الجوسق » وتعنى البيت ، والجوسق في العربيـــة معرب فارسى[٢٨] وفي اللغـــات الاوربيـة بلفظ (Kiosque) للبيت الصغير كالذى يتخذ لبيع الصحف ، ثم وردتنا هـذه الكلمة مع الالفاظ الاوربية الدخيلة بلفظ « كشك » ، وصارت مستعملة في العربية الحديثة ، وقد شاعت قبل هذه السنين في أقاليم محدودة من أقطار العربية كمصر ولبنان ثم عم استعمالها •

ولعل كلمة « الحبل » في العربيـة والتى يبـدو ان لهـا في اللاتينية نظـير هـو (Capsulum) والتى وردت في اللغات الاوربيـة كالفرنسية والانكليزيـة بلفظ (Cable ، Câble) وتعنى الحبل والسـلك جاءت في العربية الحديثة في الالفاظ التى استخدمها المعنيون بالبرق في كلمة (قابلو) ولم يفطن المستعملون الى أصلها وانها قريبة من « حبل » •

ومثل هـذا حدث لكلمات كثيرة ، فالادميرال والاميرال وغيرهما من كلام العرب الذى أخذه الاوربيون ثم جاء بصيغته التى ذكرناها •

ولقد أخذ الترك والفرس مصادر عربية مختومة بالتاء ، واستعملت اعلاما مذكرة كالحشمة والنزهة والشوكة والهداية والعناية وغير هذا ، ثم صارت تلفظ على طريقتهم بالتاء الساكنة فيقولون شوكت وحشمت وبهجت[٢٩] ثم عاد العرب يستعملون هـذه الاعلام الاعجمية ذات الاصول العربيـة على

---

(٢٨) انظر الجواليقى ، المعرب ، والالفاظ الفارسية المعربة لأدي شير •

(٢٩) لما كانت التاء في هذه الاعلام محققة وهى تلفظ دائما فليس لنا الا ان نرسمها تاء طويلة خلافا لما جرى عليه الناس في الازمنة المتأخرة من رسمها بالتاء المربوطة •

طريقة هؤلاء الاعاجم دون الالتفات الى أصلها المصدرى العربى ، ذلك أن التاء فى هذه الاعلام محققة واضحة اذ ليست كتاء بهجة وعفة التى تستحيل عند الوقف هاء •

والاستقراء العام الشامل لكلمات العربية خير وسيلة للوقوف على هذا النوع من الدخيل الذى يظهر حركة الالفاظ وانتقالها عبر القرون بين مختلف الامم • ولعل هذا المختصر الذى نبدؤه اليوم يعين على رسم شئ يسير فى تاريخ العربية ، وهو من غير شك بداية يلزمها الاكمال والتثبيت •

العربية بين الجمود والتطور والتوليد

ان اللغة وثيقة الصلة بالانسان وبيئته ، فهى تظهر المجتمع الانسانى على حقيقته • وقد بحث موضوع اللغة العلماء المختصون فى العصور الحديثة ، كما بحثه الاقدمون فكتبوا فيه على طريقتهم ، على ان نفرا غير قليل من غير ذوى الاختصاص فى اللغة قد مروا بالموضوع نفسه فى خلال دراساتهم ، ومن هؤلاء ، ذوو علم الاجتماع ، والمهتمون بعلم النفس ، والقائلون بالفلسفة • وللموضوع جوانب كثيرة وأبواب متعددة ، فاللغة أساس كل أنواع النشاط الثقافى ، « وهى بذلك خير دليل يهتدى به الباحث الى معالم أن من المجتمعات الحديثة »[1] • ففى كل مجتمع مهما كانت طبيعته وسعته ، تشغل اللغة مكانا ذا أهمية أساسية ، اذ هى أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهى فى الوقت نفسه رمز الى حياتهم المشتركة وضمان لها •

فما الاداة التى يمكن أن تكون أكثر كفاية من اللغة فى تأكيد خصائص الجماعة ؟ فهى فى مراتبها ، ويسرها ، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعانى تصلح لاستعمالات متشعبة وتقف موقف الرابطة التى توحد أعضاء الجماعة ، فتكون العلامة التى بها يعرفون والنسب الذى اليه ينتسبون[2] •

وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه ، وانما هى عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الثقافات عبر العصور لا يتأتى الا بهذه الوسيلة العجيبة • ومن أجل هذا كان من السهل على الباحثين أن يكتبوا تاريخا واضحا لكثير من اللغات الحديثة ، بادئين بأقدم صورة للغة ، متعقبين التطور التاريخى لها ، ولذلك استطعنا أن نقف اليوم على البحوث القيمة فى هذا الموضوع •

---

(١) Block and Tauger. Outline of Linguistic Analysis P. 5.

(٢) J. Vendryes, Language P. 240.

غير أن لغتنا العربية تفتقر الى الحلقات الاولى من تاريخها ، اذ ليس لدينا نصوص وافية تشير الى تلك المراحل التاريخية • ان الشعر الجاهلى ، أو قل الادب الجاهلى عامة لا يمكن اعتباره مادة اولى تمثل طفولة العربية ، فهى لا تختلف كثيرا عن اللغة فى العصور الاسلامية ، ونحن نفترض أن يكون فى اللغة العربية نصوص قد ضاعت أو اننا لم نعثر عليها ، ولم يحدث للغة العربية ما حدث للغات السامية الاخرى ، فالتنقيب العلمى الحديث دل على مواد كثيرة فى اللغات الاكدية والآشورية والعبرية والآرامية والحبشية أفادت البحث اللغوى كثيرا ، ودلت على امكان القيام بوضع تاريخ محكم الحلقات فى هـذه اللغات •

أما البحث التنقيبى الذى قام به العلماء الاوربيون وغير الاوربيين ، فى أنحاء معينة فى شبه الجزيرة وفى اليمن ، واهتداؤهم الى حل الرموز كما فى المعينية[٣] والسبئية[٤] والنقوش اللحيانيـة[٥] والثمودية[٦] ، فلا يمكن اعتباره مشيرا الى الحلقات الاولى المفقودة فى العربية ، والتى سبقت الادب الجاهلى ، وذلك أن بينها وبين النصوص الجاهلية فرقا عظيما ، فهذه المواد اللغوية التى دلت عليها النقوش المكتشفة تؤلف لهجات أو لغات سامية تقرب من العربية المعروفة •

على ان علماء العربية لم يتقيدوا بالاستعمال وتطور هذا الاستعمال فى اللغة ، فقد رسموا لانفسهم صورة للغة لا يحيدون عنها ، وحملوا بذلك ما خالف هـذا المرسوم المتفق عليه على الخطأ واللحن ومجاوزة الصحيح • وقصة ابن أبى اسحق الحضرمى النحوى مع الفرزدق الشاعر دليل على هذا فقد قال الفرزدق فى قصيدة له :

---

(٣) خليل يحيى نامى ، نقوش خربة معين القاهرة ١٩٥٣ •
(٤) اغناطيوس كويدى ، المختصر فى علم اللغـة العربية الجنوبيـة القديمـة •
(٥) Werner Caskel, Lihyan Und Lihyanish.
(٦) Jaussen et Savignoe, Mission archéologique en Arabie.

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المـال الا مسحتا أو مجلف

فقال النحوى : على أى شيء ترفع « مجلف » ، فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك[٧] . وليس الحضرمى بدعا بين اللغويين ، فقد ذكر أبو حاتم السجستانى : سـألت الاصمعى : أتقول فى التهديد (ابرق وأرعـد) قـال : لا ، لست اقول ذلك الا انى أرى البرق واسمع الرعد ، قلت قـال الشاعر الكميت :

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيـدك لى بضـائر

قال : الكميت جرمقانى من أهل الموصل ليس بحجة ، ولكن الحجة هو الذى يقول :

اذا جاوزت من ذات عرق ثنيةً فقل لابى قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلى ، وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقولـه . قال أبو حاتم : فأتيت أبا زيد الانصارى ، وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد : فعلت السماء ؟ قال : رعدت وبرقت ، قلت فمن التهديد ؟ قال : رعد وبرق ، وأرعد وأبرق ، فأجاز اللغتين ، ثم سألت اعرابيا فصيحا فأجاز اللغتين ولم يجز الاصمعى الا لغة واحدة[٨] .

وكان الاصمعى ينكر كلمة « زوجة » ويقول « زوج » ويحتج بقوله تعالى « أمسك عليك زوجك »[٩] فقيل ، له : ان الشاعر ذو الرمة يقول :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة أراك لها فى البصرة اليوم ثاويا

فقال ذو الزمة ليس بحجة ، اذ طالما أكل البقل والمالح فى حوانيت البقالين[١٠] .

وقد عرف عن الاصمعى هذا التشدد والحرج فهو يأبى كلمة خالفت

---

(٧) ابن الانبارى ، نزهة الالباء ٢٤ .
(٨) أبو على القالى ، الامالى ١/٩ .
(٩) سورة الاحزاب ٣٣ .
(١٠) السيوطى المزهر ١/١٤ .

لغة التنزيل ، وهو من أجل هذا لم يرض لنفسه أن يبحث فى لغة التنزيل على نحو ما فعل أبو عبيدة فى « مجازه » وابن قتيبة فى « تأويل مشكل القرآن » مثلا . ويقول ابن جني : كان الاصمعى ليس ممن ينشط للمقاييس وانه معروف بقلة انبعاثه فى النظر ، وتوفره على مايرى ويحفظ[11] . وابن جني من علماء القرن الرابع الهجرى وهو العصر الذى لم يمنع ما قيس على كلام العرب أن يكون من كلام العرب[12] .

ومن علوم اللغة فى العصور الحديثة « علم معانى الاسماء » أو « علم الدلالة » ويراد به دلالة اللفظ ونشأته واستعماله ، ومجال هذا الاستعمال ، وتطور الدلالة بتطور الزمن ، وأسباب هذا التطور وعوامله ، وأول من قام بدراسة تعرض لهذا الموضوع هو الفرنسى Michel Bréal وسمى دراسته Essai de Sémantique سنة ١٨٩٧ ، وخلص فى بحثه الى قواعد عامة فى الدلالة وتطور المعنى معتمدا على اللغات القديمة التى تنمى الى أسرة واحدة كاليونانية واللاتينية والسنسكريتية . وفى سنة ١٩٣٣ كتب العالمان I. A. Richards, G. K. Ogden كتابهما The Meaning of meaning وقد عرضا فيه لمسألة الدلالة عرضا شاملا معتمدين على علم الاجتماع والنظم الاجتماعية وفى ضوء مباحث علم النفس الحديث كمسائل العاطفة والانفعال والشعور .

وقد غزا هذا الموضوع أصناف عدة من ذوى الاختصاص فى السنين الاخيرة ، فيهم عالم الطبيعة ورجال القانون وأصحاب علم النفس ورجال الفلسفة ، وقديما كانت اللغة بابا من أبواب الفلسفة ، ومن أجل هذا عرض الفلاسفة الاغريق لموضوع اللغة على انها شيء من المنطق . ولم يتيسر بعد فى العربية شيء من بحث الدلالة على الطريقة المتبعة فى البحوث الحديثة .

ولم يعتمد الاقدمون الا على الرواية ، وحدث أن كان بين الرواة نفر

---

(١١) ابن جنى ، الخصائص ١/٣٦٦ .
(١٢) المصدر السابق ٣٦٢ .

لم يحجم الاصطناع والتزيد ، ولو عرفنا ان حديث رسول الله (ص) لم يسلم من الدس والتزوير ، لم ننكر أن يكون بين نقلة الاخبار الادبية واللغوية من لا يطمأن الى قوله ، ومن هو فاسد الذمة يصطنعها اصطناعا ، غير أن الحديث قد نزه عن كثير من التزيد والزيف ، وطريقتهم في ذلك اتباع علوم الحديث المعروفة ، واخضاع الحديث للجرح والتعديل كما يقولون ، وليس شيء من هذا كان قد اتبع في تحري العربية ، وان كان السيوطي قد ذهب الى أن : « علم الحديث واللغة اخوان يجريان من واد واحد »[١٣] .

ولكن علوم القرآن فرضت على المسلمين أن يعمدوا الى كتاب الله فيفسروه ويتعقبوا ألفاظه ، وكانت الحاجة الى معرفة لغة القرآن وغريبه سببا في خوضهم في بحوث لغوية عن المعنى والدلالة . وأبو عمرو بن العلاء أحد علماء العربية الاولين كان يعتبر لغة القرآن ودراسة معاني ألفاظ القرآن هدفا لكل مسلم . ومن أجل ذلك استعانوا بالشعر في شرح وتفسير لغة القرآن ، ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى في « مجاز القرآن »[١٤] ، وقد اعتمد على هذا الكتاب ابن قتيبة في كتابيه « المشكل » و « الغريب » ، وظل « مجاز ابي عبيدة » مادة لكثير ممن كتبوا في الموضوع[١٥] . وقد انتهى البحث في لغة القرآن الى القول بأن فيها كلمات « أعجمية الاصول عربية الالفاظ » والى هذا ذهب أبو عبيدة القاسم بن سلام الازدي المتوفى (سنة ٢٢٤هـ) ، غير ان أبا عبيدة ذهب غير هذا المذهب وقال : « اللفظ يوافق اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد »[١٦] . وقد تبعه على هذا المذهب الطبري في « تفسيره »[١٧] ، والثعالبي في « فقه اللغة »[١٨] ، وعند هؤلاء ان ما جاء من أشكال يخيل الى الناظر اليها انها أعجمية هو من باب توافق

(١٣) السيوطي ، المزهر ٣١٢/٢ .
(١٤) أبو عبيدة ، مجاز القرآن .
(١٥) أبو عبيدة ، انظر مقدمة المحقق ١٧/١ .
(١٦) المصدر السابق ١٧/١ .
(١٧) الطبري ، التفسير ٦/٦ .
(١٨) الثعالبي ، فقه اللغة ٣١٥ .

اللغات . على ان أبا حاتم الرازى قد ذهب الى أن معانى الاسماء فى القرآن منها ما هو عربى عرفته العرب ومنها ما جاء فى القرآن ولم تكن العرب تعرفه ، ومنها ما جاء فى القرآن من ألفاظ العجم[١٩] . وكان كتاب (الزينة) لابى حاتم موردا لكثير من الباحثين فى الالفاظ الاسلامية ، على ان أبا حاتم لم يسلم من التعصب للعربية ، فقد ذكر فى كتابه كثيرا من المواد على انهـا عربية ، والتى دل البحث الحديث على انها ليست عربية الاصل وسنعرض لهذا ، ومن أمثلة تعصبه انه عقد فصلا فى « فضل لغة العرب » ذهب فيه الى أن العربية أفصح اللغات وأكملها وأتمها وأعذبها وأبينها ... الخ . وقد جاء فيه : « وقال قوم بفضل اللغة اليونانية والهندية ، لان كتب الفلاسفة والاطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها . وهذا قول منبوذ عند أهل الملل »[٢٠] .

ولم يكن القول بعجمة لفظ من ألفاظ العربية عند الاقدمين ، مبنيا على البحث والدرس أو قل ان القائلين بهذا ، على علم بلغات غير عربية من لغات الاعاجم ، وانما كانت أقوالهـم مبنية على الظن والتوهم . وعندهم ان كل كلمة لم يشتهر فيها استعمال جاهلي دخيلة ، واذا كانت دخيلة فهي أن تكون عند أحدهم فارسية ، وعند آخر عبرانية أو سريانية أو حبشية ، ولم يهتدوا الى أن بين العربية والعبرانية والسريانية والحبشية ولغات اخرى علاقات تاريخية وقرابات لغوية مردها الاصول السامية الاولى التى دل عليها البحث الحديث . وربما عزوا كلمـات دخيلة الى العربيـة وأخضعوهـا لقوانين الاشتقاق فى العربية كما سنرى .

فكلمة « تسنيم » فى قوله تعـالى : « ومزاجـه من تسنيم »[٢١] عند الاقدمين من ألفاظ القرآن وهى من الـكلمات العربية المعروفة فى لسان العرب ، ولـكنها فى لغة القرآن دلت على معنى لم يعرفه العرب ، وقد زعموا

(١٩) أبو حاتم ، الزينة ١/١٩ .
(٢٠) أبو حاتم الزينة ١/٦٠ ــ ٣٦ .
(٢١) سورة المطففين ٢٧ .

ان « التسنيم عين في الجنة » . وقال الزجاج النحوي في قوله تعالى : « ومزاجه من تسنيم » أي مزاجه من ماء متسنم ، عينا تأتيهم من علو »[٢٢] . واعتبر المستشرق « نولدكه » ان « التسنيم » من الكلمات التي جاء بها القرآن ، لعدم وجود أصل لها في الشعر الجهلي ولا في اللغات السامية القديمة[٢٣] . فالزجاج النحوي أخضع هذه الكلمة لقوانين الاشتقاق في العربية ، فاشتق منها فعلا وكأنها من مألوف العربية وهذه من قدرتهم أو قل قدرة العربية على التوليد .

وكلمة « سجين » في قوله تعالى : « كلا ان كتاب الفجار لفي سجين »[٢٤] عند اللغويين العرب على وزن « فعيل » من السجين ، والسجين الصلب الشديد من كل شيء . وقد قالوا : واد في جهنم[٢٥] . وقد ذكر السيوطي في الاتقان[٢٦] انه غير عربي ، نقلا عن « كتاب الزينة » على ان أبا حاتم في « الزينة » جعله من الالفاظ التي استعملها القرآن استعمالا لم يعرفه العرب في جاهليتهم . وهو من ألفاظ القرآن .

وقد ذكروا « للرقيم » في قوله تعالى : « أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا »[٢٧] مدلولات عديدة لا تقوم الا على الظن والتوهم والوضع . قال الزجاجي في الامالي : « اعلم ان في الرقيم خمسة أقوال : أحدها هذا الذي روى عن ابن عباس (رحمه الله) انه لوح كتب فيه اسماؤهم . والآخر ان الرقيم هو الدواة ، ويروى ذلك عن « مجاهد » . وقال هو بلغة الروم . والثالث ان الرقيم القرية . والرابع ان الرقيم الوادي . والخامس ما روى عن الضحاك وقتادة انهما قالا الرقيم

---

(٢٢) اللسان مادة « سنم » .

(٢٣)
Th. Nöeldeke, Noue Beitraege Zur Semitischen Sprachuissenschaft. Strassburg 1910.

(٢٤) سورة المطففين ٧ .

(٢٥) اللسان مادة « سجن » .

(٢٦) السيوطي ، الاتقان ١٣٩/١ .

(٢٧) سورة الكهف ٩ .

الكتاب »[٢٨] والى هذا ذهب أهل اللغة . ومادة « رقيم » من الالفاظ السامية التى وجدت فى كثير من اللغات السامية[٢٩] .

وللقرآن استعمالات خاصة لالفاظ عربية استغربها الاقدمون ، وحاروا فيها فلم يفهم ابن عباس الصحابى المشهور معنى « الحنان » فى قوله تعالى : « وحنانا من لدنا »[٣٠] روى عكرمة انه قال : والله ما ادرى مالحنان[٣١] .

وقد جاء فى القرآن ألفاظ لها أصول سامية وجدت فى أغلب اللغات السامية ولكن الاقدمين وقفوا منها وقفة الجاهل بالاصول ، فقالوا أقوالا لم تبن على علم ثابت . ومن هذه كلمة « الطور » فى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء »[٣٢] وفى قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور »[٣٣] ، فقد ذكر الجواليقى فى (المعرّب) : « قال ابن قتيبة : الطور الجبل بالسريانية »[٣٤] . وقال الفراء : « وهو الجبل الذى بمدين الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام تكليما »[٣٥] . وقال ياقوت : قال بعض أهل اللغة : لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ، ولا يقال للاجرد طور . ويقال لجميع بلاد الشام « الطور » . وبلسان النبط كل جبل يقال له طور فاذا كان عليه نبت وشجر ، طيل طور سيناء[٣٦] . وقد استعملت الكلمة فى « سفر الخروج » بمعنى طبقة من الحجارة[٣٧] . أما فى سفر دانيال فقد جاءت بمعنى الجبل فى السريانية « طور رب »[٣٨] ، أى جبل

---

(٢٨) الزجاجى ، الامالى ٥ .

(٢٩) Gesenius, Hebrew and English Lexicon.

(٣٠) سورة مريم ١٢ .

(٣١) ابو حاتم ، الزينة ١/١٣٥ .

(٣٢) سورة « المؤمنون » ٢٣ .

(٣٣) سورة الطور ٥٢ .

(٣٤) الجواليقى ، المعرب ٢٢١ .

(٣٥) اللسان ماده طور .

(٣٦) ياقوت ، معجم البلدان « طور » .

(٣٧) سفر الخروج ١٧/٢٨ .

(٣٨) سفر دانيال ٢٥/٢ .

عظيم • والكلمة آرامية ، اى بمجيئها بحرف الطاء ، لان المشهور ان « الطاء » فى الآرامية تقابل « الظاء » فى العربية وكان حقها أن تكون « ظور » كما تقول « نظر » فى العربية وهو فى السريانية « نطر » •

وقد خبطوا أيضا فى لفظ « اليم » فهى سريانية معربة(٣٩) ، كما يذكر صاحب « المعرّب » • وما فطنوا الى أن الكلمة سامية الاصل وجدت فى أغلب اللغات السامية • ولم يستطيعوا أن يلمحوا ثروة العربية وغناها حين جاءت بالفعل من هذه المادة بعد ابدال الياء جيما وهو (جم)(٤٠) للدلالة على الكثرة مطلقا •

ومن أمثلة هذه المواد السامية « الربّانيون ، والربّيون » وقد قالوا فيهما ما قالوا فى الامثلة التى سقناها • فقد ظن أبو عبيدة ان الربانيين غير عربية وانما هى عبرانية أو سريانية وجزم القاسم بن سلام بسريانيتها(٤١) •

وقد وجد فى العربية مواد دخيلة من اصول غير سامية ، ولكن العربية طبعتها بطابعها واستعملتها استعمالات كثيرة ، وربما عدها جماعة من الاقدمين عربية فى الاصل ، فأخرجوا منها اشتقاقات تشير الى عروبيتها • ومن هذه كلمة « الصراط » فى قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم »(٤٢) فقد قالوا انها رومية ، وحملوا عليها القسطاس والفردوس(٤٣) • والحقيقة ان « الصراط » من Strate اللاتينية ولعلها انتقلت الى العربية عن الآراميين الذين أخذوها من اليونانية شأن غيرها من الالفاظ(٤٤) • وقد توسعت العربية فى هذه المادة على رأى بعض الاقدمين ، فأشاروا الى العلاقة بين الصراط أو السراط (بالسين)(٤٥) وسرط ، فالطريق سمى سراطا لانه يسرط

---

(٣٩) الجواليقى ، المعرب ٢٥٥ •
(٤٠) انظر مادة « جم » فى تاج العروس للزبيدى •
(٤١) السيوطى ، الاتقان ١/١٣٩ •
(٤٢) سورة الفاتحة ٥ •
(٤٣) أبو حاتم ، الزينة ٢/٢١٥ •
(٤٤) برجشتراسر ، التطور النحوى ١٥٤ •
(٤٥) جاء فى كتاب الزينة ٢/٢١٦ قال أبو عبيد : فى الصراط ثلاث لغات : صراط وسراط وزراط •

السابلة اذا سلكوه[٤٦] ، وقد استعمل الصراط في العصور الاسلامية بمعنى الطريق مطلقا كما في قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط اذا اعوج الموارد مستقيم

ومثل الصراط ، القسطاس والفردوس وابليس والجن والبرج ، فهي ألفاظ دخيلة استعملتها العربية وأخذت منها مواد كثيرة • ومن جهل الاقدمين بالاصول اعتبارهم مادة « عدن » عربية في قولهم « جنة عدن » ، أو في استعمال القرآن : « وجنات عدن »[٤٧] • قال الاصمعي : تقول العرب : عدنت الابل بمكان كذا وكذا اذا ألفته ولزمته • ومنه قيل لمعدن الذهب والفضة : معدن لانه يثبت فيه[٤٨] • وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : « جنات عدن » أي خلد ، يقال عَدَن فلان بمكان كذا وكذا أي أقام[٤٩] •

وما عرف الاقدمون ان الكلمة وجدت في العبرية[٥٠] وفي غير العبرية من اللغات السامية ، وقد جاءت الكلمة في سفر التكوين من العهد القديم في هذا النص : « وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقا ، ووضع هناك آدم الذي جبله ، فكان عدن »[٥١] •

وقد أضاف الاسلام للعربية مادة جديدة اصطلاحية تؤدي معاني جاء بها الاسلام • وجل هذه الالفاظ كلمات عربية اعطيت معاني جديدة والى هذا ذهب أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتابه « الزينة » فهو بحث في الكلمات الاسلامية •

وقد أضافت العصور الاسلامية المتعاقبة مادة كثيرة في ميدان المصطلح الفني معتمدين حينا على الاصول العربية وآخذين بمبدأ التعريب حينا آخر ، وربما توسعوا فأخذوا الكلمة الدخيلة مجرين عليها الطابع العربي •

---

(٤٦) الزمخشري ، الكشاف ١/١٥ ، وانظر اللسان مادة « سرط » •
(٤٧) سورة التوبة ٩٣ •
(٤٨) أبو حاتم ، الزينة ٢/٢٠٠ •
(٤٩) أبو عبيدة ، المجاز ١/٢٠١ •
(٥٠) انظر مادة عدن في Gesenius. Hebrew and English Lexicon.
(٥١) سفر التكوين ٢/٨ – ٩ •

ولما جاء العصر الحديث وجدت العربية نفسها فقيرة متخلفة لتخلف أهلها في ميدان الثقافة والمعرفة ، ومن أجل هذا زخرت لغة اليوم بالاصطلاحات الجديدة التي دخلت في العربية بواسطة الترجمة عن اللغات الاوربية ، فقولهم مثلا :

هو يمثل الرأي العام تجده في الفرنسية في قولهم :

Il represente l'opinion Publique.

وهو في الانكليزية He represents Public opinion.

وقولهم يذر الرماد في العيون ، نجده في الفرنسية في :

Il jette de la Poudre aux yeux.

وهو في الانكليزية في قولهم : To throw dust in the eye.

ونستطيع أن نحصي من هذه الاستعمالات عددا وافرا تزخر به لغة الصحف في أيامنا هذه .

وقد كثر التوليد في العربية ، وأقصد بالمولد ما اخترع من الالفاظ لغرض من الاغراض ، ومن أمثلة هذا ما جاء في شعر الصعاليك من الغريب مما أشار الى اصطناعه علماء العربية الاقدمين ، فقد شعر بذلك رواة شعر الصعاليك ، وفطن اللغويون الى أن في شعر هؤلاء ، الفاظا لا يعرفونها ولا يعرفها عامة العرب ، وقد قالوا بأنها لم ترد الا في هذه المواطن .

فالاصمعي لم يعرف « سحاليل » في قول الاعلم يصف جراء الضباع :

سود سحاليل كأن جلودهن ثياب راهب[٥٢]

والمتعقب لاشعارهم يجد طائفة من الالفاظ الغريبة التي لا توجد في مكان آخر .

قال تأبط شرا :

وحثحثت مشعوف النجاء كأنني
هجف رأى قصرا سمالا وداجنا

---

(٥٢) أنظر مادة « سحل » في اللسان . وديوان الهذليين القسم الثاني ٨٠ .

من الحص هزروف كأن عفاءه
اذا استدرج الفيفاء مدّ المغابنا
أزج زلوج هذرفيّ زفازف
هزفّ يبذ الناجيات الصوافنا(٥٣)

والشاعر الصعلوك قد يأتى بالكلام السهل المألوف ولكنه يدخل فى بعضه هذه المادة الغريبة فتطبعه بطابع خاص ، ومن هذا قول الشنفرى :

ولي دونكم أهلون سيد عملّس
وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الاهل لا مستودع السر ذائع
لديهم ولا الجاني بماجر يخذل(٥٤)

فانت ترى السهولة والخفة فى البيت الثانى والغرابة والخشونة فى البيت الاول . وقد اعتمد اصحاب المعجمات على شعر الصعاليك فى تكوين مادتهم اللغوية لكثرة الغريب(٥٥) .

ولعل خير « القبعض » من المصطنع اللغوى عند اولئك المتندرين الذين قطعوا البيت :

أبا منذر افنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فسألوا المبرد النحوى الشهير : ما القبعض ؟ فقال : القطن ، وأنشد :

كأن سنامها حشى القبعضا

وهو من تقطيعهم البيت الى تفاعيله ، فهناك تفعيلة « ق بعضنا » التى أجاب عنها المبرد بالقطن(٥٦) .

وربما كان الخبر موضوعا ، وهذا أمر لا يعنينا ، انما الذى يعنينا هو انه يدل على ان شيئا من هذا قد وقع بحيث صارت العربية غنية بالالفاظ

(٥٣) أبو الفرج ، الاغانى ١٨/٢١٣ .
(٥٤) القالى ، النوادر ٢٦٠ .
(٥٥) يوسف خليف ، شعراء الصعاليك ٣١١ .
(٥٦) ابن الانبارى ، نزهة الالباء ١٥٠ .

الموضوعة لمعنى واحد ، ومن هنا نشأت مشكلة الترادف فى العربية • وهى فى حقيقتهـا لا تعدو أن تكون أثرا من آثار الاصطناع وتوليد المعـانى على هـذه الطريقة •

ولقد جـاء فى أخبـار محمد بن عبدالواحد بن ابى هاشم ابى عمر الزاهـد المعروف بغـلام ثعلب ، انه يولد الالفـاظ على طريقـة الاصطناع والوضع ، فقد قصده جماعة للاخذ عنه ، فتذاكروا فى طريقهم عند قنطرة هناك ، اكثاره وكذبه فقال أحدهم : أصحف له اسم هذه القنطرة واسأل عنه ، فانظروا ما يجيب ؟ فلما دخلوا عليه قال له : أيها الشيخ ما « الهرطنق » عند العرب ؟ فقال : كذا وكذا فضحكوا وانصرفوا[٥٧] •

وهـذا الخبر وكثير على شـاكلته ، يشير الى ان الرواة وعلمـاء اللغة أضافوا كثيرا من الالفاظ ولاسيما الغريب منها ، ودخل ما أضافوه فى اللغة والاستعمال • وهذا لون من ألوان التوليد ، وهو اختراع محض •

---

(٥٧) القفطى ، انباه الرواة ٣/١٢٧ •

المقارنات في الأدب واللغة والنحو

كان من نتائج الطريقة العلمية وتطبيقها فى ميدان الادب واللغة والنحو وغير ذلك من ألوان المعرفة أن ظهرت بحوث المقارنات[١] . ولقد آثرنا هذه

---

(١) ظهرت كلمة « المقارن » فى الثقافة العربية وأصفة الادب والنحو وغير ذلك من العلوم ، فقيل : الادب المقارن والدراسات اللغوية المقارنة والنحو المقارن ، فقام فى وجه هذه المسميات اللغويون المتضلعون من العربية والغيارى على حمايتها ورعايتها ، فقال قائل منهم : ان هذه التسمية مغلوطة خاطئة والصحيح أن يقال : الادب الموازن حملا على ما وردنا من مسميات فى الادب العربى ، ومن ذلك كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » للآمدى وكل الكتب التى تبدو فيها الموازنات مثل كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » للجرجانى . ولفظ الموازنة واستعماله فى هذه الكتب صحيح مصيب للهدف ، ذلك بان هناك طرفين تعقد بينهما الموازنة لبيان ما قال أحدهما فى موضوع من المواضيع وما قال الآخر فى الموضوع نفسه واظهار مقدار ما جود كل منهما فى هذا الموضوع وما أخذه الاول عن الثانى وما قصر فيه أحدهما عن الآخر . ومثل هذا ما يعرض له الباحثون والنقاد على هذا النحو فى قصيدة كل من البحترى والشريف الرضى فى وصف الذئب فيعقدون الموازنة بين هاتين القصيدتين ، كما يعقدون الموازنة بين واحدة من هاتين القصيدتين وقصيدة الفرزدق فى الموضوع نفسه دون أن يهتموا فى كل ذلك بالفارق الزمنى بين البحترى والشريف الرضى من جهة وبين واحد من هذين والفرزدق من جهة أخرى ، وتأثير عامل الزمن وما يؤدى اليه من تبديل وتغيير نتيجة للتطور التأريخى . ولقد جروا على هذا الفهم لدراسة الموازنة أسوة للغربيين فى دراسات المقارنة فعقدوا الموازنة بين قصيدة البحترى في وصف بركة المتوكل فى سر من رأى (سامرا) وقصيدة لامرتين Lamertin فى وصف البحيرة ''Ie Iac'' . والموازنة فى هذا الموضوع غير صحيحة ولا يجوز أن تعقد فليست هناك أية علاقة بين البحيرة والبركة من جهة ، وليس هنا أيضا أية صلة بين Lamertin والبحترى تأثر لامرتين فيها بالبحترى . فالادب المقارن فى اصطلاح هؤلاء الباحثين هو الموازنات المعروفة فى كتب النقد والادب العربية . ومن أجل هذا قالوا (المقارن) غير صحيح اعتمادا على أن المقارنة فى معاجم اللغة تعنى المصاحبة ، جاء فى لسان العرب فى مادة (قارن) « قارن الشيء بالشيء مقارنة وقرانا اقترن به وصاحبه » فالمقارن على هذا هو المصاحب . وهذا المدلول لا يتفق هو والموازنة المعروفة فى كتب اللغة والادب ، ومن أجل هذا أيضا قالوا : والصحيح أن يقال الادب الموازن وفقا للموازنة المعروفة ، فقد ذكر صاحب « القاموس المحيط » فى مادة (وزن) « وازنه بمعنى عادله وقابله وحاذاه » . وسنبين فى هذا المقال ان المقارن أنسب وأوفى لاتفاقها فى طبيعة وطريقة الموضوع .

التسمية على غيرها مما شاع حين عرفت هذه البحوث فى العربية لانها أسد معنى وأوفى غرضا • ولم تكن هذه الدراسات ثمرة من ثمار الفكر العربى ، فلقد عرفت أول ما عرفت فى الدراسات التى قام بهـا علماء الغرب نتيجة اختصاصهم وتعمقهم فى العلم •

وقد جعلت الكلام على المقارنة فى الادب الجانب الاول فى هذا المقال لاهميته للقارىء العربى ، ولان طالب الادب سمع به ورغب فى دراسته فلم تسعفه الوسائل الى تحصيله جهلا بحقيقته وبعدا عن ميدانه ، وما زال نفر كبير من الباحثين فى الموضوع بعيدين عن جادته فى العربية • وسأجتهد فى هذه المقالة لانير السبيل لتفهم هذا اللون من الدراسات الادبية التى لم تزل غامضة والتى لابد منها لدراسة الادب واللغة والنحو •

دخلت كلمة « المقارن » واصفة الادب فى اللغة العربيـة كمـا دخل غيرها مما استحدث فى هذا العصر عن طريق الترجمة ، فالادب المقارن يقابل فى الانكليزية Compartive Literature وفى الفرنسية "Littératur Comparée" • والمقارنات فى الادب من البحوث التى ظهرت فى النصف الاول من القرن التاسع عشر • وأول من كتب فى الموضوع M. H. Posnett الانكليزى سنة ١٨٨٦ ، فكتابه Compartive literature يعـد البداية الاولى للدراسـات المقارنة • وفى السـنة نفسـها بدأ العـالم السويسرى Edouard Rod دروسه فى جنيف عن التاريخ المقارن للآداب ، وفى المانيا أصـدر Max koch الالمـانى مجلـة الادب المقـارن Reveue de littérature Comparée عام ١٨٨٧ • ولقد طلع الادب المقارن حين أخذت الناس الحركة الرومانتيكية ودراسة الآداب العالمية التى اضطرتهم الى استخدام الطريقة التاريخية والمقارنات التى لم تقتصر على الادب وانما تعدته الى غـير ذلك من أبواب العـلم كالقانون واللغـات "Languistique" ودراسة الاساطير Mythologie .

وفى عـام ١٨٩٥ ناقش Joseph Texte رسـالته عن « جان جاك روسو والاصول العالمية الادبية » وكان هذا الكتاب أول دراسة مهمة وعلمية

فى موضوع المقارنات[٢] • ومنذ عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٠٤ تعاقبت نشرات عديدة للمصادر والاصول والمراجع فى الموضوع ، هذه النشرات التى عنى بهـا كل من Baldensperger et Betz وقد اهتم الاخير كثيرا بموضوع الادب المقارن ووقف عليـه وحـده بحثه ودراسـاته ، فلقد جمع الاصول والمظان فى الموضوع وصنفهـا وعلق عليهـا ، هـذا غير تآليفه العديدة فى الموضوع نفسه • وقد أسس فى ١٩٢١ مع العالم Paul Hazard مجلة الادب المقارن الفرنسية Reveue de littérature Comparée Frncaise •

وعلى هذا فيمكننا أن نقول ان الادب المقارن نشأ وازدهر فى القرن العشرين بعد أن كانت بداياته فى أواخر القرن التاسع عشر فى انكلترا كما بينا •

يعنى الادب المقارن تاريخ الروابط الادبية العالميـة ، ومن أجل ذلك فالباحث فى هذا الموضوع يبقى فى حيز اللغات والحدود الجغرافية ويلحظ ويراقب تبادل المواضيع والافكار والكتب والعواطف اما بين أدبين ، واما بين آداب عـدة • ومن أجـل ذلك ايضـا فطريقته ينبغى أن تنسجم مع تنوع واختـلاف بحثه[٣] • ولابد أن يتزود الباحث فى هـذا الموضوع بوسائله وأسبابه الضرورية التى سنأتى عليها فيما يلى من السطور :

يلزمه أن يكون مؤرخا عالمـا بالتاريخ وبالطريقة العلمية التاريخيـة ، ولاسيما التاريخ الادبى لعـدة أمم • لانـه لا يسـتطيع أن يبحث الموضوع الادبى ان لم يكن مزودا بالثقافة التاريخية الخالصة التى رافقت تلك الحادثة الادبية أو ذلك اللون الادبى • وعلى سبيل المثال لا سبيل الى معرفة الادباء الفلاسفة المسلمين ان لم يكن الباحث مزودا بثقافة تاريخية كافية حول عصر هؤلاء الادباء الفلاسـفة وبمعرفة كافيـة وافيـة عن الثقافات الاجنبيـة غير الاسلامية التى صاحبت عصرهم •

---

(٢) انظر
M. F. Guyard, La littérature comparée, P. 10, Paris 1951
وقد ترجم هذا الـكتاب الى العربية منذ سنين •

(٣) Paul van Teighem, La littérature Comparée.

ومما يلزمه ايضا أن يكون ملما الماما كافيـا بالعلم عن الآداب في أمم اخرى غير تلك التى ينسب اليها •

وينبغى لمن يقوم بالمقارنات فى الادب أن يكون قادرا على القراءة لادب من الآداب فى لغته الخاصة ، وهذا يعنى ان من يريد معرفة تأثير الشـاعر (جيته) Goethe الالمانى[٤] فى الادباء الرومانتيكيين ، لابد لـه أن يقرأ الشاعر الالمانى فى اللغة الالمانية وليس له أن يلجأ الى المترجم من أدبه وذلك ليتمكن من معرفة انتقال التأثير • وعلى هذا فيلزمه المعرفة بلغات عدة ليقرأ بها ايضا البحوث الاجنبية اللازمة لبحثه واختصاصه •

ثم هو عنـدئذ يلزمـه معرفة مصـادر الموضوع واصوله وكيف ينظم الجمهرة الكبيرة لهذه المصادر والاصول والافادة منها • ومن هذه المصادر والاصول كتب تاريخ الادب ، والـكتب التى تعنى بجمع وتصنيف مصـادر بحث الادب المقارن •

وعلى هذا فالكتب من العوامل المهمة التى يهتم بها المتصدى للمقارنات ليعرف مدى تأثيرها فى القارىء الاجنبى ، وما تؤثر هذه فى أدبه • وما دمنا بصدد التعرض للكتب فلابد لنا أن نقرر ان المترجم من الكتب عن لغة أجنبية ايضا يقوم بنقل الثقافات والتيارات من امة الى امـة اخرى • وهـذا الادب المترجم يؤثر هو ايضا فى أدب أية امة من الامم • ولقد تأثر ادباء اوربيون بالآداب الشرقية دون أن يقرءوا تلك الآداب فى لغاتهـا ، بل انهم قرأوها مترجمة الى لغاتهم فتأثروا بها وأفادوا منها وانتقل هذا التأثير الى آدابهم • فان تصدى الباحث فى المقارنات الادبية لدراسة هذه الآثار الدخيلة فى أدب من الآداب كان بحثه عندئذ بحثا مقارنا وهذا هو الادب المقارن •

وعلى هذا أيضا فالرحلات والاسفار التى يقوم بها أصحابها ويسجلونها فى كتبهم عامل مهـم عن عوامل الادب المقـارن • اذ أن كتب الرحلات والاسفار تقوم هى ايضا بنقل ثقافات الامم الاخرى •

---

(٤) M. F. Guyard, 13.

لم يزل البحث فى المقارنات جديدا فى العربية ومن أجل هذا فهو غير واضح لدى القارىء العربى وربما وقع بسببه فى الوهم حول ما تؤديه لفظة المقارنة • ولقد عرضنا فى اول هذا البحث عن مجال الخطأ وميدانه مع ان كتاب الادب المقارن La littérature comparée للمؤلف الفرنسى Paul Van Teighem قد نقل الى العربية منذ زمان بعيد • وهذا الكتاب من الكتب التى يستفيد منها عدد كبير من الناس فيهم الباحث فى تاريخ الآداب وطالب الاداب والمتأدب الذى يرغب فى التزود بالثقافات الجديدة الوافدة •

فاذا أخذنا على سبيل المثال موضوع القصة القديمة فى الادب العربى فلابد لنا أن نمر على السفر الممتع وهو (ألف ليلة وليلة) • ودراسة هذا الكتاب يلزمنا معرفة أصوله ومصادره ، وهنا فلابد من الخوض فى هذا الموضوع الشائك السبيل وهو الاصول غير العربية لهذا الكتاب لنستطيع تحديد مكانة الكتاب وفى ذلك مكانة القصة القديمة العربية فى الادب العربى • وهذا البحث بهذه الطريقة وهذه النظرة من البحوث الادبية المقارنة •

ولقد عرفنا فيما عرفنا ان هذا الكتاب ظل متعة فكرية وزادا محببا للكتاب الاوربيين أجيالا طويلة فنقلوه الى لغاتهم الكثيرة منذ عهود وأزمان طويلة ، فلقد أثر عن Voltaire الاديب الكبير الفرنسى انه قرأ هذا الكتاب واستمتع به بضع عشرة مرة من قبل أن يتصدى للكتابة • وعلى هذا فمن عرض لهذا البحث فى الآداب الاوربية الاخرى ، فبحثه والحالة هذه من البحوث المقارنة •

ولو تيسر لنا أن نبحث فى موضوع الاساطير فى الادب العربى La mythologie arabe واقتضى البحث فى هذا الموضوع النظر فى اصوله ومصادره ومقدار الآثار الاجنبية فى هذه الأساطير وكيف تم هذا التأثر ، كان البحث على النهج المقارن •

هى الجانب الآخر من هــذه المقــالة والذى هو كسابقه جديد فى العربية وفائدته جليلة عظيمة • ولفهم العربية الفهم الصحيح وحل كثير من غامضها ، ينبغى أن يستفيد هذا الحل من المقارنات بغيرها من اللغات التى تكون مع العربية مجموعة أو أسرة لها صفاتها المعينة التى تميزهــا عن غيرهــا من المجاميع اللغوية •

وقبــل أن نهتدى لصلب الموضوع لابد من استجلاء طريقة المقارنة وتبين معالمها لنسير على نهجها ونأمن العثار والخلط فى الموضوع •

هناك طريقتان مختلفتان لتطبيق المقارنة في اللغة والنحو ، فالاولى تنص على ان المقارنة تؤدى الى قوانين عامة تضبط المواد التى تتعرض لها المقارنة •

والثانية تؤدى الى بيان ملاحظات وتنبيهات تاريخية • وهاتان الطريقتان تختلفان الواحدة عن الاخرى اختــلافا عامــا شاملا ، وان كانت كل منهما مقبولة صحيحة(٥) •

فالاقاصيص على ألسنة الحيوانات موجودة عند كل امــة من الامم • ولعل الشبه بين الانسان والحيوان هو الذى يسر للانسان أن يعير الحيوان هذه الاقاصيص فيقول على لسانه ليعبر عن فكرة أو يصرح بشىء لا يستطيع التصريح به بصورة مباشرة • وفى هذه الاقاصيص يستطيع الباحث أن يقارن بينها ليتبين طريقتها وشكلها وطابعها ثم يخلص من كل ذلك الى نظرية عامة فى هذا النوع من الاقاصيص • وتبدو المشابهات بينهــا للباحث من الوحدة العامة فى الفكر الانسانى والاختلاف فى التطور الحضــارى ، وتؤدى الى فهم الباحث للميزات العامــة للنوع الانســانى ، ولكنهــا لا تفيده كثيرا فى العلم بتاريخه •

---

(٥) انظر
A. Meillet, La methode Compartive en linguislique historique, Paris.

واذا كان المعنى الذى تعرب عنه كلمة من الكلمات مرتبطا ارتباطا طبيعيا بالصوت الذى يشير اليه ، سواء كان هذا الارتباط قويا أم ضعيفا ، (ومعنى هذا ان الكلمة تثير فكرة من الافكار) ، فالمقارنة بشكلها العام هى السبيل الوحيد الذى يستطيع استعماله اللغوى ، ذلك بأن اللجوء الى اللغات الاخرى غير ممكن ، هذا اذا لم نبتعد عن حيز الكلمة الحقيقى المادى المجرد وعما تمليه عليها العادات والتقاليد التى تجر الى التوسع فى المعنى والاستعمال .

والمفردة اللغوية فى حقيقتها ودلالتها لما وضعت اليه ، شيء اصطلاحى ، أو قل شيء اعتباطى . وما القيمة اللغوية الا مسببة عما ألف الناس أن يعطوها من دلالة . وعلى هذا فان مايقال عن الصلة الوثيقة بين اللفظ والمعنى وان الاول هو حكاية يتأدى فيها ذلك المعنى غير مقبول على الدوام ، لان حكاية الصوت حد واسع المعنى لم يقيده ضابط بصدق فى جميع الاحوال . فلو أخذنا مادة « القطع » فى اللغة نجد ان هذا المعنى يعبر عنه بكلمات تتكون فى الغالب من حرفى القاف والطاء أو القاف والصاد ، وما الحرف الثالث الا تكملة فهو اما صدر ''Préfixe'' واما كسع ''Suffixe'' واما مقحم اقحاما وسط الكلمة ''Infixe'' . غير اننا نجد من ناحية اخرى ان هذا المعنى « القطع » يؤدى ايضا بحروف اخرى كثيرة عديدة لا سبيل الى أن نأتى على حصرها وضبطها . ومعنى هذا ان حكاية الصوت لا تؤدى بحروف معينة وان المعنى على هذا لم يوضع توقيفا أو اصطلاحا ومن أجل هذا فاللفظة التى تعرب عن « الوحدة » فى العربية وهى « واحد » أو « أحد » أو « أول » وكذلك اللفظة التى تدل على فكرة « الازدواج » وهى « اثنان » وغير ذلك من أسماء العدد ، أقول : ان هذه الالفاظ لا تملك أية صلة بفكرة الوحدة أو فكرة الازدواج ، وما المعنى الذى تسوق اليه الا شيء اصطلاحى ألفه الناس منذ كانوا ، وعلى هذا فالاستعمال حد مهم وضابط جامع مانع لا يستطيع اللغوى أن يتخطاه ويضرب فى الاوهام التى لا تسعفه ولا يفيد منها .

ونريد ان نخلص الى ان الصفة الاعتباطية لدلالة اللفظ على مؤداه من المعنى خير وسيلة لتطبيق الطريقة المقارنة التاريخية فى اللغات .

ولعلنا نفيد فائدة عظيمة فى فهم « العربية » اذا اتبعنا هذه الطريقة المقارنة التاريخية وذلك بدراستها بالنظر الى غيرها من اللغات التى تضمها المجموعة السامية للغات ، وبهذه الطريقة نستطيع فهم كثير مما استغلق على علماء العربية الاوائل وما وقعوا فيه من أوهام . أقول الاوائل لان لغتنا ما زالت تدرس على النهج الذى سنه هؤلاء العلماء من لغويين ونحاة ، وما زلنا نعول عليهم فى دراساتنا الحديثة . فالكتاب الحديث الذى يضطلع به مؤلفه فيسجل آراءه فى فقه اللغة لا يختلف كثيرا عن كتب فقه اللغة العربية مثل كتاب فقه اللغة للثعالبى ، وكذلك لا يختلف عن الكتب الكثيرة التى وصلت الينا ومؤداها التنبيه على اغلاط الكتاب من أيام ابن قتيبة الى أيامنا هذه . وكذلك الامر فى مادة النحو ، فقد ظلت عبر القرون راكدة جامدة فلم يفكر فى جوهرها ، ولم يفكر فى طريقة عرضها ، وما زلنا نتقبل مادة النحو وفق المدرسة البصرية دون أن نرى حاجة الى تغييرها أو اصلاحها على الاقل ، اذن فاللغة العربية ظلت متوقفة لا تخضع للتطور فهى هى كما قيدتها لنا المراجع والاسانيد .

ومن أجل هذا فالعلم بالساميات وسيلة مفيدة لفهم العربية ، ولا يمكن فهم الصفات التى تميز العربية عن غيرها من اللغات الا بالرجوع الى تلك اللغات التى تتصل بالعربية اتصال النسب .

فالعربية مثلا كغيرها من اللغات السامية تتصف بما يأتى :

انها تعتمد على الحروف الصامتة لاداء المعنى وهى تستخدم الحركات للتفرقة بين المعانى المتكافئة .

٢ ــ تمتاز بالحروف الحلقية .

٣ ـ معظم اصولها ثلاثية[٦] .

٤ ـ تمتاز بندرة الالفاظ المركبة .

٥ ـ تمتاز بندرة الازمنة المختلفة التى يدل عليها الفعل . وهذه الميزة ظاهرة واضحة ، فالفعل وارتباطه بالزمن فى هذه اللغات قاصر عن أن يحيط بالاحداث المختلفة التى يدل عليها الفعل فى قسم من اللغات الهندية الاوربية .

ودراسة أى موضوع من العربية فى ضوء هـذه الطريقة تثبت لنا ان معرفة تاريخ لغة من اللغات غير ممكنة ان درست وهى منعزلة عن غيرها من اللغات التى تقرب منها ، وان تاريخ لغة لا صلة لها بغيرها أو قل لا تعرف فيها هذه الصلة ، غير ممكن درسه لنعرف المراحل التى مرت بها تلك اللغة .

ونريد الآن أن نتبين فائدة هذه الطريقة وذلك بالتعرض لدراسة بعض والسريانية :

فالمشابهة التى نجدها لم تأت عبثا ، ولم تأت مصادفة ، وانما هناك وجوه من الشبه تثبت ان هذه اللغات يضمها اطار واحد . وهـذا يفيد فى درس المفردات من حيث طريقة نطق الاصوات Phonétique . ومن الامـور

(٦) أقول « معظم » لان القول بالاصل الثنائى ثابت ومقبول . وقد لمح الاوائل أيضا الثنائية فى الاصول وكذلك الدراسات الحديثة اللغوية التى قام بها المستشرقون ، على اننا لا ننسى هذه الدعوى بالثنائية والتى نادى بها الاب أ٠س مرمرجى الدومنيكى فى كتيب صغير سماه « هل العربية منطقية » مطبعة المرسلين اللبنانيين ـ جونيه (لبنان) ١٩٤٧ ويذهب الاب فى اثبات هذه النظرية باللجوء الى اللغات السامية . وقد عالج فى هذه الدراسات مواد عربية معينة استطاع ان يثبت الثنائية بجلاء فى قسم كبير منها ، ولـكنه لم يكن موفقاً فى القسم الباقى وذلك لان الخوض فى هذا الباب صعب لان هذه اللغة بعيدة العهد وان الـكلمة مرت بمراحل طويلة الامد اكسبتها أشياء جديدة فغيرت معانيها وبذلك انقطعت عن اصولها ، ومن أجل هذا فلمح الاصل ليس من الامور الهينة اليسيرة . ومن أجل هذا أيضا كانت الحاجة شديدة الى معجم تاريخى تؤرخ فيه الـكلمات وفق استعمالها خلال العصور المختلفة . وبذلك نحصل من كل كلمة على صورة صادقة صحيحة للتطور والحياة التى تحياها المفردات .

التى تسترعى النظر ، ان لاسماء العدد فى هذه اللغات صيغة للمذكر واخرى للمؤنث .

والباحث فى المفردات العربية وتاريخها لابد له من اتباع هذه الطريقة والا فانه واقع فيما وقع فيه اللغويون أصحاب المعجمات العربية . فهم لا يميزون فى مادة (ر ج م) بين ألفاظها ، ومن اجل هذا يحشرون رجم وترجم فى مكان واحد . والذى يعرفه المتطلع فى الساميات الى ان الثانية جاءت من (ترجوم)(٧) (Targum) وهذه تعنى فى العبرية الشروح والحواشى فى أسفار العهد القديم باللغة الآرامية وفق العبرية فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى حلت فيه الآرامية محل العبرية . ونقلت الكلمة للعربية فاكتسب معنى النقل من لغة الى لغة اخرى . وبهذا فحشرها فى مادة (رجم) العربية من باب الجهل بالاصول والسهولة المخلة ، ولو ان اصحاب المعجمات عرفوا اللغات السامية الاخرى لافادوا ولوجدوا لهم مخرجا وقربوا بين هذا الفعل الدخيل وبين مادة (رقم) التى تقرب منها فى المعنى والتى تشير الى الكلمات المرقومة .

ومن أمثلة ذلك الكلام حول (تلميذ) فأصحاب المعجمات جهلا منهم بالاصول السامية يكتفون بالمعنى الذى اكتسبته الكلمة فى الاستعمال عبر العصور وكان الاولى أن يقربوا بينها وبين (تلميد) العبرية المأخوذة من المصدر (تلمود) الذى يعنى تعليم وتفعول فى العبرية يقابل تفعيل العربية . والتلمود هو الدروس التى أخذها اليهود عن علمائهم وهى ملاحظات تتضمن عظات ونصائح وافكاراً ، والتى لا تخلو من مجادلات عقيمة . وفى العهد الجديد فى انجيل متى اشارات الى أولئك الاحبار الذين يتلقون عنهم هذه الدروس . وهذا المصدر العبرى مأخوذ من الفعل (لمد) وهو تعلّم .

---

(٧) (ترجوم) كتبتها بالجيم وأردت نطق الجيم غير المعطشة كالجيم القاهرية المصرية وكالحرف (G) فى الكلمة الفرنسية Gare والكلمة الانكليزية Garden .

وهناك كثير من المفردات التى يمكن التقريب بينها وبين ما يشبهها فى الآرامية ايضا •

العربية	العبرية ∆	السريانية
واحد	إحاد	حَدْ
اثنان	شْنايم	تْرين
ثلاثة	شْلاشا	تلاتَا
اربعة	أربَعَا	أرْبَعا
خمسة	حَمْشَا	حَمشا
ستة	ششّا	إشْتا
سبعة	شَفعَا	شَبْعَا
ثمانية	شَمونا	تمْنيا
تسعة	تشْعا	تشْعا
عشرة	عَسْرا	عَسْرا

والدخيل الآرامى فى اللغة العربية كثير ايضا • وبهذه الطريقة نستطيع أن نتفهم العربية • اما فى مادة النحو مثلا ، فأداة التعريف فى العربية هى الالف واللام ، وفى العبرية هى الهاء ، ولا توجد هذه الاداة فى السريانية • ولو اننا نظرنا فى كتب النحو لوجدنا ان هناك من يقول ان التعريف حاصل فى الالف واللام ، وهو قول الخليل ، أو انها اللام وحدها وهو قول سيبويه ، ولنا أن نقول ربما حصل التعريف فى الالف ويدلنا على على ذلك ان اللام لا تنطق مع الحروف الشمسية ، وان الهمزة تقرب من الاداة العبرية وهى الهاء • والهمزة والهاء سواء فى العربية فأيا وهيا فى النداء بمعنى ، وألا وهلا تخفيفا وتشديدا كذلك •

هذه الملاحظة رأى شخصى صرف أسوقه لا على سبيل التقرير والتأكيد انما على سبيل العرض والاقتراح •

∆ اثبتنا هذه الكلمات العبرية وكذلك السريانية بالحروف العربية لعدم تيسر الحروف العبرية والسريانية •

وربما استفدنا من المقارنات فائدة لا تحصـل فى غيرهـا . فلو أخذنا ما شاع من الاعلام المغربية والاندلسية وهى تلك المختومـة بواو ونون ، نستطيع فى العربية وحدها أن نقطع فيهـا بشىء ، فهى زيادات ليس غير . فالاسم زيد وهو مصدر نقل الى لعلمية فصار زيدونا وكذلك عبدون ووهبون وسحنون وخلدون وجلون الى غير ذلك . والوجه فى هذا انهـا زيادات تصغير كما يحدث فى التصغير فى اللغة السريانية فكتاب تصبح كتابونا[٨] .

ولو استعنا بالعامية الدارجة لوجدنـا ما يؤيد هـذا فكلمة شىء تصبح (شويونه) ودرب تصبح (دربونه) وبيت تصبح (بيتونه) الى غير ذلك فالواو والنون مطرد فى كل هذا لفائدة التصغير ، ولزيادة التصغير الذى من معانيه التقليل والتحقير ولتنكير زيدت التاء الاخيرة ، والتاء فى كثير من الامثلة تفيد هذا ، فالتاء فى تمرة لا تفيد التأنيث الذى لا حاجة فيه انما تفيد الوحدة فتمرة اسم الواحد لمجموعة التمر[٩] .

ونريد الآن أن نسـلك مسـلكا صعبا فنقرر ان الصورة الاولى للفعل العربى هو المضعف الماضى الثلاثى . والقول فى هذا يؤدى بنا الى ان نقول مع القائلين ان مبدأ الثلاثية فى الاصل العربى مرحلة تكميلية وليست اولى ، ومن أجل هذا فلابد أن تكون الاصول الثلاثيـة تمت بعد أن كان هنـاك مرحلة كان فيها الاصل ثنائيا ، ثم تطور هـذا الثنائى الى الثلاثى الذى صار ميزة من مزايا العربية واللغات السامية الاخرى .

ولابد من دليل نستضىء به فى هذه السبيل فنقول ان كثيرا من المعانى تؤدى بحرفين ساكنين ومن أمثلة ذلك الحروف العربية ـ اعنى العوامل على لغة النحاة ـ فحروف الجر مثلا وجلها يتألف من حرفين صامتين كمن وعن

---

(٨) هناك طريقة أخرى للتصغير فى السريانية وهى زيادة واو وسين وطريقة ثالثة على جمع الزيادتين أى الواو والنون والواو والسين .

(٩) أقول ان التاء تفيد التقليل والتنكير . هذا هو الغالب لان التاء فى علامة ونسّابة هى غير ذلك وربما كانت على سبيل التضاد من قبيل البصير للاعمى تجملا وتفاؤلا .

وعلى والى[١٠] تؤدى معانى كان حقها أن تؤدى بفعل ، ومن أجل ذلك فطن الباحثون فى الاساليب وقالوا : جاء فلان على جواد أبلغ من قولهم : جاء راكبا جوادا ، جريا على القاعدة المشهورة البلاغة الايجاز • ولعل ما فى العبرية من حروف الجر يؤيد هذا فالحرف عل[١١] واللام يؤديان من المعانى ما حقها أن تؤدى بالفعل •

ولعل لغة الاطفال من الامور التى تقوم دليلا ايضا على ان المعانى تؤدى بادى ذى بدء باثنين من الحروف • فالطفل يقول عم أو هم حين يريد الطعام مثلا ، والمتتبعون لسلوك الاطفال يستطيعون تأييد هذه الملاحظة القيمة •

وقد يتنكر لهذه الدعوى جماعة المختصين بالعربية غير انى اقول ان هذه ملاحظات توصل لها البحث ، فمن شاء فكر بها وبحثها ليخلص الى اقرارها أو انكارها •

اقول ان المعانى العربية تؤدى بحرفين صامتين فالكاف والنون فى كن تؤدى فى العربية التخفى والاستتار فهى بمعنى جن التى استحالت بالتضعيف الى جنّ ، هذا فى العربية ، وفى العبرية مادة « كن » أيضا تؤدى المعنى نفسه ، وقل مثل ذلك فى مادة در فى اللغتين العربية والعبرية ، وكذلك مادة ف ر فهذه المواد تؤدى المعانى وهى بحرفين ، وما الحرف الثالث الذى لصق بها كسعا Suffixe الا لغاية اكمال الاثنين وصيرورتها على ثلاثة ، وهذه المرحلة الثلاثية متأخرة بالنسبة للاولى ، والامد بينهما واسع طويل ، ومن أجل هذا لا يرضى هذه الدعوى اللغوى الذى ألف الثلاثى فلا يرى وسيلة لرده للاثنين •

اقول ان هذا الثالث الطارىء على طريقة التضعيف زيادة فى الكلمة

---

(١٠) أقول : حرفين صامتين لان الحرف الثالث فى على والى هو استطالة للحركة وهى الفتحة وسنأتى على ذكر الحركات وحروف المد •

(١١) جاء فى الشواهد الشعرية العربية عل بمعنى على •

وليس بأصل ، ذلك ان أحـد هـذين الحرفين يتغير على طريقة الابدال ، مثال ذلك :

كنّ العربية وكنن العبرية تصبح كهن •

وهـذا الابدال وسيلة لايجـاد معانى جديدة مع ابقاء شيء من المعنى القديم فى هذا المستحدث الجديد لمحا للاصل • ففى مادة كهن ما زالت فكرة الاستتار والخفاء موجودة ، ومادة درّ تصبح دهر فى العربية وكذلك فى العبرية والفكرة فى الدهر هى الدوران ، ومن أجل هذا شبهوا الدهر بالفلك الذى يدور •

ثم ان المضعف ولد على طريقـة الابدال والتعويض ، الفعل الاجوف ولذا فان حروف المد وسائل مهمة بيد واضع المعانى لابتكار معان جديدة • وهى لوجود فكرة المد فيهـا داخلـة فى ضمن الحركات التى تعد ايضا من الوسائل المهمة فى هذا السبيل(١٢) •

نعود فنقول ان مادة كنّ الفعل المضعف أصل فى كان وكذلك مادة (غبّ) أصل فى غاب ، ومادة (جبّ) أصـل فى جاب ، ومادة (صرّ) أصل فى صار •

وهناك أفعال جوف كثيرة لا سبيل الى معرفة أصلها التضعيفى لفقدان استعماله وبعد العهد به(١٣) فانقطعت الصلة ، وأصبح لمح العهد بذلك من الامور الصعبة •

والدليل فى هذه السبيل الموحشة معالم لغوية احتفظت بهـا العربية تشير اشارة واضحة الى الاصل التضعيفى الذى ذهبنا اليه ، وهو أن الـكثير من هـذه الافعال الجوف مصـادر تحتفظ بالحرف المضعف وفيما يلى ثبت بمصادر هذه الافعال :

---

(١٢) أو قل ان الحركات وسيلة مهمة لابتداع المعانى ودليلنا الاستقراء اللغوى فالعود معروف المعنى ووثيق الصلة بـ « عيد » وكذلك صوت وصيت وغوث وغيث والخ •

(١٣)

الفعل	المصـــدر	الفعل	المصــدر
كان	كينونة	جاب	جيبوبة
دام	ديمومة	غابَ	غيبوبة
بان	بينونة	قال	قيلولة
صار	صيرورة	حال	حيلولة

هذه المصادر وغيرهـا تشير الى هـذا الاجوف الذى جاء من المضعف فالالف فى صورة الماضى والياء والواؤ فى صورة المضارع تعويض[١٤] من الفعل المضعف • والباحث فى العبرية يجد شيئا من هذا ايضا فمادة (فرّ) تصبح فور ، كما تصبح فرّ فى العربية فار التى تحتفظ بالفكرة المعنوية فى فرّ •

أما حرف الياء الذى لزم هذه المصادر ، فهو حشو مفيد ، وربما جيء به ليبعد الكلمة عن وزن الصفة وهى فعول[١٥] •

على ان هذه الصيرورة لا تقتصر على الاجوف ، فهناك دلائل تشير الى أن كثيرا من الفعل الناقص جاء عن المضعف على طريقة التعويض فالفعل كنى فى العربية وكنه فى العبرية هما من هذا الباب • ولابد من الاشارة الى أن الهاء المعوّض فى العبرية يقابله شيء كثير فى العربية ، فالـكنه بمعنى الحقيقة هو من هذا الباب ايضا •

ولو استعرضنا على طريقــة الاستقراء طائفة من الافعـال الناقصة فى العربية لنعرف السبيل الي صيرورتها على حالتهـا من النقص لوجدنا أن من بينها كثيرا ما جاء من المضعف بابقــاء التضعيف ومد الفتح فى الآخر حتى

(١٤) اقول تعويض ووجه الامر ان فتحة الغينَ فى غب تشبع حتى تستحيل الى مد ومن حق هذا المد الطويل ان يخرم من آخر الفعل ليبقى محافظا على الثلاثية •

(١٥) استأنسنا برأى الاســتاذ الفاضــل مصطفى جواد فى هــذه القضية •

يصبح ألفا وبهذا استحال الفعل رباعيا ناقصا مع بقاء التضعيف في عينه ، ومن أمثلة ذلك ما يلي :

مدّ تصبح مدّى

مطّ تصبح مطّى (ثم ذهب الى أهله يتمطى) الآية

ذرّ تصبح ذرّى

دلّ تصبح دلّى

سرّ تصبح سرّى

ربّ تصبح ربّى

وربما جاء من هـذه الافعـال التى استحالت على هذه الطريقة رباعية ناقصة ، أفعال ثلاثية :

فمن (ذرّى) جاء (ذرا) ، ومن (سلّى) جاء (سلا) .

وما دمنا نرى ان المضعف أصل لهذه الافعال على هذه الطريقة أو على طريقة التعويض فلابد من الاشارة الى أن كثيرا من الافعال المصدرة بالنون قد استفادت النون بهذه الطريقة من المضعف الذى هو أصل مثال ذلك : نفر الآتية من فرّ ، ونتل التى تأتى من تلّ أو نثل من ثلّ ، وما زالت اللغة الدارجة تستعمل (شرّ الثوب) بمعنى (نشر) وعلى هذا الاساس تكون نجر من جرّ . ولما كان الكلام عن النون وهى صدر فى الفعل ، فهناك النون التى هى كسع فيه ، والتى جاءت الفعل على هذه الطريقة من المضعف ، مثال ذلك الفعل أدمن الذى يعنى الدوام جاء من المضعف ، وقد عرضنا الى ذلك فى مادة الديمومة . فالنون هى تعويض من الميم ، جاء فى الاغانى « ج ٦ ص ٢١ ط دار الكتب » كان مدمنا للحج[١٦] .

ولابد أن أشير فى الختام الى ان هذه آراء شخصية قلت بها بعد أن تبين لى من الاستقراء ما يؤيدها .

---

(١٦) اختصت ادمن فى اللغة المتداولة بالتزام الشر والمنكرات ، مثال ذلك ادمن فلان على الخمرة .

حقيقة التضمين في علوم العربية

ان اصطلاح « التضمين » يدل على دلالات متباينة بحسب المادة التى استعمل فيها ، واستفادت منه • نراه فى كتب البلاغة فى « باب التضمين والاقتباس » ، وهو فى مادة « العروض » فى باب « عيوب القوافى » كما انه يدخل فى أبواب من النحو مثل « باب حروف الجر » و « المتعدى واللازم » • ومن أجل ذلك فالباحث فيه ازاء موضوع واسع الاطراف ، كثير المسالك ، ولكننا اجتهدنا أن نفيه حقه ملتزمين بالايجاز فى عرض الوجوه المهمة ولاسيما ما يتعلق منها بالمسائل اللغوية والنحوية ، ولاجل الوصول الى هذا الغرض رأينا أن نقسمه الى قسمين :

(١) قسم يعرض لمدلول هذا الاصطلاح فى علمى البلاغة والعروض ، وهو قسم موجز نبين فيه مدلول الاصطلاح ، ثم نربط بين المدلول ومسألة التجديد والتقليد فى الادب •

(٢) وقسم نعرض لمدلول هذا الاصطلاح فى النحو واللغة ، وهذا القسم هو الجانب المهم فى هذا البحث • ويكشف هذا الجانب عن قضية ارتباك مدلولات الالفاظ فى النصوص ، وعن محاولة علماء العربية لتبرير هذا الارتباك بوسائلهم المنطقية المعروفة •

(١) التضمين فى علمى البلاغة والعروض

يلمح الباحث فى الادب العربى ظاهرة التقليد ، ولا يحتاج الامر الى دليل فى هذا ، فظواهر التقليد واضحة فى مختلف العصور الادبية ، وهى تتخذ أشكالا عدة لا نرى حاجة فى تبيانها • والتضمين الذى نواجهه فى « باب الاقتباس والتضمين » من هذه الاشكال التقليدية • وملاك هذا التضمين البلاغى كما يقرر ابن رشيق فى عمدته[١] : « هو قصدك الى البيت من الشعر

(١) ابن رشيق العمدة ٢/٨٤ •

أو القبيح فتأتي به في آخر شعرك ، أو في وسطه كالمتمثل ، نحو قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب » :

يا خاضب الشيب والايام تظهره
هذا شباب لعمر الله مصنوع
أذكرتني قول ذي لب وتجربة
في مثله لك تأديب وتقريع
ان الجديد اذا ما زيد في خلق
تبين الناس أن الثوب مرقوع

فهذا جيد في بابه ، وأجود منه أن لو لم يكن في البيت الاول والآخر واسطة ، لان الشاعر قد دل بذلك على أنه متهم بالسَرَق ، أو على أن هذا البيت غير مشهور ، وليس كذلك ، بل هو كالشمس اشتهارا ، ولو اسقط البيت الاوسط لكان تضمينا عجيبا ، لان ذكر الثوب قد اخرج الثاني من باب الاول الا في المعنى ، وهذا عند الحذّاق أفضل التضمين ، فانما احتذى كشاجم قول ابن المعتز في أبيات له :

ولا ذنب لي ان ساء ظنّك بعدما
وفيت لكم ، ربي بذلك عالم
وها أنا ذا مستعتب متنصلٌ
كما قال عباسٌ وأنفيَ راغمٌ

وأبيات العباس بن الاحنف التي منها البيت المضمن هي قوله :

وصبٍّ أصاب الحبُّ سوداءَ قلبه
فأنحله ، والحبُّ داء ملازم
فقلت له اذ مات وجداً بحبّه
مقالة نصحٍ جانبتها المآثم
تحمَّلْ عظيم الذنب ممن تحبُّه
وان كنت مظلوماً فقل : أنا ظالم

فانك ان لم تحمـل الذنب فى الهوى

يفارقك من تهـوى وأنفك راغـم(٢)

فنحن نرى فى هاتين المقطوعتين أن ابن المعتز لم يكتف بتضمين بيت العباس وحده ، وانما استوحى روح المقطوعة وقسما من ألفاظهـا ، وذلك يدل على ما كان فيه الشعراء من التتبع لاشعار غيرهم .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون التضمين الا لونا من ألوان التقليد ، ولا نظن ان الشاعر المبتكر يستعين بهذه الوسيلة فى فنه ، ومن أجل ذلك يذكر ابن رشيق مفهوما آخر للتضمين يعتبره أجود مما ذهب اليه حيث يقول(٣) :

« وأجود منه أن يصرف الشاعر المضمِّن عن معنى قائله الى معنـاه ، نحو قول بعض المحدثين ، ونسبه قوم الى ابن الرومى :

يا سائلى عن خالد عهـــدى به

رطب العجـان وكفه كالجلمد

كالاقحوان غـداة غبَّ سـمائه

جفَّت أعاليـه وأسـفله نَدِي

وابن الرومى ، أو الشاعر الآخر المحدث قد صرف ــ كما يقول ابن رشيق ــ قول النابغة فى صفة الثغر :

تجلـو بقادمتي حمامـة أيكـه

بَرَداً أُسِفَّ لثاته بالاثمـد

كالاقحوان غـداة غِبَّ سـمائه

جفت أعاليـه وأسـفله نَدِي

الى معناه الذى أراد .

ولست أدرى ما وجه الجودة فى هذا الصرف الذى تفضحه العبادات المتشابهة !! وليس هـذا الا التقليـد الذى عبّر عنه ابن رشيق بعبـارته الفنية المذكورة .

---

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

وليس أدل على التقليد الفاضح من الشعراء الذين يضمنون قسيما كما فعل الصولي :

خلقت على باب الامير كأنني
« قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل »
اذا جئت أشكو طول ضيقٍ وفاقة
« يقولون : لا تهلك أسى ً وتجمل »
ففاضت دموع العين من سوءِ ردهم
« على النحر حتى بلّ دمعي محملي »
لقد طال ترداد وقصدي اليكم
« فهل عند رسم دارس من مُعَوّلِ »

والشاعر فى تضمينه هذا ، والذى لا يدل الا على التقليد والتتبع الواضح ، قلّ أن يناسب بين ما له وما أخذه .

وهناك ركن آخر من أركان هذا التضمين ، وهو أن يقلب الناظم بيتا فيضمنه معكوسا ، نحو قول العباس بن الوليد بن عبدالملك بن مروان بن عبدالملك :

لقد أنكرتني أنكادَ خوفٍ
يضم حشاك عن شتمي وذحلي
كقول المرء عمرو في القوافي
لقيس حين خالف كل عذلِ
« عذيرك من خليلك من مُراد
أريد حياته ويريد قتلي »

والبيت المضمّن لعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، يقوله لابن اخته قيس بن زهير بن هبيرة بن مكشوح المرادى ، وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة ، وحقيقته فى شعر عمرو :

أريد حياته ويريد قتلي
عذيرك من خليلك من مُرادِ (٤)

---

(٤) المصدر السابق .

وابن رشيق فى العمدة يفصل فى التضمين ممذكر منه أشـكالا عدة ، وهى فى مجموعها تدل على التقليد والمحاكاة • ونحن نجتزىء بهذا القدر من الامثلة ، والذى ذكرناه يعطى صورة موجزة عن التضمين فى باب الاخذ والاستعانة بآثار الآخرين • ولم يلجأ كثيرا الى هذه الوسيلة ، الا الشعراء المتخلفون الذين حرموا الابتكار والتجويد ، على أن علي بن عيسى الرمانى يعد التضمين بابا من أبواب البلاغة التى تنحصر عنـده فى عشرة ، غير أن مفهوم التضمين عنده مفهوم كلامى محض كما يعبر عنه بقوله[٥] :

« تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة هى عبارة عنه • والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليـه الكلام دلالة الاخبار ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس • فالاول كذكرك الشيء بأنـه مُحدَث ، فهـذا يدل على المحدث دلالة الاخبـار ، والتضمين فى الصفتين جميعا ، الا أنـه على الوجه الذى بيّنا • وكذلك سـبيل المكسور ومنكسر ، وساقط ، ومسقط •

وأما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو ايجاز فى كلام الله عز وجل خاصة ، لانه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة ، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل فى كل وجه يصح أن يدل عليـه • وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ، لانه قد تذهب اليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجه عن أن يكون قد قصد بها الابانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد العبـارة • وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك « بسم الله الرحمن الرحيم » قـد تضمن التعليم لاستفتاح الامور على التبرك به والتعظيم لله بذكره ، وانـه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وانـه اقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمة ، وانه ملجأ الخائف ومعتمد للمستنجع » •

وواضح من هذين القسمين أن « الرمانى » اعتمد على منهج كلامى فى

---

(٥) النكت فى اعجاز القرآن ٩٤ فى كتاب « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن » •

ذهابه الى أن المفعول متضمن معنى فاعل ، وكذلك نصه على أن الآية تتضمن معانى اخرى وانه بينها فى كتابه « الجامع لعلم القرآن » كما ذكر فى آخر هـذا الفصل ٠

أمـا مدلول الاصطلاح فى « العروض » فهـو يسـتند على مـا قرره العروضيون فى أن البيت فى القصيـدة انما هو شعر قائم بنفسه ، وان من عيوب القافية عندهم ان البيت لا يتم معنـاه الا بالذى يليه ، ويسمون هـذه الظاهرة فى القوافى تضمينا[6] ٠ ويتفق أغلب المعنيين بالقوافى ، على ان هذا عيب من عيوب القوافى وينشدون على هذا قول الشاعر :

وليس المـال فاعلمْه بمال
من الاقـوام الا للذيّ
يريد به العلاء ويمتهنْه
لأقرب أقربَيه وللقَصِـيِّ

فضمن بالموصول والصلة على شدة اتصال كل واحد منهما بصاحبه ٠

وينقل لنا صاحب التاج خلافا طويلا حول جواز التضمين فى القوافى أو عدمه ، والذى يعنينا من هـذا ، هو ان هـذه الظاهرة كثيرة فى الشعر العربى ، والشـاعر مضطر الى هـذا فى ظروف خاصة ، مـا بقى ملتزمـا بالوزن والقافية ٠

التضمين فى اللغة والنحو :

عرضنا فى القسـم الاول للتضمين فى البـلاغة والعروض ، ونعرض الآن فى هذا الفصل الى القسـم الثانى من البحث وهو التضمين فى اللغـة والنحو ٠ وفى الحق ان هذا القسم غير مستقل عن الاول من حيث بعده عن البلاغة واتصاله بالمباحث اللغوية والنحوية ، فقد امتدت اليـه يد البـلاغة ، فناقشت اصوله فى ضوء العقليـة البلاغيـة التى شاعت فى المنهج اللغوى ، ومعلوم ان المنهج البلاغى يستدعى البحث فى النصوص الادبية عن الصور البيانية والقيم الجمالية ٠

---

(٦) انظر مادة « ضمن » فى لسان العرب وتاج العروس ٠

ومعلوم ايضا ان الجانب النحوى واللغوى فى موضوع التضمين قد تعرض لسؤالات بلاغية ، كالاستفسار عن ماهيته ، أحقيقة هو أم مجاز ؟ وهل القيد فيه حال منتزعة من المنقول منه ؟ وما الى ذلك من الامور البلاغية المحضة •

ولكى نعطى فكرة واضحة عن هذا القسم ، رأينا أن نعرض لمواضع التضمين فى الاستعمال لنخلص الى تحديده وضبطه وتعريفه ، ثم نقرر أحقيقة هو أم مجاز ؟ رغبة منا فى أن نصل بعد هذا الى أنه قياسيا يجوز أن يقاس على ما اشتهر استعماله ، أو انه سماعى لا ينقاس عليه •

التضمين فى الاستعمال :

لم يسلم منهج الباحثين فى علوم العربية من قيود المنطق وآثار الفاسفة • ذلك ان العقلية الفلسفية قد غزت سائر العلوم ، فقد استهوى منطق أرسطو وفلسفة الفلاسفة الآخرين الباحثين فى الثقافة العربية الاسلامية ، فتأثروا بهذا فى سائر علومهم • وكان من نتائج ذلك أن تأثر البحث اللغوى والنحوى بهذا المنهج الدخيل على النحو واللغة ، وكان تأثيره فى النحو واللغة سلبيا ، فقد أحال كثيرا من الابواب اللغوية والنحوية مادة جامدة بعيدة عن الحياة ، وبعيدة عن طبيعة اللغة السهلة السمحة • ومن أجل هذا ظهرت فى علوم العربية قواعد وأحكام لم تكن وليدة الاستقراء الشامل الواسع للغة ، كقولهم مثلا : ان الفعل « كذا » يأتى لازما ولا يأتى متعديا ، وان الحرف « كذا » يأتى لمعنى ولا يأتى لغيره وهكذا ، فاذا فطنوا ان هذا الفعل وذلك الحرف ، قد أتيا على غير ما ذكروا ، فزعوا الى طريقتهم ومنهجهم يؤولون ويعللون ، كأن يقدرون محذوفا ، أو يحذفون ما هو مذكور • وليس هذا مجال عرض المشكلات اللغوية والنحوية التى أفسدها المنهج المنطقى ، فهى كثيرة معروفة للباحثين •

وبحث التضمين الذى ندرسه يظهر اضطراب علماء العربية القائلين به ، فهناك نصوص تندّ عما وضعوه من أحكام وقيود ، لم يجدوا الى حلها غير القول بالتضمين ولابد للباحث فى علم الدلالات Sémantique

بغية الافادة منه فى اللغة العربية ، أن يعانى صعوبة البحث اذا مـا أراد أن يخلص للمنهج السليم ولاسيما فى عصورنا الحديثة •

فأول مجال للتضمين ، هو حروف المعـانى ، أو حروف الصفات على حد تعبير ابن قتيبة[٧] •

(١) الحرف « فى » تضمن معنى « على » كقوله تعالى : « ولاصلبنكم فى جذوع النخل »[٨] أى على جذوع النخل • قال الشاعر :

وهم صلبوا العبديَّ فى جـذع نخلةٍ
فلا عطست شـيبان الا بأجدعـا

وقال عنترة :

بطـل كأن ثيابـه فى سـرحةٍ
يُحذى نعـال السِّبت ليس بتوأم

أى على سرحة من طوله •

(٢) الحرف « الى » تضمن معنى « فى » كقول النابغة :

فـلا تتركني بالوعيـــد كأنني
الى الناس مطليٌّ به القار أجربُ

يريد فى الناس ، وقال طرفة بن العبد :

وان يلتق الحيُّ الجميع تلاقني
الى ذروة البيت الـكريم المصمّدِ

أى فى ذروة البيت الكريم الذى يُصمَد اليه ويقصد •

(٣) الحرف « على » تضمن معنى « عن » كقول القحيف العقيلى :

اذا رضيت عليَّ بنـو قُشَير
لعمر الله أعجبني رضاهـا[٩]

أى رضيت عني •

---

(٧) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٤٢٦ ، ادب الـكاتب ٥٠٢ •
(٨) سورة طه ٧١ •
(٩) السيوطى ، همع الهوامع ٢/٢٨ •

(٤) حرف « الباء » تضمن معنى « عن » كقوله تعالى : « فاسأل به خبيرا »[١٠] أي عنه •

قال علقمة بن عبدة :

فان تسألوني بالنساء فأنني
بصير بادواء النساء طبيب

وقال ابن أحمر :

تسائل يابن أحمر من رآه
أعارت عينه أم لم تعارا

(٥) الحرف « عن » تضمن معنى « الباء » كقوله تعالى : « ولا تجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض »[١١] أي لا تجهروا عليه بالقول ، والعرب تقول : سقط فلان لفيه ، أي على فيه • قال الاشعث بن قيس :

تناولت بالرمح الطويل ثيابه
فخرّ صريعا لليدين وللفم

أي على اليدين والفم • وقال الطرماح بن حكيم :

كأن مُخوّاها على ثفناتها
مُعرّس خمس وقّعَتْ للجناجنِ

(٦) الحرف « الى » تضمن معنى « مع » كقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم »[١٢] أي : مع أموالكم وكقوله تعالى : « من انصاري الى الله »[١٣] أي مع الله • والعرب تقول : « الذود الى الذود ابل » ، أي : مع الذود •

---

(١٠) سورة الفرقان ٥٩ •
(١١) سورة الحجرات ٢ •
(١٢) سورة النساء ٢ •
(١٣) سورة آل عمران ٥٢ •

قال ابن مفرّغ :

شـدخت غـرة السـوابق منهـم
في وجوه الى اللحام الجعـاد[١٤]

أي مع اللحام الجعاد .

(٧) حرف « اللام » تضمن معنى « الى » كقوله تعالى : « بأن ربك أوحى لها »[١٥] ، أي أوحى اليها .

قال تعالى : « الحمد لله الذى هدانا لهذا »[١٦] ، أي الى هـذا ، كما قال تعالى : « وهداه الى صراط مستقيم »[١٧] .

(٨) الحرف « على » تضمن معنى « من » كقوله تعالى : « اذا اكتالوا على الناس يستوفون »[١٨] أي من الناس .

وقال صخر الغيّ :

متى ما تنكروها تعرفوهـا
على أقطارهـا علق نفيث

أي من أقطارها .

(٩) الحرف « من » تضمن معنى « الباء » ، كقوله تعالى : « ويحفظونه من أمر الله »[١٩] أي بأمر الله . وقـال تعـالى : « يلقى الروح من أمره » أي بأمره .

(١٠) حرف « الباء » تضمن معنى « من » كقول ابى ذؤيب الهذلي :

شـربن بمـاء البحر ثم ترفّعت
متى بجج خضر لهـن نئيج

وقال تعالى : « عيناً يشرب بها المقربون »[٢٠] أي منها .

---

(١٤) ورواية اللسان الى الـكمام الجعاد ، انظر مادة « شدخ » .
(١٥) سورة الزلزلة ٥ .
(١٦) سورة الاعراف ٤٣ .
(١٧) سورة النحل ١٢١ .
(١٨) سورة المطففين ٢ .
(١٩) سورة الرعد ١١ .
(٢٠) سورة المطففين ٢٨ .

نجتزىء بهذه الشواهد فتبين فيها ان النحويين وعلماء اللغة فى حيرة واضطراب ، فهم يرون حرفا قد استعمل فى مكان آخر ، ولابد لهم أن يتخلصوا من هذه الحيرة وهذا الاضطراب بوسيلة من وسائلهم .

والبصريون يمنعون انابة الحروف الجارة عن بعض قياسا ، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، وما أوهم ذلك محمول على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف أو على شذوذ النيابة ، والكوفيون يجوزون نيابة بعضها عن بعض قياسا(٢١) ، وقد رجح ابن هشام مذهبهم فقال : « ومذهبهم أقل تعسفا »(٢٢) .

ولقد اختلف البصريون والكوفيون فى هذا الباب اختلافا كبيرا ، واختلافهم يشير الى أن هؤلاء جميعا لم يستقرئوا كلام العرب استقراء وافيا ليسجلوا هذه الاستعمالات وليقيدوها بقائليها ، وبالزمن الذى قيلت فيه ، مهتمين بموضوع اللغات الخاصة التى أجازت استعمالاً دون آخر .

قال ابن الانبارى فى الانصاف : « ذهب الكوفيون الى أن (مِن) الجارة يجوز استعمالها فى الزمان والمكان ، وذهب البصريون الى أنه لا يجوز استعمالها فى الزمان ، أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز استعمال (من) فى الزمان أنه قد جاء ذلك فى كتاب الله تعالى وكلام العرب . قال الله تعالى : « لمسجد اسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه »(٢٣) وقال زهير :

لمن الديار بقنّة الحجر
اقوين من حججٍ ومن دهر

فدل على أنه جائز .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : أجمعنا على أن « من » فى المكان نظير « مذ » فى الزمان ، لان مِن وضعت لتدل على ابتداء الغاية فى المكان ،

---

(٢١) المخزومى ، مدرسة الكوفة ٣٢٦ .
(٢٢) ابن هشام ، المغنى حرف الباء ١٠٣ .
(٢٣) سورة التوبة ١٠٨ .

كما ان مذ قد وضعت لتدل على ابتداء الغاية فى الزمان ، ألا ترى انك تقول . ما رأيتــه مذ يوم الجمعة ، فيكون المعنى ان ابتداء الوقت الذى انقطعت فيه الرؤية يوم الجمعة ، كما تقول : ما سرت من بغـداد ، فيكون المعنى : ما ابتدأت بالسير من هـذا المكان • فكما لا يجوز أن تقول ما رأيتـه من يوم الجمعة ، كذلك لا يجوز أن يقول ما سرت مذ بغداد » •

وهذا الخلاف والجدل يظهر ان الكوفيين أسد رأيا وأصوب منهجا ، ذلك انهم اعتمدوا استعمالات بنوا عليها رأيهم ، وهذا وجه علمى صائب •

أما البصريون فانهم تمسكوا بجـدل واسـلوب منطقى واعتمدوا على استعمالات اصطنعوها هم انفسهم ولم يعتمدوا على أمثلة مستقرأة فى الثابت من النصوص والاستعمالات •

وقد استمر الكوفيون على مذهبهم فى انابة كلمة عن اخرى ، فالفراء قد أجاز أن تقع « ليت » فى موضع « تمنيت » وبهذا علل كون « ليت » أقوى أدوات النصب عنده ، وقد أجاز نصب المسند اليـه والمسند بهـا مستشهدا بقول الشاعر :

يا ليت أيام الصبـا رواجعـا[٢٥]

لانها شربت معنى تمنيت ، فاذا قيل : ليت زيدا قائما ، كان معنـاه : تمنيت قيام زيد وقد ورد من هذا قول الشاعر :

اذا اسود جنح الليل ولتأت ولتكن
خطاك خفافا ان حراسـنا أسـدا

وقد جاء فى الحديث : « ان قعر جهنم لسبعين خريفا » وقولهم ان زيدا أخانا[٢٦] • وقد أنابوا فعلا عن فعل آخر على سبيل التضمين ، وهو موضوع يكشف ان علماء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ويقيدوها كما أشرنا ، ومن

---

(٢٤) ابن الانبارى ، الانصاف فى مسائل الخلاف ٢٢٨ •

(٢٥) معانى القرآن ــ ورقة ٤٥ عن مدرسة الـكوفة ، السيوطى ، الهمع ١/١٣٤ •

(٢٦) السيوطى ، الهمـــع ١/١٣٤ ، شرح الرضى على الـكافيــــة ٢/٣٤٦ ــ ٣٤٧ •

ذلك فان وجدوا شيئا خرج قرروه من قواعد وضوابط احتالوا عليه بوسيلة من وسائلهم ، ولذلك قالوا بالتضمين :

قال الزمخشري : « ومن شأنهم أن يضمنوا الفعل معنى فعل آخر فيجروه مجراه ويستعملوه استعماله مع ارادة معنى المتضمن . قال والغرض في التضمين اعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من اعطاء معنى ، ألا ترى كيف رجع معنى (ولا تعد عيناك عنهم)[٢٧] الى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين الى غيرهم ، وكذلك قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم)[٢٨] أي لا تضموها اليها آكلين » .

وأنت ترى أن حقيقة التضمين عند الزمخشري قائمة على أساس ضعيف اذ كيف يجوز أن يتضمن الفعل في جملة واحدة معنيين ، ولم يفت هذا الاضطراب المعنوي على الاقدمين أنفسهم ، فقد ذكر الشيخ سعدالدين التفتازاني في حاشية الكشاف : فان قيل الفعل المذكور ان كان مستعملا في معناه الحقيقي فلا دلالة على الفعل الآخر ، وان كان في معنى الفعل الآخر فلا دلالة على معناه الحقيقي ، وان كان فيهما جميعا لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز .

والسيوطي في الاشباه والنظائر يورد أقوالا متضاربة تظهر بوضوح مدى حيرة الاقدمين ازاء الاستعمالات والاساليب ، ومن أجل ذلك لم يتفقوا على حقيقة التضمين وطريقته ، فقد نقل ابن جني في الخصائص : « اعلم ان الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر وكان احدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر ، فان العرب قد تتسع فتوقع احد الحرفين موقع صاحبه ايذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر ، فذلك جيء معه بالحرف المعتاد على ما هو في معناه وذلك كقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم)[٢٩] وانت لا تقول رفثت الى المرأة ، وانما تقول رفثت بها أو معها

---

(٢٧) سورة الكهف ٢٨ .

(٢٨) سورة النساء ٢ .

(٢٩) السيوطي ، الاشباه والنظائر ١/١٠١ .

لكنه لما كان الرفث هنا فى معنى الافضاء وكنت تعدى أفضيت بـ (الى) كقولك : أفضيت الى المرأة ، جئت بالحرف (الى) مع الرفث ايذانا واشعارا أنه بمعناه »(٣٠) .

وقد وقع مجمع اللغة العربية فى الحيرة نفسها ولم يستطيعوا أن يدرسوا المشكلة دراسة أسلوبية حديثة ، فقد أخذوا بالتضمين ، وقالوا بتضمين أفعال كثيرة لمعان كثيرة (٣١) .

وتزداد طائفة الافعال المتضمنة لمعان اخرى اذا ما فتشنا عن هذه الافعال فى كتب البلاغة .

فقد ذكر سعدالدين التفتازانى : ان الظهور بمعنى الزوال كما فى قول الحماسى :

وذلك عارٌ يا ابن ريطة ظاهر .

وقول أبى ذؤيب : وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، أى زائل(٣٢) .

ولم يقتصر الامر على تضمين فعل بمعنى فعل آخر ، وانما تعداه الى صيرورة فعل لازم فعلا متعديا أو بالعكس .

ومن ذلك ما جاء فى مجلة مجمع اللغة العربية : « وجاز تضمين اللازم المتعدى مثل : فانه سفّه نفسه أى أهلكها .

وذهب ابن هشام الى أبعد من هذا ، اذ قال : « وزعم قوم من المتأخرين منهم خطاب الماردينى أنه يجوز تضمين الفعل المتعدى لواحد معنى « صير » ويكون من باب « ظن » فأجاز « حفرت وسط الدار بئرا » أى صيرت . وقد أجاز « بنيت الدار مسجدا » ، وقطعت الثوب قميصا ، وقطعت الجلد نعلا » وجعل منه قول ابى الطيب :

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها
لوني كما صبغ اللجين العسجدا(٣٣)

---

(٣٠) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/١٠٤ .
(٣١) دور الانعقاد الاول ٢٠٦ .
(٣٢) التفتازانى ، شروح التلخيص ٤/٩٧ .
(٣٣) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/١٠٣ .

وأنت ترى مما عرضنا أن مواضع التضمين واسعة ، وهـذا الاتساع لا يدل على سـعة البحث في الموضوع أو انهـم تعمقوا في المشكلة فعرضوا لوجوهها جميعا ، وانما يدل على حيرتهم في البحث عن المعاني والاساليب ، وربما كشف عن جمودهم ووقوفهم عند استعمالات لا يتعدونها الى غيرها ، وما خلا هذه الاستعمالات فهو بين أن يكون محمولا على الخروج والخطأ والتجاوز ، أو انه داخل في باب التضمين ان لم يجدوا وجهـا الى تخطئته وخروجه كأن يكون من كلام الله ، كقولـه تعـالى : « أفلم ييـأس الذين آمنوا »[٣٤] وقد ذكر المفسرون أن معناه : أفلم يعلم وقد قالوا : انهـا لغة نخع وهوزان ، وقال سحيم بن وثيل اليربوعي :

أقول لهـم بالشعب اذ يأسـرونني
ألم تيأسوا اني ابن فارس زهدم

وقد روى « ألم تعلموا » على الوجه الصحيح ، كما ان ابن عباس قد قرأ : (أفلـم يتبين الذين آمنـوا) ، وقـد أنكر الفـراء كون « يـأس » بمعنى يعلم ٠

وقد تبين ان التضمين أن تستعمل مادة فعلا كان أو اسما أو أداة محل غيره مع قرينة ، قولية أو حالية ، تشير الى المعنى الذي استعمل ، وهذا الحد في التضمين يثير الاستفسار عن المادة المستعملة من حيث الحقيقة والخروج عنها الى المجاز أو الكناية أو الاستعادة ٠

لقـد اختلف الاقدمون في حقيقة التضمين من حيث كونه حقيقة أو انه خروج عن الحقيقة الى غيرها توسعا ومجازا ، ونستطيع أن نخلص الى مذاهب ثلاثـة في الموضوع : فالمذهب الاول يقرر ان المـادة المتضمنة قـد استخدمت على الوجه الحقيقي مع قطع الصلة بينها وبين الاصل ٠ والمذهب الثاني يقرر ان المادة قـد استخدمت على الوجه المجازي مع القرينة الدالة ٠ والمذهب الثالث يجمع بين المذهبين فيقرر أن المـادة مستخدمة على الحقيقة والمجاز في آن واحد ٠

---

(٣٤) سورة الرعد ٣١ ٠

أما المحدثون الذين أقروا التضمين ، فقد كانوا يريدون الاخذ به للحاجة اليه ولان متطلبات العصر تستدعي أن تسعف العربية بمادة ضخمة حتى تساير الحياة الحاضرة ومتطلباتها المعقدة الكثيرة . وقد فعل هذا مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقال بقياسية التضمين .

وتظهر هنا مسألة مهمة تتعلق بهذه « القياسية » التي يراد منها أن تستخدم استخداما فنيا (Technique) في الحياة العامة ، وما جد فيها من ضروب العلم التجريبي والنظري .

واذا جاز هذا ، جاز أن نتوسع في الموضوع وندخل هذا في اللغة الادبية والاسلوب الفني الذي يعتمد على خلق الصور الادبية التي تستمد عناصرها من خيال الاديب الذاتي ، ومما توحيه له بيئته ومجتمعه .

وينجم عن هذا أن لابد أن تؤرخ الالفاظ وتقيد بعصورها وبقائليها حاسبين للاقاليم والمجتمعات حسابها في الاستعمالات وما شاع بينها من فنون القول ، وبهذا تفيد المعجمية العربية فائدة جليلة ، فيعاد بناء المعجمات المطولة على أساس جديد ، بمراعاة الظروف التاريخية وتطورها وانعكاس هذه الظروف المتطورة في المادة اللغوية ، ومن هنا تأتي ضرورة القيام بمعجم تاريخي .

الثقافة العربية والاقليمية

لن أحـدثك عن العراق فما أغناك عن حـديث تعرف من أمره شيئا كثيرا ، ولا أريد أن أعيد عليك حديث البصرة والكوفة من حواضر الثقافة العربية الاسمية ، ودع عنك « مدينة السلام » فالحديث عنها ذو شجون ، وما أراك الا قد عرفت من ذلك ما أنت مكتف به ، ولم أقصد أن أحدثك عن أى قطر من أقطار العربية فى هذا الشرق العربى ، فأنت تعرف مصر والشـام وأقاليم الجزيرة ، وان هذه جميعا منسجمة فى ثقافتها وتفكيرها ، أو قل ان وحدة فكرية تشتمل على هذه الديار من أرض العروبة .

ولكنى سأحدثك عن جماعات أحبت الثقافة العربية وشغفت بها ، كما أحبت الاسلام ولزمته ، سأحدثك عن هؤلاء الاخوان المغاربـة فى الشمال الافريقى الذين ما زلنا نحن « المشارقة » نجهل من أمرهم أشياء ، وما زال فى نفوسنا حاجة لمعرفة هؤلاء الناس . ولعلك تعرف من تاريخهم القـديم فنونا كثيرة ، ولكنك تجهل من حاضرهم ما لست عنه بمستغن أبدا .

وليس عجيبـا أنك لا تعرف عن تاريخهـم الحديث كثيرا ، ذلك أن فرنسا الباغية الآثمة قد سدت المنافذ على هؤلاء الناس ، وصرفت أمورهم كما تحب وتهوى ، وحيل بينهم وبين الاتصال بالمشرق من ديار العربيـة ، حتى فكر هؤلاء الجبابرة أن يمنعوا أداء فريضة الحج ، وأقاموا على طالب الحج شروطا ومصاعب ليثنوه عما اعتزم ، ولقد منعوا المشـارقة العرب من دخول هذه الارض الطيبة ، وما سمحوا للحكومة المصرية أن تقيم « معهدها العلمى » فى المغرب فتحولت به الى منطقة الريف مما تدير أمره حكومـة باغية اخرى وهى اسبانيا . وما كان لبشر منـا أن يحدث نفسه بالذهاب الى هـذه الديار يوم كانت الفئة الباغيـة تمسك بالرقاب ، ولم يقتصر المنع على العرب من المشارقة ، وانما شمل غير العرب من الشرقيين المسـلمين ، وربما تعدى ذلك الى غير المسلمين من الشرقيين .

وقد أحكم هؤلاء الظالمون قبضتهم على هذه الديار وأرادوا أن يمسخوا طابعها وحضارتها وقد عمدوا الى طمس الثقافة العربية الاسلامية ، فما كانت العربية اللغة الرسمية التى تدار بها الشؤون العامة ، وهى لغة مجموع هذه الشعوب ، أقول لغة مجموع هذه الشعوب مع علمى أن البربرية قائمة ، وانها لغة القبائل من سكان الجبال ، وذلك لان هؤلاء البربر مضطرون الى تعلم هذه العربية ، وهى اللغة الشريفة عندهم ، وانها اللغة التى اتصل بها تاريخهم وانهم أحبوها حبا بحيث انك ترى « القبائلى » من هؤلاء يتحرق حزناً لانه لا يعرف العربية أو أن معرفته بها قاصرة .

وقد حاول الفرنسيون أن يعملوا على عزلة البربر وأن يثيروا فى نفوسهم نزعة تهدف الى العنصر وتبغض العرب لديهم ، ولكنهم لم يفلحوا .

ولقد وقفوا فى وجه العربية ومنعوا تعلمها وتعليمها ما وسعهم ذلك بحيث اضطرت صحيفة التايمس الانكليزية الى أن تقول مرة : أصبح تعلم العربية فى الجزائر جريمة تستحق العقاب وان مزاولة هذا النشاط يشبه الى حد كبير ما تزاوله الجمعيات السرية فى اقبائها المظلمة .

ومن أجل ذلك باتت اللغة مشكلة من المشكلات المهمة فى هذه البلدان . وقد خصصت مجلة الفكر التونسية(١) جزء من أجزائها لهذه المشكلة الخطيرة وتحدث فى المشكلة جماعة فيهم التونسيون وفيهم الفرنسيون .

وأنت اذا قرأت طائفة من هذه المقالات وجدتها تبحث فى المشكلة بحثا علميا صحيحا ، ولكنك تلاحظ أن المشكلة قائمة فى الكتاب أنفسهم ، كأن يستعير الكاتب طرقا أجنبية فى التعبير عرفها وترجمها شاعرا كان أم غير شاعر ، فقد جاء فى الجزء السابع(٢) من هذه المجلة سنة ١٩٦٠ فى مقالة للكاتب الجنيدى خليفة : « جاحدا أكون اذا أنا بوصفى عربيا ، لم أشكر

---

(١) الفكر الجزء الخامس ١٩٦٠ .
(٢) الفكر الجزء السابع ١٩٦٠ ص ٦٢ .

الأستاذ .... » وواضح جدا أن هذا الأسلوب غير عربي فبدء الجملة على هـذه الصورة مما لا يسوغ في هـذه العربيـة التي تأبى التعقيد وتتوخى السهولة ، وهذا شيء سائغ في الفرنسية مثلا .

وحديث استعارة الاساليب في هذا الباب معروف للباحثين ، والاساليب الداخلة في عربيتنا الحديثة ولاسيما في هذه الديار كثيرة جدا .

وللمغاربة أقوال لا نعرفها نحن المشارقة ، فالـكاتب فيهم يقول مثلا « وهذا على حدة قول فلان .... » ولا نعرف في العربيـة مؤنثا للحد على هـذه الصورة وفي هـذا المعنى ، وأنت تسـمع مثلا في اذاعة من الاذاعات اللاسلكية خبرا مؤداه أن فخامة الرئيس اقتبل على الساعة الخامسة .... ، وهم يريدون بالفعل « اقتبل » « استقبل » أما قولهم على الساعة الخامسة فهو تعبير غير وارد في العربية وربما كان للترجمة تأثير فيه ، وليس هذا من باب اضطراب المعربين في استعمال حروف الجر .

ولعل المشارقة لا يفهمون شيئا من عباراتهم التي جاءت اليهم مترجمة أو أنهم ترجموها دون أن يشعروا ، فأنت تقرأ في صحيفة المجاهد[٣] مثلا : « والدول المسيطرة على حظوظ الامم .... » والمراد بالحظوظ « المصائر » ولكن الكاتب آثر أن يترجم الـكلمة الفرنسية "Sort" بالحظ فغابت عنـا بعض الشيء ، وأنت تقرأ ايضا : « فاننا لا نقصد الى أن الجيش الفرنسي كله متناسق منسجم ، ولـكن نعني بها الاطارات المتطرفة لانها هي وحدها ... » فلا تفهم معنى « الاطارات » فلم تنتقل هذه الكلمة في العربية المعروفة انتقالا مجازيا على نحو ما قرأنا في هذه العبارة ، ومن أجل هذا جاء المعنى مستغلقا وهي ترجمة لكلمة Cadres . وقد أبقت الفرنسية عند هـذه الشعوب المؤمنـة الطيبة آثارا لغوية واضحة ، فأسماء الشهور مثلا مما لا نعرفه نحن المشارقة فهم يسـتعملون « فيفري » ويريدون بـه « شـباط » و « جانفي » ويريدون به « كانون الثاني » وهكذا في سائر أسماء الشهور . ولم يقتصر

---

(٣) المجاهد العدد ٦٥ سنة ١٩٦٠ .

هذا على اللغة السائرة الدارجة بل تعداه الى اللغة الادبية العالية[٤] . وربـ
وقعت فى كتبهم على شىء لا تقره ولا تستريح اليــه ، فهى مرقومة بالارقا
الاوربية ، بدلا مما تواضع عليه الشرقيون فى رسم الارقام ، وحجتهم انهـا
عربية قد أخذها الاوربيون ، والوجه انها جميعا هندية ثم استقرت على نحو
ما نعرف من التقسيم الجغرافى ، فلا تستريح مثلا أن ترى « اعجاز القرآن »
للجرجانى ، وهو من أجل الكتب المعروفة والتى تتصل بأكثر من باب واحد
فى علوم العربية ، مرقوما بالارقام الاوربية .

ومن آثار الفرنسية عندهم ما يبدو فى أسمائهم ، من أنهــم يقدمون اللقب على الاسم ، واللقب مشير الى الاسرة ، وهذا مما لا نعرفه فى العربية .

وربما كانت المشــكلة هينة بعض الشىء فى تونس والمغرب الاقصى ، ولكنهــا صعبــة فى الجزائر ، ذلك أن فى تونس والمغرب معــاهد ناهضت الاستعمار البغيض وثبتت على مر العصور طوال حــكم المستعمرين ، ثم ان نظام الحكم فى هذين البلدين غيره فى الجزائر التى حاولت فرنسا أن تضمها اليهــا وأن تعتبرهــا ولاية تابعة كأية ولاية فرنســية فى أرض فرنســا وهم يتشــدقون بعبارتهــم : L'Algerie Francaise ويقصدون بهــا الجزائر الفرنسية ، فقد أحكموا عليها سلطانهم فاستعبدوا الناس وأذلوهم وعملوا على مسخ طابعهم العربى الشرقى المسلم .

وقد نجح الفرنسيون فى مســعاهم بعض الشىء ، فالعربية تكاد تكون لغة أجنبية ، ولا تعجب أن تجد جمهرة كبيرة فيهم المثقف وغير المثقف ممن لا يعرف العربية الا فى الدارج السائر الكسيح الذى غلبت عليه الفرنسية ، فانت تســمع مثلا أن الجزائرى يقول فى غير مــا تكلف ولا تصنع « الباب ferme »فهو يجمع بين كلمتين احداهما عربية والاخرى فرنسية ويريد بهذا التركيب الممسوخ « اغلق الباب » . واذا أصغيت لجزائرى عامل ممن

---

(٤) جاء فى قصيدة للشاعر ابن تومرت يحيى فيها الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية :

دعــا التاريخ ليلك فاستجابا   نفنبر هل وفيت لنا النصابا

والمراد بـــ « نفنبر » تشرين الثانى .

يشتغلون فى فرنسا وهو يتكلم ، استطعت أن تلمح الكلمات الفرنسية موزعة فى كلامه الدارج دون أن يعمد الى هذه العملية التركيبية .

وربما تعدت هذه الطريقة فى التعبير مجالات الحياة اليومية الى مجالات اخرى ، فالجزائرى ينادى رفاقه ليتجمعوا وليكونوا على صف واحد كما لو كانوا فى الصلاة قائلا : « يرحمكم الله Alienz Vous » فكلمة « يرحمكم الله » تشير الى أن المقام متصف بالوقار ، متسم بالجد من الامر .

ولا أريد أن أعرض هذا دون أن أعرض عليك نموذجا من هذه اللغة الدارجة المبرقشة بالفرنسية كما فى منظومة شعبية جزائرية[٥] .

يا عمى جونى ، لفرنسيس راهم ظلمونى بالشـر قتلونى ، سـلطوا علي الميزيريه[٦] ......

لغتنا فنات[٧] ، حتى جوامعنا تفرمات[٨] ما بقات حياة ......

درت ديسكور[٩] ، وابديت انحوّس واندور ، لا بقى واحد يسمع ليَه ....

نولي ديبيتى[١٠] ، ونولي برسبيتى[١١] ....

هذا نموذج يظهر عجز العربيـة السـائرة الدارجة عن الاعراب عن المعانى وذلك لجهل القوم بالفصيح المعروف .

---

(٥) يدعى الناظم (عبابة) وقد نظمت القصيدة سنة ١٩٤٤ بمناسبة انعقاد مجلس لجنة الاصلاحات وقد دعى الى حضوره جماعة من الوجوه فى القطر الجزائرى ممن يشير اليهـم الناظم فى منظومته لابداء الرأى فى المشكلة الجزائرية .

(٦) الميزيرية كلمة فرنسية هى La misère أى الفقر .

(٧) فنات هو الفعل فنى والتاء للتأنيث .

(٨) تفرمات كلمة فرنسية هى Fermer وتعنى الاغلاق والتاء الاولى فيها للمضارعة .

(٩) ديسكور وهى كلمة فرنسية Discours وتعنى الخطبة ، وكلمة درت معناه قلت .

(١٠) ديبيتى وهى كلمة فرنسية Député وتعنى الممثل للشعب أى النائب فى المجلس .

(١١) برسبيتى وهى كلمة فرنسية Précipité وتعنى السريع أو العاجل .

ومما هو جدير بالتنويه به جهود جمعية العلماء المسلمين ، وحركتها الدائبة من أجل احياء التراث القومى ، فقد نشرت معاهدها بالرغم من العقاب الصعاب التى يخلقها المستعمر الجائر لاحباط هذه المشروعات الخيرة •

وكان من ثمرة هذه الجهود الطيبة أن ظهر فى القطر الجزائرى شعراء وادباء ، فقد حدث أن عقد هؤلاء اجتماعا سنة ١٩٣٢ وأنشدوا فيه من أدبهم ما أنشدوا مشيدين بكيان الجزائر وحقها فى الاستقلال ، مشيرين الى تاريخها الثقافى وقوتها وسيادتها مارين بالانتفاضات الشعبية والثورات المتوالية ضد الحكم الفرنسى الجائر ، ومن هؤلاء الشاعر محمد العيد وهو القائل(١٢) :

ولي وطن حبيب لي خصيب
وقفت على محاسنه هوايا
وكنت له من الاحرار عبدا
له روحي وما ملكت يدايا
أصابك يا جزائر عهد سوء
ظللنا بائسين به (خزايا)
وتزدهر المعادن كاشفات
مجاهل من مآثرنا خفايا
بلاد لا تركتِ الى بغات
تشينك بالفساد ولا بغايا
حذار من الشقاق فان أقمتم
عليه عصاكم انكسرت شظايا

ومن قوله فى الغرض نفسه :

حثوا العزائم وأصدقو الآمالا
ان الزمان يسجل الاعمالا

---

(١٢) مجلة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين سنة ١٩٥٨ ص ٢٣ •

يا قوم هبوا لاغتنـام حياتكم
فالعمر سـاعات تمر عجـالا
الاسر طال بكم فطال عناؤكم
فكوا القيود وحطموا الاغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا
حريـةً لتحقق اسـتقلالا

ومن قصيدة له مخاطبا المستعمر الذى منع على الجزائريين أن يتعلموا لغتهم وهى عنوان مجدهم ، ووسيلة فى تفهم ثقافتهم العربية الاسلامية :

يا من يحـارب ديننـا ولساننا فى ذى القرى
اعلـم بأن الدين ديـ ـن الله مصباح الورى

ثم يختتم هذه المقطوعة بقوله :

فلقد حلفنـا أن نعيـ ـد تراثنـا أو نقبرا

وقد ظل الشاعر محمد العيد والشاعر ابن تومرت يذكيان فى الطليعة المثقفة روح الحماس والاندفاع فى هذه الثورة المقدسة .

ومما يجب التنويه به ما يكتبه الجزائريون من أدب روحه وطابعه من تربة الوطن الجزائرى ، غير أن لغتـه فرنسـية ، وربما كان أكثر نضجا وأعمق أفكارا من أدب اولئك الشعراء التقليديين ، ذلك ان هؤلاء قد أخذوا من الفرنسية وطرقها ووسائل الاعراب فيها ما جعل فى أدبهم قوة وحياة ، وأدب هؤلاء يقوم على القصة والمقالة ، ومن هؤلاء مولود معمرى وادريس الشرايبى وغيرهم(١٣) .

(١٣) ابراهيم الـكيلانى ، أدباء من الجزائر ص ٧ .

الثقافة العامية في التاريخ

كشف البحث العلمي عن صلة اللغة بالانسان وبيئته ، فهي تظهر المجتمع الانساني على حقيقته ، وقد اهتم بموضوع اللغة العلماء المختصون في العصور الحديثة ، كما بحثه الاقدمون فكتبوا فيه على الطريقة التي سلكوها في علومهم القديمة . على أن نفرا غير قليل من غير ذوي الاختصاص في موضوعات اللغة قد بحث في الموضوع نفسه في خلال دراساتهم ، ومن هؤلاء علماء الاجتماع وعلماء النفس والفلاسفة وآخرون غيرهم ، وليس عجيبا فقد بحث الفلاسفة الاقدمون في موضوع اللغة ، وكانت اللغة موضوعا فلسفيا عندهم .

وللموضوع جوانب كثيرة وأبواب متعددة ، فاللغة أساس كل أنواع النشاط الثقافي ، « وهي بذلك خير دليل يهتدي به الباحث الى معالم أي من المجتمعات الحديثة »[1] .

ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وسعته ، تشغل اللغة مكانا ذا أهمية أساسية ، اذ هي أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهي في الوقت نفسه رمز الى حياتهم المشتركة وضمان لها .

فما الاداة التي يمكن أن تكون أكثر كفاية من اللغة في تأكيد خصائص الجماعة ؟ فهي في مرانتها ويسرها ، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعاني تصلح لاستعمالات متشعبة ، وتقف موقف الرابطة التي توحد أعضاء الجماعة ، فتكون العلامة التي بها يعرفون والنسب الذي اليه ينتسبون[2] .

وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه ، انما هي عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الثقافات عبر العصور لا يتأتى بهذه

---

(١) Block and Tauger. Outline of Linguistic Analysis. P. 5.

(٢) J. Vendryes, Language, P. 240.

الوسيلة • ومن أجل هذا كان على الباحثين أن يكتبوا تاريخا واضحا لكثير من اللغات الحديثة ، بادئين بأقدم صورة للغة ، متعقبين التطور التاريخي لهـا ، ولذلك استطعنا أن نقف اليوم على البحوث القيمة فى هذا الموضوع •

ولقـد كان لمالينوفسكى العـالم الانثروبولوجى فضـل كبير فى لفت الانظار الى مفهوم جـديد فى اللغة ، فقـد أدرك عندمـا كان يدرس بعض المجتمعات التى اصطلح عليهـا بالمجتمعات (البدائيـة) أو (الفطريـة) أو (الوحشية) ، أن دراسته لن تصح دون معرفة الوظيفة التى تقوم بها اللغة فى المجتمع ، وقرر مالينوفسكى بعد قيامه بهذه الدراسات فى هذه المجتمعات ، أن اللغة لم تكن وسيلة فقط للتفاهم والاتصال ؛ فهى حلقة فى سلسلة النشاط الانسانى المنتظم ، وانها جزء من السلوك الانسانى ، وهى ضرب من العمل ، وليست أداة عاكسة للفكر[٣] • وهو يرى ان العمـل الانسـانى هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية ، وتبرز نظريته فى الصلة بين العمـل واللغة ويرى ان مواقف العمل هى التى تعمل فى تنويع اللغة ، وهو يسجل فى دراساته لمختلف قبائل استراليا وجزر الهنـد الغربية أن للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزراعيين ؛ والالفاظ تدور فى سـهولة وخفة مع العمل اليسير ، وتتعقد بتعقد العمل •

ومعلوم ان لكل زمن أو بيئة ذوقا خاصا فى استعمال ألفاظ اللغة ويبدو ذلك فى أدب الامة ولاسيما فى الجانب الشعبى منهـا ، ولا يمكن أن نطبق ما تواضع عليه الناس من أساليب الذوق فى هذا الباب فى زمن معين ، على لغة أو لهجة فى زمن آخر أو بيئة اخرى •

ولابد أن نعرض لرأى آخر فى تفسير موضوع اللغة واجتماعيتها فهذا ابن خلدون يعرض فى مقدمته لموضوع العلوم اللسانية فيقول فى نشأة لغة الامصار من اللغة الاولى ، وهو على معرفة نفسية بأثر اختـلاف البيئات على الظواهر الاجتماعية التى منها اللغة ، واليك قوله : « ان كلا منهم متوصل

---

(٣) مالينوفسكى B. Malinowski ، المقدمة التى كتبها لـكتاب موضوعه (The Meaning of Meaning) P. 312.

بلغته الى تأدية مقصودة ، والابانة عما فى نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة ، وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم »[٤] .

ويقول ايضا بعد عرضه لطائفة من فنون الشعر فى هذه الامصار : « والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم اذا سمعها ، ويمج نظمهم اذا أنشدوا ، ويعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدا الاعراب منها وهذا انما أتى من فقدان الملكة فى لغتهم (ويقصد بذلك العلماء) فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم (ويقصد بذلك الشعوب) لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها وان كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره ، والا فالاعراب لا دخل له فى البلاغة ..... فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة ، فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر ، صحت الدلالة واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب فى أواخر الكلم ، فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر »[٥] .

ونريد الآن بعد هذا العرض أن نخلص الى لغة الناس العامة لنتبين الجو العامى والثقافة العامية ، ولعل النصوص التى عثرنا عليها على قلتها تشير الى هذا الذى نريد أن نتبينه . والنصوص قليلة وقلتها راجعة الى ان هذه اللغة وهذا الاسلوب ، لم ينظر اليهما بما يستحقانه من احترام ، فقد غلب النظر الى الفصيحة ، وأسباب ذلك معروفة سنشير اليها فى هذا العرض التاريخى .

كان للحدث القرآنى تأثيره العظيم فى العربية ودفعها خطوات فسيحة الى الامام ، فقد عملت لغة التنزيل على توحيد هذه اللغة ، ومعلوم ان الامصار كانت تقرأ القرآن قراءات مختلفة ، وسبب هذا الاختلاف ان لغات الاقاليم قد فعلت فعلها فى الموضوع ، فما كان من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان

---

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ٤٩٣ .
(٥) المصدر السابق ٥١٣ .

الا أن يعمـلا على توحيـد هـذه القراءات ليكون المسـلمون اجماعـا على لغة واحـدة .

فقد منع عمر عبدالله بن مسعود أن يُقرىء الناس بلغته الهذلية حين سمع أحدهم يقرأ الآيـة الخامسـة والثلاثين من سورة يوسف (ليسجننه عَتّى حين) بدلا من (حتى حين)[٦] .

ولم يكن شيوع اللهجات العامية مختصا بعصر دون آخر ، أو قل ان مشكلة الفصيح والعامى قائمة فى كل عصر فى التاريخ الاسلامى .

ولا نستطيع أن نعد شيوع اللحن دليلا على نشوء العامية ، فقد عرف اللحن فى أوائل العصر الاسـلامى ، وقـد ظهر على ألسـنة الطبقة المثقفة المتعلمة .

ففى الاخبار ان عمر بن الخطاب قد أدب أولاده بسبب اللحن[٧] ، وان عبدالملك بن مروان كان يحذر أبناءه من اللحن ، فان اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى فى الوجه .

وقد أشار الاصمعى الى اللحن فى لغـة مالك بن انس (المتوفى سنة ١٧٩هـ)[٨] . ومعلوم ان مالكا هـذا يحتل مكانة عاليـة بين الطبقة المثقفة والذى يرجع اليـه فى مسـائل كثيرة ، واحسب ان القارىء يعرف الشىء الكثير عن مالك بن انس فلا حاجة بنا الى التعريف به فهو معروف مشهور ، ومثل مالك هذا فى اللحن على منزلته ومقامه ، أيوب السـختيانى فقد كان يلحن حتى فى كتاب الله[٩] .

وقد فطن النحاة الى أن اللحن قـد عرض لقراء القرآن ، فهم يعيبون على نافع مقرىء أهل المدينـة أنـه قرأ (معائش) بالهمز وكان حقهـا أن تقرأ بالياء[١٠] .

---

(٦) الزمخشرى ، الـكشاف (سورة يوسف) .
(٧) ياقوت ، الارشاد ١/٢٠ .
(٨) الصولى ، أدب الـكاتب ١٣٣ .
(٩) ياقوت ، الارشاد ١/٢٠ .
(١٠) الذهبى ، ميزان الاعتدال ٣/٢٢٧ .

ولم يكن وضع قواعد النحو بمجد فى التزام القوم بالفصيح وعدم الاخذ بالدارج ، وغرض الواضعين معروف فهو حفظ لغة التنزيل أن يتسرب اليها اللحن والاخذ باللغات الاقليمية ، وقد مر الشعبى (المتوفى سنة ١١٠هـ) على قوم من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال : (لئن اصلحتموه ، انكم لاول من أفسده)[١١] •

وكان شيوع اللهجات بحيث ان القراءات الشاذة استمرت بالرغم من الزام الناس بالاخذ بما اجمع عليه المسلمون ، وبالرغم من منع اصحاب الامر القراءات كما مر بنا ، فقد عرفنا فى القراءات الشاذة الشيء الكثير من تأثير اللهجات فى قراءات القرآن ، وكتب التفسير حافلة بهذه القراءات ، فقد ذكر ان أحدهم على طريقته ولهجته « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر التاء فى الفعل ، ثم ان آخرا قرأ « ولا تقربا هذه الشيرة »[١٢] بكسر الشين وابدال الياء بالجيم ، وهذه المخالفات للفصيح المعروف معروفة فى اللهجات الاقليمية ، وما زال هذا الابدال حتى يومنا هذا فى كثير من الجهات فى القسم الجنوبى من العراق •

وقد أسلفت ان اللهجات الخاصة قد رافقت الفصيح فى سائر عصور العربية ، ولعل ذلك كان سبب الدعوة القائلة بوجود المشكلة ، ولا يحسب القارىء ان المشكلة اللغوية وما ينتج عنها من مشكلات ثقافية هى وليدة عصرنا الحديث ، فهى قديمة كما عرفنا ذلك بالبحث اللغوى التاريخى ، ولكننا نستطيع أن نقول : انها اليوم أعقد مما كانت بالامس وذلك لان المجتمع العربى يواجه حضارة معقدة تلزمه أن يكون مزودا بالآلات للاخذ بنواحى هذه الحضارة المتعددة الاطراف ، ومن هذه الآلات والادوات مسألة اللغة ، فلا تغنى لهجة اليوم الدارجة ، كما ان الفصيح لم يعد اللغة التى يملكها الناس ويتصرفون فى أمرها ، ولذلك فالتعلم والتلقين واجب •

---

(١١) المبرد ، الكامل ٢/٤٠٥ (طبعة البابى الحلبى) •
(١٢) ابن خالويه ، مختصر فى شواذ القرآن (سورة البقرة) •

وقد كنت أحصى من النصوص العامية فى لهجاتها الدارجة ما أقع عليه فى هذا البحث التأريخى .

وقد عرفنا ان اللغة العامية كانت معروفة فى أيام العربية الاولى ، ولا أريد بالعربية الاولى العصور التى سبقت الاسلام وظهور النبوة فتلك حقب لا نعرف من أمرها الشيء الواضح الذى يمكن أن يكون أساسا للبحث .

ومعلوم ان العربيـة بدع بين اللغات القديمة ، ذلك اننا لا نعرف عن طفولتها شيئا نجعله مادة أصيلة فى البحث بحيث نقيم من هذه الركائز بناء يظهر التاريخ اللغوى العام لهذه اللغة .

ولكنى أقول : ان العاميـة عرفت فى أيام الخليل بن أحمد واضرابه من النحويين واللغويين ، وقد نسب للكسائى النحوى أنه ألف رسالة[١٣] فى لحن العامة . وقـد ذكر صاحب الاغانى ان سبب نسبة المغنى المشهور ابراهيم الموصلى الى الموصـل أنـه كان يغنى متى شـرب وهـو يروى هذين البيتين :

أنا جت من طرف موصل   أحمـل قلل خمريا
من شـارب الملوك فـلا   بـد من سكريا[١٤]

وواضح من هذين البيتين انهما باللسان الدارج الذى كان الموصليون يستعملونه . وسمع ابراهيم بن سفيان الزيادى النحوى المتوفى سنة ٢٤٩هـ مغنيا يغنى أبياتا فقال له : لمن هذا الشعر أصلحك الله ؟ فقال له المغنى : « لى يا سـيدى وأنا جوان بن دست الباهلى سيدى » قال : فقلت : ليس جوان ودست ـ عافاك الله ـ من أسماء العرب . قال : « ايش عليك من ذا يا سيدى » قلت : فردد الصوت . قـال : تريـد « تقشمه » « كنَّك »[١٥] عقـاب أو « كنّى »[١٦] ما أعرفك ، ما تركت على كبد ابن عمى الاصمعى الماء وقـد

(١٣) كتاب ما تلحن فيه العوام للـكسائى ضمن مجموعة تضم ثلاث رسائل بتحقيق عبدالعزيز الميمنى سنة ١٣٤٤ .
(١٤) الاصفهانى ، الاغانى (دار الـكتب) ٥/١٥٦ .
(١٥) أى كأنك .
(١٦) أى كأنى .

جيت الي ، طارت فراخ برجك طارت »[١٧] .

ولعل كتب الجاحظ خير مصدر لمعرفة اللغات واللهجات الخاصة ، فقد سجل الجاحظ نماذج من هذه اللهجات ، وفطن الى مصطلحات العامة وأصحاب الحرف . وحسبك أن تعرف ان الجاحظ قد أشار الى لغة الاطفال وكيف ان الطفل يستخدم ألفاظا خاصة يطلقها على مدلولات معينة فالطفل يرمز للكلب بلفظ « واوّاو »[١٨] كما يرمز للشاة بلفظ « ماءما »[١٩] .

كما تحدث الجاحظ في البيان عن لغات غير العرب من الموالى ممن نزلوا بين العرب وأخذوا لغتهم ، ولكنهم مع تعصبهم للعربية وحبهم لها ، وهجرانهم للغاتهم الاولى ظلوا يتكلمون هذه العربية بلحونهم المعروفة ، فهو يقول : ويستطيع الحاكية من الناس أن يحكى نطق الاهوازى والخراسانى والزنجي والسندى حتى تجده كأنه أطبع منه[٢٠] . وهو يقول ان النبطى القح يجعل الزاى سينا والعين همزة[٢١] . ويسرف الجاحظ فيروى الحكايات التى تثير الضحك والفكاهة عن لهجات هؤلاء الناس .

والامثلة فى « البيان » كثيرة ، ولعل من الطريف أن نذكر اشارة الجاحظ الى استعمال الدخيل الفارسي فى النصوص الفصيحة وهو الفارسى الذى لم تألفه العربية من قبل ، فقد جاء فى شعر الشاعر العمانى مادحا هرون الرشيد :

« آلى يذوق الدهر آب سرد » ومعناه حلف لا يشرب الماء البارد ابدا[٢٢] .

وقد فطن الجاحظ الى استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا فى المجتمع فى أيامه ، فهو يعرض للغة المتسولين والمحتالين ولاسيما ما جاء فى كتاب

---

(١٧) ياقوت ، معجم الادباء ١/٦٣ .
(١٨) الجاحظ ، البيان ١/٢٩ .
(١٩) الجاحظ ، الحيوان ٥/٨٩ .
(٢٠) الجاحظ ، البيان ١/٣١ .
(٢١) المصدر السابق ١/٣٢ .
(٢٢) الجاحظ ، البيان ١/٦١ .

« البخلاء » من هذا الباب وسنعرض له عند التحدث عن موضوع البخلاء •

كما أشار الجاحظ الى جماعة من هذه الجماعات التى ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة ، وهم اللصوص وقد كتب فى الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص وقد جاء ذكر الكتاب فى مظانّ عدة[٢٣] • ومن المفيد أن نذكر ان الجاحظ لم يكن أول من كتب فى اللصوص ، فقد كتب أبو عبيدة فى الموضوع نفسه ، غير انه اذا عرفنا ان نزعة الشعوبية عند أبى عبيدة هى التى دفعته الى الكتابة فى هذا الموضوع للانتقاص من العرب وتعصبا للفرس •

ولعل هواية الجاحظ فى تسجيل آداب العوام وملحهم وظرفهم هى التى دفعته أن يسجل حكايات عن الملاحين مع ذكر مصطلحاتهم التى يستعملونها[٢٤] • كما أشار الى شىء من هذا أبو المطهر الازدى فى حكاية أبى القاسم[٢٥] •

وفى كتاب المستطرف شىء من هذه المصطلحات ايضا[٢٦] •

ولابد لى أن آتى على كتاب « البخلاء » فأقول فيه شيئا ، فقد حكى الجاحظ عن زمرة من البخلاء ، وكان سبيله أن يولد الاحاديث على ألسنة هؤلاء ، وهو فى هذه الاحاديث يكشف عن الاوساط العامية التى يحيون فيها •

وفى طوق الجاحظ أن يصور البيئة العامية أو قل يوحى اليك وانت تقرأ أحاديث البخلاء البيئة الفقيرة الشحيحة ، ذلك ان الجاحظ نفسه قد عاش فى بيئة معدمة فقيرة ، فلقد شوهد فى أيام طفولته وصباه يبيع الخبز والسمك فى سيحان •

---

(٢٣) الجاحظ ، « تصنيف حيل لصوص الليل وتفصيل حيل سرّاق النهار » كما ورد ذكر « كتاب اللصوص » فى الحيوان ٢/٥٧ ؛ ياقوت ، ارشاد ٦/٧٦ • والكتاب من الكتب التى لم تصلنا •

(٢٤) الجاحظ ، البيان ١/٢١٢ •

(٢٥) أبو المطهر ، حكاية ابى القاسم (Mez) ١٠٤ •

(٢٦) الابشيهي ، المستطرف ٢/٢٤٥ •

وهو يحاول أن يستعيد البيئة العامية بملحها وظرفها وتقاليدها ، وهو يشير الى هذا فى كتاب البخلاء كما نقلنا ذلك فى غير هذا المكان[٢٧] .

ولم يقتصر على استعمال اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته ، وانما أوحى بهذا المذهب فقال : « ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الاعراب ، فاياك أن تحكيها الا مع اعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فانك ان غيرتها بأن تلحن فى اعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فاياك أن تستعمل فيها الاعراب أو تتخذ لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ، ويذهب استطابة الناس لها[٢٨] .

وانت تحس حين تقرأ فى « البخلاء » كيف يقضى سواد الناس سحابة يومهم ، فهو يقول على لسان صاحب الدار المؤجرة ، وهو يشكو الساكن من اتلافه للدار « ويدق على الاجزاع والحواض والرواشن »[٢٩] . ولا يكتفى الجاحظ بالجو العامى للعبارة أو اللفظة بل يتعداه الى القول العامى ينقله كما هو على ألسنة الناس ، وربما جاء بالدخيل الاعجمى المستعمل فى لهجاتهم ، فقد ذكر التشريب والرزة والجلة والثريد والبوش والهريسة والكرنبية والفجلية والبالوعة والغموس والدوشاب وغير هذا مما هو كثير فى « البخلاء » .

وقال : « فقال لو خرجت من جلدك لم اعرفك » وترجمة هذا الكلام بالفارسية : « اكراز پوست پارون بيائى نشناستم »[٣٠] .

قال أحد المراوزة البخلاء لصديقه العراقى الذى زاره فى مدينة مرو ،

---

(٢٧) الجاحظ ، البخلاء (طبعة الحاجرى) ٤٠ .
(٢٨) الجاحظ ، البيان ١/٨١ .
(٢٩) البخلاء ٨٤ .
(٣٠) البخلاء ٢٢ .

وكان هذا المروزي قد أظهر الغباء والجهل التامين ، كى لا يعرف صديقه العراقى مخافة أن يدعوه للغداء •

وقال محدثا عن الكندى أحد بخلائه ، وكان هذا صاحب دور للسكن اذ يقول له : واذا كثر الدخول والخروج والفتح والاغلاق والاقفال وجذب الاقفال تهشمت الابواب وتفلقت الرزات ، واذا كثر الصبيان وتضاعف البوش ونزعت مسامير الابواب »[٣١] •

والرزة من ألفاظ المعجم فى حين ان « البوش » من الالفاظ العامية التى لا تشير اليها المعجمات •

وقال الجاحظ على لسان البخيل الكندى : « فان ردوا عليه بعد ذلك شيئا ، حلف بالغموس انه ليس من دراهمه ، ولا من ماله »[٣٢] • والحلف بالزاد والطعام مما هو داخل فى العقلية العامية ، وما زال العوام فى أيامنا يقسمون بهذه الاقسام •

ولابد من الاشارة الى المصطلحات العامية التى أشار اليها الجاحظ فى حديثه عن البخل : « قال أبو فاتك : الفتى لا يكون نشالا ولا نشافا ولا مرسلا ، ولا لكاما ولا مصباحا ولا نفاضا ولا دلاكا ولا مقورا ولا مغربلا ولا مسوغا ولا ملغما ولا مخضرا فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمدّاد والدفاع والمحوّل »[٣٣] • وهذه الالفاظ مما حملها العوام معانى لا تشير اليها المعجمات وكتب اللغة •

ويشرح الجاحظ مفسرا المخطرانى فيقول : « انه الشخص الذى يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب فلا ترى له لسانا البتة »[٣٤] •

وهكذا نستطيع أن نتبين فى كتب الجاحظ مادة غزيرة فى الثقافة العامية وانها خير مصدر لمعرفة البحث اللغوى التاريخى •

---

(٣١) المصدر السابق ٨٢ •
(٣٢) المصدر السابق ٨٥ •
(٣٣) المصدر السابق ٦٧ •
(٣٤) المصدر السابق ٥١ •

الدخيل في الثقافة العربية الاسلامية

لا أريد في هذه المقالة أن أعرض لمواطن الدخيل فى ثقافتنا العربية الاسلامية ذلك أن البحوث فى هذه الناحية كثيرة ، وأنا ان فعلت ذلك فلا أرانى أقول الا معادا •

ولكنى اريد أن اعرض للموضوع لاقول : ان الذين عرضوا الى هذا أطلقوا أقوالا عامة ، تنتهى الى أن الثقافة العربيـة الاسلامية قد تأثرت فى صورها المختلفة بالعقلية الاغريقية •

واول من أطلق هذه الاحكام هم المستشرقون ، ومن بين هؤلاء من لم يتصف بالعدل والقصد فما أمر Renan الفرنسى فى القرن الماضى ببعيد • فقد ذهب هذا الى أن العرب أو قل ان العقلية السـامية قاصرة لا ترقى الى غيرها من العقليات كالاغريقية والرومانية ومن أجل هذا كان هؤلاء عيالا على غيرهـم من الشعوب فى حضارتهم • وقـد أسرف هـذا الفرنسى المسيحى المتعصب لاكثر من غرض واحد ، ولسنا بصدد بيان هذا • وقد ذهب غيره هذا المذهب دون أن يلتزم بعنفه وشدته •

ولا اريد أن أدفع عن ثقافتنا تأثير الاغريق فما الى ذلك قصدت ، وأنا ان فعلت ذلك فقد جرت على الحقيقة كما جار النفر الآخر ، ولكنى اريد أن اقول :

لقد بالغنا ــ نحن المشارقة ــ فى هذا الزعم ، فأساتذتنا المصريون وغير المصريين من المحدثين قـد ذهبـوا أكثر مما ذهب اليـه اولئكم الاعاجـم المستشرقون •

فما قولك فيمن يعزو شاعرية ابن الرومى المقلقة الى كونه يرجع الى أصل غير عربى أو قل رومى ، ولم يقصد يومئذ بالرومى التحديد التام فربما كان الاغريقى روميا ايضا ، والى مثل هذا ذهب المفتنون بأبى تمام وقالوا ان فيه شيئا آخر لا يرجع الى دنيا العرب • ثم ما قولك فيمن يقول : ان ملكة

الـكتابة عند عبدالحميد الـكاتب وترسله المعروف والنحو استمد اصولهـا ونهجها من عقلية لا تمت الى العروبة بصلة • ولن تعجب من هذه الاقوال ، فلم يقلها ممخرق مدع ، ولم يقلهـا جاهل لم يألف البحث العلمى ، وانما قالها استاذ عميد ، غبرت عليه السنون وشارك فى ثقافة الاجيـال الحديثة ، ذلكم هو طه حسين •

ولا نريد أن نشتط كما اشتط هؤلاء ففى ثقافتنا أصول دخيلة أخرى ، وليس عيبـا أن تتأثر ثقافة باخرى ، ومـا من حضارة فى الارض ، قديمها وحديثها الا كانت متأثرة بغيرها سلبا وايجابا • ولعل مما يشير الى قوة الثقافة والى قيمتها من حيث مكانها فى التطور والرقى ، انها ذات قابلية فى الاخذ من غيرها ودمج هذا الدخيل فيها حتى يصبح شيئا منها •

وقد حصل هذا فى ثقافتنا العربية ـ الاسلامية ، فالذى اصطلح عليه الباحثون من « الفلسفة الاسلامية » ان هو الا شىء من هـذا ، فالفلسفة فى كتب الغزالى وابن سينا والفارابى وابن رشد مزيج من ثقافتين ، ولكن هذا المزيج له وحدته ، وله طابعه وهـذا الطابع لا ينأى به عن الشـكل العربى المسلم • وفى أعمال هؤلاء شىء مما يسميه الباحثون اليوم بـ (Synthèse) ولا اريد أن اسرف فى هذا الشق من الموضوع ، ذلك أنى أريد أن أعود فأقول ان الذين ذهبوا الى تأثر الثقافة الاسلامية بالاغريق قد أطلقوا هذا التأثر على شعب المعرفة جميعها •

فالدكتور ابراهيم سـلامة المصرى يضع كتابا فى بلاغة أرسـطو بين العرب واليونان يقول فيه : ان البيان العربى قد ابتدأ بالجاحظ ، وان « بيانه » قد اختلط فيه النقد مع القاعدة البلاغية ، والتقت فيه عدة ثقافات • ثم بين لنا ان ابن المعتز قد عرض لبلاغة عربية المثل ، عربية الاصطلاح ، عربيـة المأخذ ، ولو أنـه عاصر « قدامة بن جعفر » الذى اطلع على كتابى أرسطو « الخطابة والشعر » ولكنه جعل كتابه فى البلاغة العربية وفى النقد الادبى عربيا أصيلاً فى عبارات اصطلاحية لها دلالتها الخاصة من ناحيتها اللغوية ، ووجد فيما قرره الجاحظ من المصطلحات ما أعانه على تقسيم كتابه ، هـذا

التقسيم الدقيق الذي فرق بين الصنوف الخمسة الاولى للبديع وبين الصنوف الاخرى التي سماها بالمحسنات .

ثم تتبع الاستاذ سلامة ابن المعتز فيما يكون له شبه بالبلاغة اليونانية ، فقرر ان الاطالة واضحة ، وخطة ابن المعتز بالقياس الى خطة أرسطو غاية في البساطة ، بعيدة عن التحديد المنطقي الذي عرف به أرسطو في تعريفاته . ثم قرر أن الشبه بينهما حاصل في خطة كل منهما ، فكما ان ارسطو تتبع شعراء اليونان واستخرج من كلامهم بلاغته وفنه ، كذلك تتبع ابن المعتز شعراء العربية مسجلا في أشعارهم الموضوعات البلاغية .

ولكن الدكتور سلامة لا ينفي أن قدامة بن جعفر قد أخذ عن أرسطو - المعلم الاول - وتأثر بكتابي « الخطابة والشعر » ولكنه يعود فيقول : ان شخصية قدامة بقيت ظاهرة .

ولابد لنا أن نقول هنا شيئا ، وذلك ان هؤلاء الذين يذهبون هذا المذهب ربما كانوا يطلقون الاقوال قبل الرجوع الى المظان المعروفة ، وربما كان ذلك راجعا الى انهم قد استقرت في أذهانهم فكرة الدخيل الاغريقي في جميع ألوان المعرفة العربية ، ومن أجل هذا يطلقون هذه الاقوال ثم يقيدونها على الشكل الذي عرفنا . فكتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر مادة في البلاغة العربية والنقد العربي كما عرفه الأقدمون .

والمطلع على الكتاب لا يجد صعوبة في اكتشاف الحقيقة وهو ان هذا الكتاب عربي في شكله ومادته وترتيبه ومصطلحاته الفنية مصطلحات لغوية لا تختلف كثيرا عما وجدناه في « بديع » ابن المعتز .

وقد بين الدكتور سلامة ان العرب لم يتركوا أنفسهم يندفعون في البلاغة اليونانية . التي جذبهم اليها « قدامة » وقد تعقبه « الآمدي » في « الموازنة » .

وتعقبه العسكري في الصناعتين وقال ان خطأه فاحش في كثير مما ذهب اليه ، ولم يرض الجرجاني بما فعله ووعد في « الوساطة » أن يكتب في موضوع البديع .

ويبدو ان الدكتور سلامة مؤمن بصلة البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية ، فقد قرر مع هذا ان هذا الاخذ لم تنقصه الفطنة ولم يغب عنه الذكاء العربى

ونحن لا ننكر التأثر فى هـذا الميدان التأثر الذى لا ينصب على المادة والاصول وانما ينصب على الشكل .

فالاسلوب الجدلى والمحاكمات العقلية التى طبعت على كتب البيان ذات عـلاقة بالاسـاليب الدخيلة اليونانيـة فى البحث ثم ان شـيوع طائفـة من الاصطلاحات راجـع الى هـذا ايضا كالقول بالتجريد والقيـاس والاطلاق وغير هـذا .

عرف العرب كتب أرسطو فقـد سموا (كتـاب الخطابـة) أو الفن الخطابى بـ (ريطوريقا) (Rhethorique) وسموا كتابـه (الشـعر) (ابوطيقا) . وقد ذكرهما صاحب الفهرست فى مجموعة كتبه (المنطقيات) . وقد نقل الفيلسوف العربى ابن رشد كتاب الشعر الى العربية .

ويشير الدكتور سـلامة فى كتابـه الى أن العرب قـد عرفوا مبادىء السوفسطائين وفلسفتهم . واهتمام اولئك بالبـلاغة والخطابة ، جعل العرب يهتمون بالخطابة والبلاغة وأساليبهما وبهذا تأثر ابن المقفع فقد عرف هؤلاء ، وكأن الدكتور سلامة يريد أن يقول ان النثر الفنى متأثر بهذه المبادىء وهذه الفلسفة ، ذلك انه يقرر ان ظهور النثر الفنى كان مع ظهور السوفسطائين فى القرن السادس قبل الميلاد .

وقد ذهب الدكتور طه حسين الى هذا ايضا فقد انتهى الى : ان البيان العربى نسـيج جمعت خيوطه من البـلاغة العربيـة فى المادة واللغة ، ومن البلاغة الفارسـية فى الصورة والهيئة ، ومن البـلاغة اليونانية فى وجوب الملاءمة بين أجزاء العبارة .

على ان هذا التيار لم ينقطع فقد زعم المحدثون ايضا ، جريـا على سنة الاعاجم : ان النحو العربى متأثر بالثقافة اليونانيـة أو قل بمنطق أرسطو . والى هذا ذهب الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فى مقالة نشرتها مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربيـة سنة ١٩٤٨-١٩٤٩ وموضوعهـا « منطق أرسطو

والنحو العربى » وقد أشرنا الى المقالة فى غير هذا المكان •

وقد بنى رأيه فى تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو على أمور :

(١) اعتبار القياس أصلا من أصول النحو وتحديده ووضعه على نحو ما حدد القياس المنطقى ثم التشابه بين ما جاء من تقسيم الكلمة عند سيبويه الى اسم وفعل وحرف وما جاء من تقسيمها عند أرسطو الى اسم وفعل وأداة •

(٢) ظهور النحو السريانى فى مدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى على مقربة من نحاة العرب الاولين ثم ترجمه عبدالله بن المقفع لمنطق أرسطو التى تعد كما يقول ثروة جديدة نقلت الى العالم الاسلامى •

(٣) تلمذة بعض السريان على الخليل بن أحمد كحنين بن اسحاق الطبيب السريانى المعروف الذى كان له أثر كبير فى نقل علوم اليونان • وقرر الدكتور ان حنينا قد عاصر الخليل وسيبويه ، وليس مذكور أول من ذهب الى هذا فقد قال بهذا القول قدماء ومحدثون •

ومن القدامى من ذهب الى هذا ابن أبى اصيبعة فى « عيون الانباء » ١ : ١٨٤ ونقل عنه هذه الرواية القفطى فى « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » ص ١١٧ •

ومن المحدثين الاستاذ أحمد أمين فى « ضحى الاسلام » ١ : ٢٩٨ ورد هذه الاقوال يقوم على ان الخليل لم يعاصر حنينا فوفاة الخليل كانت فى سنة ١٨٠ أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، وان ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ • فلم يدرك اذن حنين الخليل ولا رآه ، والزعم باطل •

والاستاذ (دى‌بور) فى تاريخ الفلسفة فى الاسلام يذهب الى تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو ، كما ذهب الى هذا غير واحد من المستشرقين •

على ان نظرة واحدة الى النحو العربى تظهر بعد هذه المادة عن كونها متأثرة بالمنطق الارسطى • ولئن وجد شىء دخيل فيها لهو شىء خاص بالشكل دون الاصل وبالاسلوب دون المادة ، فالتقسيمات النحوية كالجنس والنوع ، الخاص والعام والمطلق والمجرد من هذا الدخيل الوافد على هذه المادة الاصيلة فى عروبتها •

في الثقافة السريانية

كان للآراميين تأثر كبير في الثقافة العربيــة فهم نقلة الفكر اليوناني ، ومن ثم فلغتهم السريانية كانت مصدرا من مصــادر المعرفة التي تزود بهــا المسلمون وعرفوا فيها فلاسفة الاغريق • اذن ما هذه اللغة ؟

اللغة الآرامية احدى اللغات السامية الغربية التي تشتمل على اللغــات الآتية : الفينيقية ، الرهاوية ، الفلسطينية ، القبطية ، المندعية وأشهرهــا لغة الرها أو حران • وقــد كتب بهــا الكتاب الاوائل أمثال ابن ديصان المتوفى ٢٢٢م ويعقوب فرهاد أو أفرهاط المتوفى (سنة ٣٤٥م) وأفرام الســرياني المتوفى (سنة ٣٩٧) وربولا الرهاوي المتوفى سنة ٤٣٠م وكثير غيرهــم • ويقول المستشرق الفرنسي (رينان) Renan في كتابه Histoire générale des langues semitiques 1850 التاريخ العام للغات السامية : « ان الآرامئيــة في القرن السادس قبل الميــلاد طمست كل اللغــات التي سبقتها وأصبحت اللغة الاولى خلال أحد عشر قرنا والمعبر الاول للعقلية السامية » •

ويقول الاب هنري لامنس اليسوعي في مقال له في مجلة المشرق سنة ١٩٠٣ (ص ٧٠٥-٧٠٧) : « ومن عجيب الامور ان انتشار لغة الارميين بلغ على عهــد الســلوقيين مبلغــا عظيما ، فأصبحت اللغة الســائدة في كل آسيا السامية ، اعني في سوريا وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب • وكان المسلمون يدرسونها لكثرة فوائدها • وقد كتب بها الارمن مدة قبل انتشار الارمنية وحروفها ، وقد بلغ امتداد هــذه اللغة الى أقاصي الشرق في الصين شمالا وفي الاقطار الهندية جنوبا ، كما انها بلغت جنادل النيل • فلا نظن ان لغة اخرى حتى ولا اليونانية جارت السريانية في اتساعها اللهم الا الانكليزية في عهدنا » •

وظلت الآرامية نشيطة حتى جاء الفتح الاســلامي فأخذ يسري اليهــا الضعف لاتصال اهلها بالعرب وهكذا تغلبت عليها العربية في القرن العاشر

وبقيت الآرامية لغة دينية مقرها الكنيسة تقام بها الصلوات وتلقى بها الخطب والمواعظ وصار علماء الدين يشرحون الكتاب المقدس للناس بالعربية وما زالت مستعملة فى كنائس السريان والكلدان والموارنة الى اليوم ٠

وقد تغلبت العربية على الآرامية فى المدن وما جاورها بسبب كثرة العرب فيها ومخالطة أهلها لهم ، أما الاماكن التى لم ينزلها العرب فلم يزالوا يتكلمون بالآرامية الى الآن منها قرى معلولا ونجعة وجب عدين فى شرق دمشق ، وجبال طورعيدين وقرى آثور وجبال كردستان وزاخو ٠ والجانب الغربى من بحيرة اورمية ٠ حتى ان لبنان مع قربه من عاصمة الخلافة العربية على عهد الامويين ظلت فيه الآرامية اللغة العامة زمانا طويلا بعد القرن العاشر ، واستمر أهله فى بعض جهاته العالية العزلاء يستعملون الآرامية حتى بعد القرن الثامن عشر ، كما يظهر مما كتبه العلامة جورجيوس السدانى المارونى فى كتابه « المنارة » الذى ألفه سنة ١٦١٩ ، ومما ذكره العلامة مرهج بن غرون الباتى المتوفى سنة ١٧١١ فى كتابه « سلاح الايمان » المطبوع بروما ١٦٩٤ انه قال : « انه لامر يستوجب الاعتبار ان بشرّى وقرية حصرون التى تبعد عنها قليلا وثلاث قرى ومزارع غيرها تحاذيها قد حفظ سكانها ولم يزالوا حافظين اللغة السريانية القديمة فبها يتكلم الرجال والنساء غالبا » ٠ ويقال ان العلامة السمعانى الشهير المتوفى ١٧٦٨ لما عاد من روما الى قريته حصرون خاطب والدته باللغة السريانية ، وفضلا عن ذلك فان عددا لا يحصى من الالفاظ الكنيسية المنقولة عن الآرامية ما زال مستعملاً عند الخاصة والعامة من نصارى لبنان وسوريا والعراق كالشماس والقسيس والكاهن والهيكل والمعمودية والمعمدان والاشبين والقداس والقربان والطبليت والزياح والناقوس والدنح والفصح والمكوت الخ ٠٠٠ ومئات من أسماء المدن والقرى والاعلام وغيرها باقية على أصلها الآرامى فمن أسماء المدن والقرى صيدا « الصيد » عانا « الغنم » عين طورا « عين الجبل » برمانا « محل الرمان » بكفيّا « محل الحجارة » بتدين « محل الحكم والدين » بزمار « محل الترنم » ماردين « الحصون أو القلاع » جزين « كنوز » كفريا « القرى » راشيا

« الرؤوس » فاريـا « الثمار » رشميا « رأس الميـاه » كفر زينـا « قريـة السـلاح » •

ومن أسماء الاعلام نهرا « نور » شليطا « متسلط » سابا « شيخ » مرتا « سيدة » ، ومن غير أسماء القرى والأعلام فما زالت العربية الدارجة في لبنان والموصل وغيرها تحوى الكثير من هذه الرواسب الآرامية مثال ذلك « شكارة » وتعنى قطعة أرض وهى مستعملة فى العراق جنوبيه وشماله ، ومن يرجع الى رسالة الدكتور الجلبى عن « الآثار الآرامية » يتبين صدق هذه الدعوى ، ولعل وزن فاعول أصيل فى الآرامية أكثر منه فى العربية ، وجريانه على الآلات والادوات مثل ساطور وشاقوف « آلة القطع » السريانيتين ، وقد بقيتا فى العربية • اقول أصيل فى السـريانية أكثر من اصالته فى العربية لان هـذا الوزن شاع شيوعا فى عاميتنا فى باب الوصف وغيره وما هو الا لان المد من اطالة الفتحة جريـا مع الذوق العامى ، فلعوب تصبح « لاعوب » ، وشغول تصبح « شاغول » ، وعمود تصبح « عامود » والى آخره •

وقد حصل مع تمادى الايام فى الآرامية الرهاوية نفسها بين الشرقيين والغربيين بعض اختلاف فى اللفظ لم يؤد الى جعلها لغتين بل صيرها لهجتين : شرقية وتعرف بالـكلدانية ، وغربية وتعرف بالسريانية وهى لهجة الموارنة والسريان الـكاثوليك واليعاقبة حيثما وجدوا ، والاختلاف الرئيس بينهما فى الحركة المسماة « زقافا » فهى تلفظ عند المشارقة فتحا طويلا أو ألف مد ، وعند المغاربة ضما طويلا منفرجا كأنها حركة O فى اللغات الاوربية مثال ذلك عانا وتعنى الغنم فى اللفظ الشرقى وعانو على طريقة الغربيين ، وكذلك ارعا وتعنى الارض فى اللفظ الشرقى وارعو على طريقة الغربيين •

ومما تجب الاشارة اليه ان العين الآرامية يقابلهـا الضاد فى العربية ويذكر القس بول الـكفرنيسى الراهب اللبنانى انه سمع سكان قرية معلولة وهى فى القسم الغربى يتبعون الطريقة الشـرقية فيسمون السوق « شوقا » والبيت « بيتا » والنهر « نهرا » الخ •

والاسلوب الشرقى هو القديم وهو الذى حفظ صورة الآرامية الاصيلة

يدلنا على ذلك ما ذكره مرهيج الباني عن لغة شمال لبنان ومنها بعض الالفاظ التي زالت في اللسان الغربي على صورتها الآرامية الاصيلة أي بالالف المطلقة (يغر ساهدوثا) وتعنى رحمة الشهادة والكلمة هي نفسها في العبرية ٠ ومنها الالفاظ التي ما زالت على اللسان الشرقي ولا يعرف بالضبط متى حصل هذا الانقسام ٠

وكان السريان يتناقلون اللغة تناقلا الى القرن السابع للميلاد فابتدأ بعضهم يؤلف في نحوها وبعضهم في جمعها وقاية لها من الضياع بسبب اختلاطهم بغيرهم من الامم ٠

وأول من ألف في نحوها كتابا يرجع اليه ويعول عليه الاسقف يعقوب الرهاوي المتوفى سنة ٧٠٨م ، وكذلك يوسف الاهوازي استاذ مدرسة نصيبين المتوفى سنة ٨٥٠م ، ثم أبو زيد حنين بن اسحق المتوفى سنة ٨٧٣م ، وايليا الطيرهاني المتوفى سنة ١٠٤٩م وابن العبري الشهير المتوفى سنة ١٢٦٨م الذي ألف كتابه المسمى بكتاب الاشعة (كتابا دصميا) وعنه أخذ كل من صنف بعده في النحو ولاسيما نحاة الموارنة ، ومن هؤلاء يوسف العاقوري ١٦٤٨ واسحق الشدراوي ١٦٦٣ وابراهيم الحاقلاني ١٦٦٤ والخوري بطرس التولاوي ١٧٤٥ ويوسف السمعاني ١٧٦٨ والاب نعمةالله الكفري ١٩٠٧ والمطران يوسف دريان ١٩٢٠ والاب جبرائيل القرداحي ومن غير الموارنة المطران يوسف داود السرياني ١٨٩٠ صاحب « اللمعة الشهية » والمطران يعقوب اوجين منّا الكلداني ١٩٢٨ ٠

ومن الذين ألفوا في جمعها وشرحها على ترتيب الابجدية أبو يحيى زكريا المروزي ٨٩٩م وأبو الحسن بن علي ٩٠٣م وأبو الحسن بن بهلول ٩٦٣م وجورجيوس السداني الماروني المتقدم ذكره في كتابه المنارة ، والقرداحي صاحب اللباب ٠

وقد ألف المستشرقون الاوربيون ايضا في نحوها كما ألفوا في أدبها كما سيأتي ذكرهم في الكلام على الادب ٠

ومن المشارقة محمد بن عطية الابراشي والعناني وليون محرز ، ألف هؤلاء كتاب المفصل في قواعد اللغة السريانية وآدابها ، اتبع فيه مؤلفوه

طريقة المستشرقين ولم يكن من بين مظانهم أى كتاب شرقى •

أما كتابة اللغة الآرامية فأقدم قلم يعرف لهـا هو القلم الفنيقى • وقد وجدت كتابات آراميـة به فى شمالى انطاكية وفى خرائب نينوى وجزيرة أسوان بمصر يرقى عهد أقدمها الى القرن الثامن ق•م وقد بقى الآراميون يستعملون هذا الخط حتى القرن الاول قبـل الميلاد ثم أخذ آراميو الرها وبابل وتدمر والشام وفلسطين وحوران يتفننون فيه حتى تفرع منه لكل قوم قلم خاص بهم • وكان القلم الرهاوى المسمى باللفظ اليونانى اسطرنكيلا ويعنى المستدير أجمل هذه الخطوط ولذلك غلب استعماله فى الجزيرة ما بين النهرين والعراق والشام ولبنان (ومن هذا أخذ العرب الخط الكوفى) ثم تفرع عنـه عند الغربيين فى نحو القرن السابع القلم الغربى المعروف بالسريانى ، وعند الشرقيين فى نحو القرن الثانى عشر القلم الشرقى المعروف بالكلدانى وهو شبيه بالرهاوى •

وقد امتاز الكتاب الآراميون باستنباطهم فى نحو القرن السادس النقط الدقيقة حركات لكتابتهم • ثم شرع الغربيـون منذ القرن الثامن يستعملون ايضـا الحركات الخمس المأخوذة عن الحروف اليونانيـة التى اسـتنبطها تاوفيلوس الرهـاوى المـارونى المتوفى سـنة ٧٨٥م عنـدما ترجم الالياذة والاوديسيا الى الآرامية وربمـا اقتـدى العرب والعبرانيون بالآراميين فى استنباط الحركات •

اذن فاللغة التى نسـميها اليوم سريانية ليست لهجة من الآرامية كما يذهب المستشرقون وأولهم William Wright فى مقالته وتبعهم فى ذلك مؤلفا الادب السريانى المطبوع حديثا(*) •

ولابد لى هنا أن أشير الى التعقيبات البارعة للمطران بولس بهنام مدير المدرسة الاكليركية الافراميـة بالموصل فى مجلته « لسان الشرق » هـذه التعقيبات على كتاب الاستاذين المصريين مراد والبكرى لانهما أثبتا كما أثبت أصحاب المفصل السالف الذكر فى المقدمة : ان السريانية لهجة محلية من اللغة الآرامية •

(*) تاريخ الادب السريانى (مراد كامل والبكرى) •

اقول كما يقول غيرى ان هذا الزعم غير صحيح وذلك ان الآثار التى ظهرت اخيرا تؤيد هـــذا ومنهـا كتـاب احيقار الحكيم وزير سـنحاريب ملك آشور •

والـكتاب المقدس يسمى اللغة السريانية باسم « الارمية » دائما كما جاء فى سفر الملوك ودانيال وعزرا واشعيا •

ويسمى العلماء الاقدمون السريانية اللغة النهرية كما جاء فى كتاب « الفصاحة » لانطون التكريتى • ولفظ آرامية وسريانية تتناوبان كما يدل على هذا ما يرد فى هذا الباب فى كتاب مختصر الدول لابن العبرى وقد أنكر المتأخرون ممن كتب فى الموضوع مثل يوسف داود صاحب اللمعة أن تكون السريانية فرعا للآرامية • ومن أجل هذا ترد كلمة سريانية مردفة بالآرامية كما جاء فى اللؤلؤ المنثور لمار اغناطيوس افرام الاول ويبدو انه لا فرق بين السريانية والآرامية فهما لغة واحدة ، وقد جاء فى تفسير سفر دانيال لابن العبرى « وتكلم الكلدانيون أمام الملك بالآرامية » ثم يقول وتكلم الكلدانيون بالآرامية أى بالسريانية ، فالسريانية اذن هى الآرامية عينها أدى بهـا تقادم العهد الى ارتداء حلة جديدة كما سنعلم فى بحث اللهجات الآرامية •

لهجات اللغة الدرامية

قال ابن العبرى فى المدخل فى تعليقه على الحركات السريانية : « ان اللغة السريانية تفرعت الى فروع كثيرة أكثر من جميع اللغات وذلك لانتشارها فى بلاد شتى ، بعيدة عن بعضها ، فصار بين اللهجة والاخرى بون شاسع لا يستطيع معه أبناء اللهجة الواحدة أن يفهموا المتكلمين ببقية اللهجـات الا بواسطة الترجمان كأنهم يسمعون لغة غريبة عنهم » • ويحصى ابن بهلول فى معجمه ست عشرة لهجة سـريانية ، والمعجم مطبوع فى باريس ، وقـد حققه المستشرق R. Duval .

وكانت هذه اللهجات نتيجة انتشارها الواسع فى البـلاد العديدة من جهة وامتزاج الآراميين أنفسهم بأمم غريبة اخرى من جهة ثانية • وكل تلك

اللهجات هي فروع عن الاصل اللغوى القديم الذى يعد لغة دولية عامة كما نفهم ذلك من قراءة سفر الملوك ، وسفر اشعيا .

ولابد من القول ان تقسيم هذه اللغة الى شرقية وغربية هو من باب التجوز وتسهيل الامر ، وأول من ذهب الى هذا المستشرقون ، ذلك اننا لا نستطيع أن نقول ان لهجة فلسطين هي غربية لانها كما بينا آرامية بابل جاء بها اليهود بعد السبى البابلى . اذاً فلابد لنا أن نقيد القول بالتقسيم الى شرقية وغربية ، وذلك كما بينا ان الاولى مفتوحة الآخر ، والثانية مزقوفة أى مضمومة .

يقول (ماسبرو) فى كتابه تاريخ شعوب الشرق القديم ص ٧٧٥ : « ان لغة بابل ونينوى الآرامية ذاتها تفرعت الى فرعين ابان مجد الدولتين البابلية والآشورية » . ويقول ايضا : « ان اللهجة المصقولة التى كان كتّاب نينوى وبابل يستعملونها فى عهد هيرودتس لانشاء الكتابات الرسمية ، كانت قد أضحت منذ زمن طويل تشبه لغة نبيلة يفهمها فئة من الناس ويجهلها السواد من العامة ، وكان العامة من سكان القرى والمدن يتكلمون باللهجة الآرامية التى كانت أثقل من تلك وأوضح وأكثر تفصيلا » . ومعنى هذا ان الآرامية الام تفرعت الى هذه الفروع الكثيرة بواسطة اللهجات المحلية فى كل حاضرة من حواضر الممالك السحيقة فى القدم فى حين ان الفصيحة حافظت على كيانها ، شأنها شأن اللغات السامية الاخرى .

تعليق على مقال « عربي ، آرامي ، عبري »

قرأت فى مجلة « سومر » فى المجلد الرابع عشر لسنة ١٩٥٨ ، مقالة للاستاذ عبدالحق فاضل عنوانها (عربى ، آرامى ، عبرى) ، وسررت لعناية المجلة بهذه الدراسات اللغوية ، ذلك ان العربية قد افتقرت الى هذا النوع من البحث الذى يقوم على المقارنة والموازنة • والمقارنة وسيلة علمية مهمة من وسائل علم اللغة الحديث (Linguistique) •

اذن فالموضوع من الموضوعات المهمة لدراسة العربية على اسلوب جديد ، يحقق الغرض الذى نصبو اليه فى رسم تاريخ علمى لهذه اللغة التى انقطعت عنا حلقاتها الاولى • ومن ثم كان اهتمامى بالمقالة كبيرا ، ذلك انى سلخت أعواما فى موضوع هذه اللغات السامية وفى مادة مقارنتها بغية الوصول الى فهم مشكلات هذه العربية نحوا وصرفا ولغة •

وكاتب المقالة ممن عرفه العراقيون من ادبائهم ، تستهويه المعرفة فيتعقبها ويسعى اليها ، وهو مشكور لهذه الهواية المستحبة ، ولاندفاعه فى التزود من المعرفة ، على أن زاد الاستاذ الفاضل متعدد الجوانب ، فقد كتب فى القصة منذ سنين ، ثم استهواه (الخيام) تأثرا فثار ثورته ، ثم هو من كتاب المقالة القصيرة تبحث فى مختلف شؤون العصر ، وما أدرى فلعله نظم الشعر ، وربما كان حبه للمعرفة هو الذى دفعه الى أن يسلك سبيل البحث فى اللغة على طريقة المقارنة •

غير أن سلوك هذا السبيل مضن شاق ، فصاحبه ملزم أن يكون له من الوسائل ما يسهل عليه هذه المهمة الشاقة العسيرة ، والاسلوب الذى درج عليه الكاتب الفاضل يقتضيه أن يكون على علم بالاصوات واللهجات وتاريخ علوم اللغة عامة •

(١) راجع مقال » عربى ، آرامى ، عبرى « لعبدالحق فاضل (سومر ١٤) [١٩٥٨] ص ١٨٠ ــ ١٨٨ •

وقد بدا لى حين قرأت مقالة السيد الفاضل أن أكتب شيئا فى الموضوع ، تحقيقا للغرض العلمي الذى نسعى من أجله ، وايمانا منى أن البحث العلمى جهود متظافرة لحشد كبير من الناس للوصول الى الحقيقة • ولا أريد أن أعقب على قول الاستاذ الفاضل عن علاقة اللغة الآرامية بالآراميين وصلتهم بآرام أحد أبناء سام بن نوح ، لان ذلك غير مجد ، ولسنا نستطيع أن نقول فيه شيئا كثيرا • ولكنى سأعرض للموضوع جملة وتفصيلا ، فقد جاء فى مقالة السيد الفاضل : « وأود هنا أن أعرض « رأيا لى » فى العلاقة بين اسم العربية والآرامية والعبرية لا يسنده نص قديم ولا حديث ، وانما هو « نظرية » خطرت لى منذ أعوام وما زلت أتحدث فيها كلما دعت مناسبة ، فلم أجد حتى الآن عند أحد ما ينقضها ولا ما يبرمها » •

ثم يشير صاحب المقالة الى القرابة اللغوية بين هذه اللغات الثلاث وذلك انها انحدرت من لغة واحدة كانت أما لهن ، ثم انه قد خرج عن هذا الاصل اللغوى لهجات عدة استحالت الى لغات بمرور العصور الطويلة • على انه يخلص من هذا الى « رأيه » وهو ان كلمتى « عربى وأرمى » كلمة واحدة ، ولم يختر « آرامى » لان هذه الاخيرة تفسد عليه كثيرا من رأيه كما سنرى ، وانهما كانتا (رتقا ففتقها تطور الحدثان) • وأنا أقول ان الكلمتين لم تكونا « رتقا » حتى « فتقتا » فى مقالة الاستاذ الفاضل ، ذلك ان كلمة « آرامى » و « آرامية » ولا بأس أن نستخدم « أرمى » على نحو ما يريد كاتب المقالة ، و « أرمية » ، من الكلمات التى تشير الى لغة معينة ذات اصول معروفة ، وتاريخ معين ، ووطن معين معروف[٢] وان هذه متميزة عن العربية

---

(٢) كان للآراميين دويلات ومن هذه آرام النهرين « آرام نهرايم » والمقصود بالنهرين الفرات والخابور ، وموطن هذه الدويلة فى الرقعة الكائنة بين هذين النهرين بامتداد سوريا • انظر ،

Roger, T. O. Callaghan, Aram Nahraim (Rome, 1948), 143.

ومن هذه المواطن ، دويلة حران وقد اطلق عليها (فدان آرام) انظر سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ؛ ٢٨ : ٢ ـ ٧ ؛ ٤٦ : ١٥ • وقد استوطن الآراميون فى دمشق فى حدود القرن الثانى عشر ق•م ، انظر طه باقر مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ٢/٢٧١ •

بوضوح وجلاء ، وينبغي على هذا أن « عربي » و « أرمي » ليس واحدا •

ولابد أن نأتي الى تفصيلات لنقول فيها ما يفسد على كاتب المقالة « رأيه » أو « نظريته » • لقد ظن الاستاذ الفاضل ان موضوع « الابدال » في اللغة يوصله الى ما يريد ، وهكذا افترض أن العين في « عربي » و « عربية » وجميع صور الكلمة صارت همزة ، واستدل على ذلك بأن أمما كثيرة لا تستطيع نطق العين ، ومن هؤلاء « الفرس » فهم يكتبون العين وينطقونها همزة كما مثل بقولهم « اتهادية آراب » ويريدون بها « اتحادية أعراب » وتعني عندهم « الجامعة العربية » •

ولقد فات كاتب المقال أن الامم السامية تنطق بصوت العين وهو من أجل ذلك ظاهر في لغاتهم جميعا ، وأكبر الظن أن الصوت قد وجد في الاكدية ولكنهم رسموا له الرسم الذي اتخذوه للهمزة وذلك لقرب الصوتين في المخرج ، وعلى هذا فلم تكن « العين » كما أراد الكاتب سيئة الحظ • وقد أبدلت العين من الهمزة كثيرا في العربية ولم يحدث العكس في العربية مطلقا • وهذا ما اصطلحوا عليه بالعنعنة[3] وقد خصوا هذا النطق بتميم وقيس من قبائل العرب ، وعلى هذا جاء قول الشاعر ذو الرمة :

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم[4]

على أن اللغات الآرامية قد خلت من هذا الابدال ما عدا لغة الرها ففي هذه اللهجة تبدل العين همزة ، وليس الابدال مطلقا ، وانما قيد بكون العين قد اتبعت بالهاء[5] ، وفي هذا ضرورة صوتية وذلك لتعذر اجتماع العين والهاء عندهم •

وأراد كاتب المقال أن يستفيد من موضوع الابدال مستدلا على قوله بعسر نطق العين ، فذكر ان العرب يبدلون من العين نونا كما في قولهم « ينطي » • وأود أن أقول ان هذا لم يكن ابدالا ، وقد توهم الاقدمون

---

(٣) ابن الحاجب ، شرح الشافعية ٣/٢٠٣ •

(٤) انظر ديوان ذو الرمة نشر مكارتني جاء في البيت : أعن ••• والمراد أأن •

(٥) القس بولس الكفرنيسي ، غرامطيق اللغة السريانية ١٦ •

وحسبوه لهجة وقيدت هذه اللهجة ببكر وقيس[٦] وعرفت بالاستنطاء وعليها قرئ (انا انطيناك الكوثر)[٧] ، ومنه حديث رسول الله (ص) : « وانطو التبجة »[٨] . وملاك الامر في هذه « النون » انها لم تكن مقابلة للعين في « أعطى » وانما جاءت من أن الفعل كان « أتى » بمعنى « أعطى » ثم ضعف الفعل فصار « أتى » بتشديد التاء ، ومعلوم ان فك الادغام في العربية وفي غيرها من اللغات السامية ، يقتضي ابدال النون بأحد الحرفين المتجانسين كما نقول في العربية « جندل » وهي من (جدل) بتشديد الدال وهذا كثير معروف ، وربما ابدل الراء بأحد الحرفين المتجانسين كما في السريانية كما في (ترين) و (ترتين) بمعنى (اثنين) و (اثنتين) وقد حدث مثل هذا في العربية كما في « فرقع » وهي من « فقع » بتشديد القاف ، وكما في « قرضب » وهي من « قضب » بتشديد الضاء ، وعلى هذا « أتى » بتشديد التاء تصبح « أنتى » بفك الادغام ثم يحصل ابدال الطاء من التاء وهذا شائع في العربية كما في « نقطة » و « نكتة » . و « أتى » بمعنى « أعطى » وارد في العربية كما في قوله تعالى : « وآتى المال على حبه ذوي القربى »[٩] ، وكقوله تعالى : « وآتت كل واحدة منهن سكينا »[١٠] .

ويستدل كاتب المقال بنطق العين همزة في السريانية العراقية ، وفاته أن لهجة هؤلاء قد تأثرت بأمم اخرى فالاقليم الذي يتحدث فيه النصارى بالسريانية في العراق متاخم لكردستان ولعل جوارهم لهذه البيئة ذات اللغة الغريبة عنهم هو الذي ولد عندهم هذا النطق ، والدليل على هذا ان السريانية الغربية كما في لبنان وسائر بلاد الشام قد احتفظت بنطق العين . ولعل مثل هذا قد حصل في العبرية ، فاليهودي الشرقي محتفظ بنطق العين لا يتعداه الى الهمزة ، أما اليهودي الغربي فهو يتعدى العين الى الهمزة وذلك لانه نشأ

---

(٦) انظر مادة « عطو » في تاج العروس ، ولسان العرب .
(٧) الزمخشري ـ الكشاف ٤/٨٠٦ سورة الكوثر ١ .
(٨) المصدر السابق .
(٩) سورة البقرة ١٧٧ .
(١٠) سورة يوسف ٣١ .

في بيئة لا وجود لهذا الصوت في لغاتها .

ولم يكتف صاحب المقالة بالابدال بين الهمزة والعين في « عربي » و « أرمي » وانما استفاد من مسألة الابدال بين الميم والباء قائلا : « ومخرج الباب قريب جدا من مدرج الميم في الفم » ولم يقل انهما من الشفة ، ثم قال : « فلو سددت شفتيك وقلت « ماما » لخرجت « بابا » . وكان عليه أن يقول ان الفارق بينهما أن الميم صوت يدخل فيه الانف (Nazal) على لغة أهل الاصطلاح . ولكن ابدال الباء من الميم أو العكس لم يكن مطلقا ، وانما هو مقيد بالسماع فقد سمع في العربية (أربى) و (أرمى) بمعنى واحد وربما كان ذلك مختص بجهة معينة من جهات العربية ، وعلى هذا ان الذي قال « بكة » لا يقول « مكة » كما في الآية : « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة »[11] وان كان المفسرون لا يشيرون الى من يقول « بكة » ولا يقولها بالميم[12] .

وليس من الطبيعي أن يحصل الابدال في موضعين من الكلمة الواحدة ، لانه لو جاز ذلك ، لجاز ايضا أن يحصل في الكلمة ابدال واحد فتكون « عربي » و « عرمي » . ولا أدرى ماذا يريد صاحب المقال بقوله : « واللغة الاكدية هي أم الآرامية أو اختها و ... واحتكت اللغتان وتفاعلتا تفاعلا شديدا حتى ذابت الاكدية بالتدريج واضمحلت قبل الميلاد ، ولكن بعد أن تركت آثارها العميقة في الآرامية » . ولقد غير الاستاذ الفاضل طريقته في الاستفادة من الابدال حين وجد لفظ « الارميين » فيما أثر عن « سترابون » في كلامه عن بلاد العرب وقال بالحلقة المفقودة بين « عربي » و « أرمي » .

وقد عالج كاتب المقال موضوع « عبري » و « عربي » وخلص الى القول الى أن الاول من الثاني بعد عرض طويل لصور الكلمة مستفيدا من باب « القلب المكاني » في علوم اللغة . ولا أظن أن الابدال وان القلب

---

(١١) سورة آل عمران ٩٦ .
(١٢) الزمخشري ، الكشاف ١/٣٨٦ .

المكانى يغنيان الباحث اللغوى للقطع بشىء ذلك أن الابدال وأن القلب مميزات اقليمية ضيقة قد توجد فى بقعة ولا توجد فى بقعة أخرى ، ودليلنا على هذا ما نراه فى لهجاتنا الدارجة فى عصرنا هذا وذلك أن الذى يقول مثلا « يساوى » لا يقول « يواسى » ومعنى هذا ان جهة من الجهات تقول « يساوى » على الوجه الصحيح وان جهة اخرى تستفيد من القلب المكانى فتقول « يواسى » للمعنى نفسه .

وختاما أقول : أن « عربى » و « أرمى » و « عبرى » كلمات ذوات دلالات مختلفة فكل منها تدل على لغة معينة وان كانت تؤلف مع غيرها من لغات أسرة لغوية خاصة هى الاسرة السامية .

الأعـــــلام

بحث تاريخي في اللغة واللهجات

لا أريد أن أعرض فى هذا البحث لموضوع الاعلام العربية وتطورها فى خلال العصور التاريخية ، ولا أريد أن أعرض ايضـا للموضوع نفسه معتمدا على المقارنة والموازنة بين العربية واخواتها الساميات ، علماً منى ان ما نشره المستشرق الالمانى أنوليتمان[1] مفيد وكاف فى الموضوع • ولكنى أريد أن أعرض للاعلام الحديثة فى العراق ودلالتها ومكانة هذه فى السلسلة التاريخية ، وقيمة هذه الاعلام من الناحية اللغوية •

ودراسة الاعلام فى العربية على هذه الصورة غير معروفة للدارسين والباحثين المشـارقة ذلك ان هـذا الموضـوع لم تعرض له الا كتب النحو والصرف فى موضوع (العلم) وهذا الموضوع ، عندهم يدخـل فى (باب المعارف) • غير ان المستشرقين قد عنوا بهذه الناحية تطبيقا لمذاهب البحث اللغوى الحديث ، فاللغات كافة فى العالم الغربى قد حظيت بهذه الدراسات ، وموضوع الاعلام فيها من الدراسات اللغوية التاريخية التى تخضع للتطور عبر العصور •

وقد أشرت ان لهذه الدراسة قيمة من الناحية اللغوية ، ذلك ان فكرة اقتباس العـلم تتعلق بالذهنية اللغويـة من حيث اختيـار اللفظ ذى الدلالة والمرتبط بالظروف المحيطة • وربما كان لذلك اللفظ فائدة تاريخية مقيـدة بالزمان والمكان • كما أن للاعلام قيمة اجتماعية غير خافية فهى تعكس لونا

---

(١) انوليتمان ، مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الاول) الجزء الثانى ١٩٤٨ ، والجزء الاول ١٩٤٩ •

من ألوان التفكير الانساني ، ثم انها تظهر شيئا من معالم حضارة الامة ، ومن أجل هذا فقد اهتم بها علماء الاجتماع والباحثون في الحضارات الانسانية .

ولما آلت العربيـة الفصيحة الى لهجـات عاميـة دارجة ، تبتعد بنسب مختلفة عن الفصيح المعروف ، ظهر أثر ذلك في الاعـلام الحديثة في كل جهة من دنيا العرب . ومن هنا كان لدراسـة الاعلام الحديثة في كل قطر من أقطار العربية فائدة لغوية قيمة ، وذلك لانها تكون جانبـا لغويا لابد من الاضطلاع به والتبصر فيـه ليكون ذلك معينـا على فهم العربية الفصيحة ، وليكون حلقة من حلقات التاريخ اللغوي .

وستتبين ان دراسة الاعلام تؤلف حلقة من حلقات اللهجات السائرة ، وان في الاعـلام لصورة من صور الالسنة الدارجة في عصرنا هـذا الذي ابتعد أهله عن فصيح العربية ، وفي العصور التي خلت والتي كان فيها شيء من الكلام الدارج الى جانب الفصيح المعروف . واريد أن أقول : ان الاعلام مصدر من مصادر اللغة ، ولون يظهر المألوف والدارج من أساليبها .

ولقد هدانا الاستقراء الى تقرير هـذا كمـا سنبينه في هـذه المقالة . ومعرفة اللهجات والاهتداء اليها من الامور العسيرة ذلك ان المادة اللغوية الضخمة التي بين أيدينـا لا تعين على هـذا . فالمعلوم أن الاسلام قـد جـاء بحضارة جديدة وبمجتمع جديد ، ثم انه كان العـامل الاكبر في توحيـد اللغة ، والحدث القرآني وما كان من جمع القرآن وقراءاته ثم اطمئنان المسلمين الى المصحف العثماني ، كل ذلك قد عمل على توحيد لهجات هذه اللغة في شكل قويم درج عليه العرب ، وجرت به ألسنتهم ، فشاع في لون جديد للعربية . ولا أريد أن أطيل في هـذا الموضوع ذلك اني لم أقصد اليه ، ولكني أريد أن اخلص أن العربية وان استقرت في لغة التنزيل على النمط الذي انتهت اليه ، فانهـا احتفظت بالشيء الكثير من عناصر اللهجات المحلية ، ففي القراءات التي أجمع عليها الفقهاء والتي لم يجمعوا عليهـا ،

مواد مهمة تدخل فى هذا الباب[٢] .

والمعلومات عن هذا الموضوع قليلة ولا نريد أن نعرض لاسباب ذلك ، وحسبك أن تعرف ان الاصمعى من علماء اللغة ومن رواة الاخبار والادب قال : « والعرب لا تروى شعر أبى دؤاد الايادى ، وعدى بن زيد ، وذلك لان الفاظهما ليست بنجدية »[٣] .

ولعل حرصهم على أن يسود الفصيح المشهور ، هو الذى حملهم على أن ينعتوا الشنشنة والكشكشة والكسكسة والطمطمانية والعجعجة وما الى ذلك من ألوان اللهجات باللغات المذمومة[٤] .

وفى كتب الادب ومعجمات اللغة ، اشارات للمألوف من الكلام الدارج جرى على ألسنة الناس فى مختلف الازمنة .

وسنعرض فيما يلى لموضوع الاعلام ، لنتبين الى أى حد نستطيع أن نفيد الفوائد اللغوية التى نروم الوصول اليها .

لابد لنا أن نصنف الاعلام الحديثة فى صنفين أساسيين ، وهما : الاعلام الحضرية ، والاعلام غير الحضرية ، ويدخل فى الصنف الثانى الاعلام القروية والبدوية ، وجميع الاعلام التى يستعملها غير المتعلمين من الناس .

الاعلام الحضرية

ويشتمل هذا الصنف الاول على الاعلام العربية المعروفة فى سائر عصور العربية ، فهى بذلك أعلام تقليدية . ونستطيع أن نصنف هذه فيما يأتى :

---

(٢) حسبك ان تعرف ان احدهم قرأ : (ولا تقربا هذه الشيرة) بكسر الشين وبالياء حكاه أبو زيد ، انظر : مختصر فى شواذ القرآن من كتاب البديع (شواذ البقرة) . ويحمل الجاحظ قراءتين للحسن على الخطأ ، احداهما : « وما تنزلت به الشياطون » سورة الشعراء ٢١٠٢ انظر البيان ٢/ ٤ .

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١٢١ ، المرزبانى ، الموشح ٧٣ .

(٤) ابن فارس ، الصاحبى ٢٤ .

(١) الاعلام الدينية

ويدخل في هذه الاعلام (أحمد) و (محمد) وقد سمى بهذين العلمين المسلمون[٥] في سائر العصور ، وما زال العراقيون يسمون بهما تيمنا بالنبي محمد (ص) •

ومن هذه الاعلام (عبدالله) وهو من الاعلام المركبة تركيبا اضافيا ، وذلك باضافة (عبد) الى (الله) • ومثل هذا (عطاالله) و (نصرالله) و (خيرالله) و (سعدالله) و (جارالله) و (حسب‌الله) ، وكل هذا ما زال سائرا مستعملا •

أما (عبدالله) فهو قديم جدا وقد كان معروفا في الجاهلية الاولى ، وحسبك أن تعرف ان ابا النبي محمد (ص) هو (عبدالله) ، وربما كان مستعملا في تلك الحقبة السحيقة الى جانب (عبداللات) وليس عبدالله من ابتداعات الاسلام كما يظن بعضهم • وان (عبدالله) من الاعلام التي يسمى بها المسلمون في العراق الآن عربا كانوا أم غير عرب ، وهو كذلك من الاعلام الشائعة بين اليهود والنصارى والصابئة وسائر الطوائف الاخرى • ومثل (عبدالله) (عبدالاله) ولكنه أقل شيوعا منه •

ومن الاعلام المصدرة بـ (عبد) (عبدالنبي)[٦] وهو شائع بين

---

(٥) انصرف هذان العلمان للمسلمين دون غيرهم من الطوائف ، ولكنك ربما وجدت بين نصارى لبنان من سمي (محمد) و (أحمد) وتفسير ذلك انه ربما التجأت الام التي لا ترزق أولادا ان تسمي ابنها بأسما المسلمين رجاة ان يعيش لها ولدها • والاسم (أحمد) من الاعلام التي سمّى بها الصابئة في جنوبي العراق (العمارة) ابناءهم •

(٦) بكسر النون • وربما كانت الاعلام المصدرة بـ (عبد) عند غير المسلمين نتيجة تقليد هؤلاء للمسلمين في عادات التسمية ، وربما كان (عبدالاحد) بتشديد الحاء عند النصارى في أيامنا هذه نتيجة هذا الاتصال والتأثر بذلك • وذلك لعدم شيوع هذا العلم بين النصارى في الاقطار العربية الاخرى ، أو قل بين النصارى في العصور القديمة • ومثل هذا استعمال النصارى في جميع الاقطار (عبدالنور) و (عبدالاحد) عندهم يريدون به (عبدالمسيح) وهو شائع أيضا •

المسلمين ولاسيما الشيعة منهم كما انه معروف عند الصابئة واليهود فى أيامنا هذه .

ولا تضاف (عبد) الى لفظة الجلالة وحدها ، بل تضاف كذلك الى أسماء الله الاخرى أو صفاته مثل (عبدالعظيم) و (عبدالقادر)(٧) و (عبدالغفور) و (عبدالمجيد) و (عبدالملك) و (عبدالجبار) و (عبدالرحمن)(٨) و (عبدالرحيم) و (عبدالصمد) و (عبدالحميد) و (عبدالسميع) و (عبدالحكيم) و (عبدالجليل) و (عبدالازل) و (عبدالكريم) و (عبدالودود) و (عبدالكافى) . وهذه الاعلام وغيرها على شاكلتها شائعة فى العراق من شماليه الى جنوبيه ، وربما انفردت جهة من الجهات بأعلام على هذه الشاكلة دون غيرها كشيوع (عبدالنافع) و (عبدالباسط) فى الموصل وما جاورها دون سائر الجهات العراقية .

ثم ان هذه الاعلام المركبة باضافة العبد الى اسماء الله شائعة فى الاقطار العربية وربما انفرد قطر بطائفة منها دون غيره مثل (عبدالجواد) و (عبدالمعطى) و (عبدالمولى) و (عبدالصبور) فهذه الاعلام معروفة وشائعة فى مصر دون سائر الاقطار العربية وربما تجد شيئا منها فى سوريا . وقد شاع فى المغرب العربى تسميتهم بـ (عبدالمؤمن) و (عبدالبر) وطبيعى ان العبد غير مضاف الى اسم من أسماء الله .

والتسمية بالعبد مضافا الى هذه الاسماء أو قل هذه الصفات مما جاء به

---

(٧) من الاعلام المعروفة فى العراق اليوم وهو قديم أيضا ومعروف فى سائر أقطار العربية وأكثر الذين يسمون به هم السنة من مسلمى العلاق ، وربما كان ذلك لانه اسم الصوفى المعروف (بالجيلانى) أو (الجيلى) . وقد شاع هذا العلم شيوعا عجيبا فى المغرب الافريقى بهيئته التركيبية وبهيئته المصغرة (قدور) و (قدورى) تيمنا وتبركا . كما انهم ليسمون (جيلانى) للسبب نفسه .

(٨) من الاعلام المعروفة عند المسلمين عامة غير ان الشيعة منهم يتحاشونه لانه ربما يذكرهم بعبدالرحمن بن ملجم قاتل الامام أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) .

الاسلام فقد شاعت في صدر دولة بنى امية ثم جرى عليها العرب المسلمون ثم شاعت بين غير العرب من المسلمين .

ولكن اضافة كلمة (العبد) لم تقتصر على لفظة الجلالة أو على أسماء الله وانما تعدت ذلك الى أسماء الائمة والاولياء الصالحين[٩] أو الى ألقابهم وما اشتهروا به نحو (عبدالامير)[١٠] و (عبدعلي) و (عبدالحسن) و (عبدالحسين) و (عبدالعباس) و (عبدالحمزة) و (عبدالكاظم) و (عبدالرضى) و (عبدالصاحب)[١١] و (عبدالزهرة) و (عبدالائمة)[١٢] .

ولعلك تعجب اذا عرفت أن النصارى فى العراق يسمون بأعلام انصرفت الى المسلمين فى سائر العصور التاريخية ، مثل عبدالعزيز ، وعبدالحكيم ، وعبدالفتاح ، وعبدالرحيم ، ولعل عجبك يزيد اذا عرفت انهم يحشرون هذه الاعلام الى جوار أعلام مسيحية ، وربما كانت أعلاما اوربية كأن تجد ان أحد الاطباء فى مدينة البصرة يدعى (جلبرت فرج عبدالرحيم) وليس من شك أن (جلبرت) هذا من الاعلام الاوربية . وكأن تجد بينهم (صبيح جورج) مثلا .

ولابد أن نعرض للون آخر من الاسماء المركبة تركيبا اضافيا ، وهى تلك التى تضاف الى (الدين) مثل : عزالدين ، ونجم‌الدين ، وصدرالدين ،

---

(٩) شاعت عادة التسمية باضافة (عبد) الى أسماء الائمة أو الى ما اشتهروا به كما مثلنا ، بين الشيعة من المسلمين فى العراق وايران ، على انهم يسمون بالاعلام المركبة الاخرى والتى ذكرنا طائفة منها نحو (عبدالجبار وعبدالله وعبدالحميد) وما الى ذلك .

(١٠) والمقصود بـ (الامير) هو الامام على (ر) . كما شاع بينهم أيضاء أسماء الأئمة مثل (جعفر) و (عمار) و (ياسر) وغير ذلك ، ولا تعدم ان تجد هذه الاسماء الاخيرة مستعملة عند السنّة أيضا .

(١١) والمقصود بـ (الصاحب) هو صاحب الزمان الامام المنتظر الذى يخرج عند قيام الساعة ، وهى العقيدة المعروفة عند الشيعة ، وهو المهدى المنتظر .

(١٢) والاستقراء يهدينا الى أن الاعلام آخذة فى الزوال ، بين الاسر المتحضرة والتى أخذت من الثقافة بنصيب ، فقد اقلعت هذه الاسر عن هذه العادة فى التسمية .

وشمس‌الدين وغير ذلك • ولم تكن هذه المركبات الاضافية أعلاما في العصور التي سبقت عصرنا هذا ، ذلك انها كانت مركبات تصدر بها الاعلام الحقيقية على شاكلة الالقاب شأنها في ذلك شأن الالقاب التي الصقت بخلفاء بني العباس فغلبت عليهم ، مثل المتوكل على الله ، والمسترشد بالله ، والمهتدي بالله ، وغير ذلك ، وشأنها في ذلك ايضا شأن ركن‌الدولة ، وعضدالدولة ، ونظام‌الملك وغير ذلك • فأبو البركات ابن الانباري هو كمال‌الدين عبدالرحمن بن محمد ، والمؤرخ المعروف بابن الدبيثي هو جمال‌الدين محمد بن سعيد الواسطي • غير ان هذه المركبات جرت أعلاما في أيامنا ، وربما استغني عن المضاف اليه وهو (الدين) تخففا واختصارا في المألوف الدارج من الاستعمال ، فقيل (شمسي) بالياء[١٣] في (شمس‌الدين) ، وقيل (عزي) بالياء في (عزالدين) ، وقيل (نجم) في (نجم‌الدين) • كما حدث شيء من هذا عند الفرس في الالقاب المركبة مثل (نظام‌الملك) و (علاءالملك) و (مشيرالملك) ثم حذف المضاف اليه فصارت (نظامي) و (علائي) و (مشيري) ثم غلبت هذه الالقاب فصارت كأنها أعلام ، كما غلب (سعدي) وهو لقب على اسم الشاعر المعروف •

---

(١٣) واضافة الياء في هذه الاعلام مأخوذ من الطريقة التركيبية في اعلامهم المستعارة من العربية وهي في الكثير الغالب مصادر ختمت بالياء ، مثل (صلحي) و (زهدي) و (حقي) و (فهمي) وغير ذلك • على ان هذه الياء ليست من ياء النسبة في شيء • وهذه الاعلام قد استعملها العرب في العهود التركية المتأخرة وما زالت مستعملة حتى يومنا هذا • كما استعار الاتراك ألفاظا عربية أخرى وأجروها مجرى الاعلام ولكنهم اتبعوا فيها طريقة أخرى ، ولذلك انهم ختموها بتاء معجمة محققة وهي (رفعت) و (بهجت) و (شوكت) وهذه من غير شك من الرفعة والبهجة ، والشوكة ، والهداية ، غير ان وجه الخلاف يكون في التاء فليست الكلمة العربية وهي مختومة بالتاء كالكلمة في استعمالها الاعجمي وهي مختومة بالتاء ، ذلك أن التاء في الطريقة التركية لازمة أبدا ، ولا يوقف عليها بالهاء كما في العربية ، ومن أجل ذلك كانوا على حق في رسمها بالتاء الطويلة • وقد سمي العراقيون بهذه الالفاظ تقليدا لهؤلاء الاعاجم • ولكنهم آثروا رسم التاء بالمربوطة لمحا لأصلها العربي • وقد استعمل الفرس هذا النوع من الاعلام فسموا بـ (هدايت) و (حكمت) و (نشأت) •

(٢) الاعلام التأريخية

ويدخل في هذا الصنف من الاعلام ما كان مستعملا في العصور التاريخية السالفة وقد ظل مستعملا الى يومنا هذا ، ومن أمثلة هذا النوع من الاعلام ، أحمد ومحمد وعلي وهذه الاعلام ما زالت جارية عند المسلمين كافة ، أما أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة(١٤) فهي من الاعلام التي شاع استعمالها عند السنّة منهم ، وبخاصة عند الاكراد والاتراك المسلمين •

ومن هذه الاسماء الاعلام المنقولة وهي التي نقلت من النعوت والمصادر الى العلمية مثل الحسن ، والحسين ، والفضل ، والعباس وغير هذا ، وما زالت هذه الاعلام معروفة مستعملة ولكنها مجردة عن هذه الالف واللام(١٥)

---

(١٤) قل ان تجد بين الشيعة من سمي بهذه الاعلام ، وهي ان وجدت بينهم فلفائدة ، وتلك عادة جرى عليها النساء اللواتي لم يرزقن فأنهن يتشبثن بهذه الاسماء التي يعافها الكثير رجاة ان يكتب لمولودهن الحياة والبقاء • ومثل هذه العادة معروف عند القرويين أيضا ، فالمرأة التي لا ترزق تتشبث بالاسماء التافهة والالفاظ الحقيرة رجاء ان يعيش لها مولودها ، كأن تسمي ابنها (زبالة) أو (زبانة) أو (خريبط) أو ما شابه هذا من الالفاظ التافهة • وقد حصل مثل هذا للمسلمين في الموصل المجاورين للنصارى ، فقد تعمد الام الى تسمية طفلها باسم نصراني للغرض نفسه ، فتسمية جرجيس والياس وغير ذلك من أسماء النصارى • ولابد من الاشارة الى ان (جرجيس) هو عند النصارى (گورگيس) •

(١٥) لزمت الالف واللام هذه الاعلام ، ولكنها جردت منها في الاستعمال الحديث ، تخففا واختصارا ، ونستطيع ان نقول : ان جميع الاعلام التي لزمتها الالف واللام في الاستعمال القديم ، سقطت عنها هذه الزيادة اللازمة في الاستعمال الحديث • ومعلوم ان هذه الاداة زائدة اذ لا تفيد تعريفا وتخصيصا ، وقد عبر عنها الاقدمون بانها تزاد لمحا للاصل • ولا بد ان نسجل الى ان المغاربة في أيامنا هذه يزيدون هذه الاداة في الاعلام ومعنى ذلك انهم ما زالوا يستعملون الاعلام على صورتها القديمة مثل الحسن والحسين والعباس والحمزة ، غير انهم بالغوا في هذه الطريقة فزادوا هذه الاداة في الاعلام التي لم تكن لها هذه الاداة في العصور القديمة فمن اعلامهم (البشير) وقد اشتهر مجردا عن هذه الاداة في العصور التاريخية ومثله الحبيب ، والطيب ، والهادي ، والصافي ، والعربي ، والمدني ، والتهامي ، والمكي ، والمهدي ، ولعل هذه الزيادة في هذه الاعلام آتية من ان هذه الالفاظ كانت ألقابا ثم استعملت استعمال العلم ، والعربي ،

التي كانت لازمة لها في العصور التي سبقت عصرنا هذا ، فالشائع اليوم هو (حسن) و (حسين) بالامالة و (عباس) . وقد استعمل غير العرب من المسلمين كالاتراك والفرس هـذه الاعـلام مجردة عن هـذه الزيادة في عصرنا هـذا .

(٣) الاعلام المستحدثة

وأريد أن ادخل في هذا الصنف نوعين من الأعلام :

(أ) الاعلام المستحدثة ـ ولقد كانت هذه الالفاظ مصادر فاستعيرت أعلاما مذكرة أو مؤنثة وشيوع اللفظ المستعار للمذكر أو المؤنث هو الذي يقيده بالجنس مذكرا أو مؤنثا . وربما حدث تردد في الصاق اللفظ بالمذكر أو المؤنث ، كأن تجد ان شابا من شبان هذا الزمان اسمه (ابتسام) وشابة مساوية له في العمر اسمها (ابتسام) ايضا ، وليس ذلك راجعا الى المحلية أو الاقليمية فقد يكون الشاب أو الشابة من جهة واحدة . ومثل هذا نقول (رجاء) علما لمذكر أو مؤنث ، ومثله (نجاة) .

ولابد أن نعرض لاصل هذا الاستحداث في الاعلام فنقول ان الناس قد سئموا الاعلام السائرة والتي درج عليها الناس منذ أزمنة طويلة ، فراحوا يتصيدون هذه الاعلام . وربما كان استعمال لفظ (التصيد) مصيبا في هذا الموضوع ، ذلك انهم يتوسمون أن يكون الاسم غريبا مما لم يجر على ألسنة الناس ، وأن يكون حلوا رقيقا في أصواته ومجانسة هـذه الاصوات بعضها لبعض ، ومن أجل هذا سموا (بان) علما لانثى ، والبان شجر معروف في شبه الجزيرة ، دون أن يعرفوا حقيقة (البان) ، وربما كان في أشجارهم الحضرية الانيقة ما يفوق هذا البان جمالا وبهاء ، ولكنهم لزموا البان لغرابته ولسهولته في اللفظ ولجرسه وايقاعه .

والتهامي ، والجيلاني ، ومثل هذه ، غلبة اللقب عند الفرس على العلم في باب المنسوب مجردا من اداة التعريف نحو كربلائي (حسين) ومشهدي (جعفر) لمن زار مقام الحسين في كربلاء ، ومن زار مشهد الامام الرضا ، ومثل هذا قد حدث عند القرويين في جنوب العراق فقد غلبت كلمة (زاير) وهي لقب على العلم الاصلي فيقال (زاير) ، ويقرن (الزاير) بالعلم ، فيقال (زاير ارحيمة) ، ويشير الزاير الى زائر احد المراقد الشريفة للائمة الاطهار .

وربما كان وقع الكلمة فى الاذن ومجانسة أصواتها ، هو السبب فى اختيارها دون غيرها ، ويتبين هذا مما نعرضه من الامثلة الآتية ، فقد اختاروا لفظ (هيام)[١٦] علما لانثى لما لهـذا اللفظ من وقع حسن دون النظر فى معناه ، وذلك انهم لو اهتدوا الى المعنى لعزفوا عن هذا الاختيار ، فمن معانى الهيام انه داء يصيب الابل فيكسبها العطش[١٧] والى هذا أشار الشاعر :

بيَ الحب أو داء الهيام أصابني فاياك عني لا يكن بك ما بيا

ومثل هـذا اختيارهم لفظ (سهام) بضم السين علمـا لانثى ، فصوت اللفظ هو الذى حملهم على هذا الاختيار دون النظر فى المعني[١٨] ، لان معنى السهام داء يصيب الابل .

ولعل من ذلك ايضا اختيارهم (سهاد) علما لانثى ، والسهاد الارق ، ولم يسموا (بالسُهد) مما هو فى معناه .

ومن ذلك ايضا اختيارهم (عنان) علما لانثى ، والعِنان هو اللجام ،

---

(١٦) واختيار هذه الالفاظ الرقيقة اعلاما ولاسيما للاناث مثـل (هيام) و (نهاد) و (عنان) و (ناهدة) و (نهلة) و (رواء) وما اشبه ذلك ، يشبه الى حد كبير ما حدث فى الاعلام التى غلبت على الجوارى والقيان فى العصر العباسى نحو (ناعم) و (عريب) و (ماجن) و (مشتاق) و (تباريح الـكوفية) و (بنان) بضـم الباء ، و (نشوان) و (شادن) و (زين) و (عارم) و (لاهى) و (شمسة الطنبورية) و (هاتف) و (خاضع) و (شمائل) و (عنان) ، انظر كتاب الموشى لابى الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشاء ٢١٦ ـ ٢٢٩ ، ومن هـذا (وحيد) للمغنية التى شبب بها ابن الرومى الشاعر :

يا خليـلى تيمتنى وحيـد ففؤادى بهـا معنىً عميـد

والذى نلاحظه ان أغلب هذه الاسماء مجردة من علامة التأنيث ، وربما كان ذلك تشبيها للجوارى والمغنيات بالغلمان ولاسيما فى هذا العصر الذى جد فيه هذا النوع من الهوى ، وقد نجد بين أسماء المغنيات والفنانات ما يشبه هذا فى أيامنا هذه مثل (فاتن) و (ملك) و (زهور) و (الهام) و (راقية) وغير هذا .

(١٧) انظر لسان العرب مادة (هيم) .

(١٨) انظر اللسان مادة (سهم) .

وهو السير الذى تمسك به الدابة والجمع أعنة ، ولعل صوت الكلمة دون معناها هو الذى هداهم الى (العنان) دون (اللجام) مما هو فى معناه . ولا أرى أن أحدا من الناس يرضى هذه الالفاظ أعلاما اذا اهتدى الى معانيها .

وقد اختاروا (رند) علما لانثى وليس الرند بالشجر البهى الجميل وعندهم من الاشجار ما يفوق هذا النبات البدوى .

(ب) الاعلام المستحدثة الاصيلة ــ وهى تلك التى كانت شائعة فى العلمية ثم هجرت ثم عاد اليها الناس فى أيامنا هــذه احياء لاسماء الاولين الذاهبين من السلف ، وربما كان فى هــذا الاحياء استجابة للنزعة القومية العربية . ومن ذلك انهم بدأوا يسمون بــ (خالد) و (طارق) و (عدنان) و (قصى) و (لؤى) و (دريــد)[19] و (مازن) و (رائــد) و (ليث) و (عاصم) وغير هذا مما يدخل فى هذا الباب .

ومن أعلام الاناث (عائشة) وان كانت مستعملة بلفظ عيشة بدلا من (عائشة)[20] . وقد حمل الخفاجى لفظ (عيشة) على الخطأ[21] .

ومن هذه الاعلام (دعد) و (هند) و (أميمة) و (سلمى) و (ليلى) على أن اللفظ الدارج فى (سلمى) و (ليلى) (ســلمة) و (ليلة) وكأن الالف المقصورة للتأنيث مما لا يألفــه الاستعمال الدارج الحديث وبخاصة فى العراق .

---

(١٩) ودريد من الاعلام العربية القديمة وقد جدت التسمية به فى أيامنا ، ولابد أن اذكر نكتة لطيفة فى الموضوع ؛ وذلك أن امرأة وضعت ولدا . فأريد له أن يسمى باسم من هذه الاسماء الجديدة وهكذا اقترحت احداهن (دريد) فردت عليهــا الاخرى وهى امرأة جاهلة مالنا ولهذا (الدرد) ! ومعنى ذلك أن دريد وهو اسم عربى يذكر هذه المرأة الجاهلة (بالدرد) و (الدرد) كلمة دخيلة فارسية وتعنى الهم والالم وهى كثيرة الاستعمال فى العامية العراقية واستعمالها قديم فى هذه العامية ، وقد جاءت كثيرا فى شعر الحسين بن الحجاج الشاعر البغدادى .

(٢٠) الذهبى ، التذكرة ٢٨٣/١ ؛ ميزان الاعتدال ٢٧٠/٣ .

(٢١) الخفاجى ، شفاء الغليل ١٣٤ .

الاعلام غير الحضرية

ويدخل في هذا الباب الاعلام القروية والبدوية • ولابد أن نقدم لهذا الباب بشيء لنتبين طبيعة الاعلام واصولها وكيفية اطلاقها •

واطلاق الاعلام على الذوات دليل على تقدم المجتمع الانساني بصورة عامة ، ذلك ان اطلاق الاعلام يؤلف مرحلة حضارية في التاريخ الانساني العام ، ثم ان الاعلام تعطي صورة للمستوى الحضاري الذي يمر به المجتمع • ومن أجل ذلك فالاعلام عند الحضريين ذات دلالة عالية تدل على المستوى العقلي الخاص ، في حين ان الاعلام عند غير الحضريين تدل على مستوى خاص آخر •

والذي نعرفه ان سكان القرى في جنوبي العراق غير متحضرين ، وانهم متأخرون اذا ما قيسوا بسكان المدن أو بسكان القرى الواقعة في الوسط والشمال • والناظر في أعلامهم نظر الباحث اللغوي الاجتماعي يلمح تأخرهم الاجتماعي ، فأنت تحس انهم يتشبثون بأتفه الالفاظ ليتخذونها أعلاما لهم ، كأن تجد في أسمائهم (كشاية) وهي عود القش الدقيق ، أو تجدهم يسمون بـ (خريبط) و (مطشر) وما أشبه ذلك ، وقد استوفينا ما أمكننا استيفاؤه فيما يلي هذا المكان • وربما اتخذوا من ألفاظ لا تدل على معنى معروف أعلاما لهم ، ولعلهم أحسوا أو قل تخيلوا أن يكون في هذه الالفاظ معان ، وكأن هذه الالفاظ موحية بشيء عندهم غير أن ذلك المعنى الضئيل غير معروف ولم يتم الاتفاق عليه ، ولم يجربه الاستعمال ، ومن أمثلة ذلك تسميتهم لاحد من الناس بـ (مرادو) بكسر الميم ، وآخر بـ (شليهم) ، ومثل هذا كثير عندهم •

ومما يدل على هذا انهم لا يعلقون أهمية على الاعلام ، فقد يسمون الصغير بعلم من الاعلام حتى اذا كبر اطلق عليه شيء آخر • ولابد أن نشير الى أن منهم من لا يعرف جده وقد حدث شيء من هذا عند تسجيل النفوس في احصاء عام ١٩٤٧ فقد حدث ان القائم بالتسجيل يسألهم عن اسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء أجدادهم ، غير أن نفرا منهم لم يعرف جده وهو يقول

للمسجل ببساطة تدل على بدائية أصيلة فيه : سجل ما شئت من أسماء ، وليكن (چليب) وهو تصغير الكلب . على ان من أعلامهم (بلاسم) وليس هذا العلم جمعا (لبلسم) كما يتخيل الحضريون البعيدون عن البيئة الريفية القروية ، فهو يعنى (من دون اسم) أى ان صاحب هذا العلم لم يجدوا له اسما فسموه (بلا اسم) وقد تم على طريقة نطقهم تركيب الكلمتين واستحالتا كلمة واحدة .

وهذا العلم ذو فائدة ودلالة للباحثين فى الاحوال الاجتماعية لهذا المجتمع الريفى المتأخر .

وهم يتخذون من كل مناسبة اجتماعية أو تاريخية أو دينية وسيلة لاطلاق الاعلام فمجيء حاكم للاقليم لابد أن يكون سببا فى شيوع اسمه بينهم ، ولو كان ذلك الاسم أجنبيا غير عربى ، ومن أمثلة ذلك شيوع اسم (دكسن) علما لانثى وهذا العلم اسم لحاكم انكليزى كان فى المنطقة الجنوبية فى أيام الاحتلال البريطانى . ومثل هذا شيوع اسم (عصملى) بتشديد اللام وهو يعنى (عثمانى) وشيوع (انگريزى) و (انگريزية) وشيوع (قمندار) ويعنى Commandant وهى كلمة اوربية استخدمها الاتراك فى ألقابهم العسكرية وهى استعارة فرنسية .

وانهم يتخذون من حادثة تاريخية وسيلة لاطلاق العلمية كأن يكون فى أعلامهم (حربى) وهو مشير الى اعلان حرب أو (فتنة) علما لانثى وهو يشير الى حدوث فتنة بينهم وبين قبيلة اخرى .

كما انهم يتخذون من المناسبة الدينية وسيلة اخرى ولذلك نجد من أسمائهم (زيارة) علما لمذكر وهو يشير الى حدوث موسم زيارة المشاهد المقدسة كمشهد الامام علي بن أبى طالب (ر) والامام الحسين بن علي وسائر الائمة الاطهار ، ومن أجل ذلك تشيع فيهم الاعلام المصدرة بـ (عبد) أى أن المولود عبد لهؤلاء الائمة الكرام مثل (عبدعلي) و (عبدالزهرة) و (عبدالحسين) و (عبدالعباس) والى آخره ، ولكنهم ينطقون بهذه الاعلام بتصغير المضاف فتكون (عبيدعلي) و (عبيدالزهرة) توكيدا للمعنى المراد

من هذه التسمية وذلك أنهم يتوسمون أن يكون هـذا المولود عبدا للامـام ومحتسبا له • ومن الطريف أن نذكر أنهم يمضون في هذا السبيل الى أكثر من هـذا فأنت تجد من أعلامهـم (جليبعلي) والـكلمة (جليب) مصغر (كلب) أي أن الطفل الذي اطلق عليه هذا العلم محسوب كلبا للامام علي (ر) • وربما كان ذلك تشويها للعلم (كربلائي علي) الذي أشرنا اليه •

ولابد أن نلاحظ أن هذه البدائية عند هؤلاء ربما تشير الى الطوطمية القديمة للمجتمعات البدائية الاولى • غير اننا لا نلاحظ في أعلامهم ما يشير الى التسمية بأسماء الكواكب كما يحدث عند الشعوب البدائية الاخرى ولعل سبب ذلك راجـع الى أن هؤلاء لم يكونوا من الذين يدينون بتعدد الآلهـة (Polythèisme) فهم مسلمون في عقيدتهم • أما شيوع اسم (گمر) في أعلامهـم أي القمر فذلك راجـع الى أن القمر عند هؤلاء مهم وهو ذو فائدة لا تنكر عند القرويين والبدو ، فالليلة المقمرة جميلة بضوئها الذي يشيع المتعة عندهم ، ومن أجل ذلك ظهر ذلك في غنائهم وأدبهم •

ونستطيع أن نصنف في هذه الاعلام أصنافا عدة وهي كما يأتي :

(١) أعلام بأسماء النبات :

ومنها (نخيلان) و (حرفش) و (تمر) و (هوبر) و (حنظل) من أعـلام الرجال و (تالة) و (وردة) و (شمامة) و (تفاحة) و (خيارة) و (رمانة) و (سعدة) و (شيحة) و (گيصومة) من أعلام الاناث •

(٢) أعلام بأسماء الامكنة :

ومنهـــا (غدير) و (وادي) و (نهـر) و (جبـل) و (بحر) و (شاطيء) من أسـماء الرجـال ، و (ثنية) بكسـر الثاء و (شمرة) و (مظلمة) من أعلام الاناث •

(٣) أعلام بأسماء الحيوان :

ومنهـا (فهـد) و (أســد) و (جرو) و (غزال) و (كليب) و (ذيب) و (ذيبان) و (بزون) و (عصفور) و (برهام) و (صكر) و (شبوط) من أعلام الرجال •

ومن أعلام الاناث (مهرة) و (گطاية) و (حمامة) و (طويرة) و (بنية) •

(٤) أعلام تدل على نماذج طبيعية :

ومنها (صلبوخ) و (صخريج) و (صخر) •

(٥) أعلام تدل على أدوات مستعملة :

ومنهـا (منجل) و (مجول) وهو الساعور اذا كان ذا صفين ، الجرار فى جهات الحديثة وعنة وراوة • و (دلة) و (سيف) و (خنجر) ،

(٦) الاعلام المقرونة بدخول قائد أو جيش أو معركة وما دار فيها من السلاح :

ومنها (انكريزية) و (كوكس) وهو اسم المندوب السامى الانكليزى فى العراق (وليم كوكس) و (برنو) نوع من السلاح و (قنيبلة) تصغير فى القنبلة •

(٧) أعلام تدل على الصفات :

ومنها (ثجيل) وسببه أن اللام كانت تشعر بثقله طوال مدة الحمل ، ومنه (متعب) بكسر الميم وسببه أن الام كان قد تعبت عند وضعه ، وربما كان (ثجيـل) تفـاؤلا وتوقعـا أن يكون صاحبـه ذا أخـلاق مرضية هادىء الطبع :

ومنها (مظلوم) أو (امظيليم) أو (مظلومة) ومعناه أن ولادة الطفل اتفقت مع موت أحد أبويه ، ومثله (العيبى) اشارة الى أبى الطفل الذى لم يحسن معاشرة زوجه • وقد سمعت ممن اشترك فى تسجيل النفوس سنة ١٩٤٧ ان امرأة اسمها (غدا الشر) بكسر الغين ، ومعناه ان امها وضعتها بعد جهد ونصب حتى اذا وضعت ذهب عنها الشر •

ولهم فى الاعلام أساطير لا بأس أن نعرض لشىء منهـا ، وذلك ان أحدهم فى ريف من أرياف العمارة فى مناطق الاهوار اسمه (صريوط) وهو (سيد) وللسيد عند هؤلاء الناس قدسية معروفة ينبنى عليهـا قيامـه بالخوارق من الاعمال ، كأن رصاص البنادق لايؤثر فيه ، وصاحبنا (صريوط)

من هؤلاء أصحاب السوارق فقد وضعته أمه واضطرت الى صرطه وبلعه فعاد ثانية مولودا جديدا ومن أجل هذا سموه (صريوط) والصاد ابدال من السين • ويدخل في هذا الباب التي تدل على الكفاية والتفضيل ، ومنها (بسعاد) و (وبسنة) و (كافي) و (كفاية) و (تسواهن) و (علاهن) •

(٧) الاعلام الدالة على الزمان :

وفي هذه الاعلام يشترك أهل الحواضر مع غيرهم من سكان البوادي والارياف كالتسمية بالايام فالطفل الذي تضعه أمه في يوم الجمعة يسمى (جمعة) وهكذا قل في (سبتي) لمن يولد في أيام السبت ، و (خميس) لمن يولد في أيام الخميس •

ومن هذه الاعلام (صفر) و (رجب) و (رمضان) و (شعبان) و (عيادة) لمن ولد في العيد •

على اننا نستطيع أن نتبين أن هؤلاء القرويين يقلدون في التسمية أحيانا دون معرفة معاني الاسماء التي يطلقونها في تقليدهم ، ومن ذلك ما حصل للقرويين الذين هجروا الارياف ، واستوطنوا في المدن وعاشوا الى جوار المتحضرين ، فقد رأيت أن طفلا من أطفال هؤلاء اسمه (احسان) وذلك تقليدا لاسم حضري وهو اسم صاحب البيت المجاور لهم ، ولو سألت والد هذا الطفل عن معنى الاسم الجديد لما وجدت عنده جوابا ، واستقراء أعلام النشء بين هؤلاء يدل على تقليد هؤلاء للحضريين في التسمية ، ومن ذلك أن أحدهم حلا له أن يسمي وليدة له بـ (هيام) تقليدا لغيرة وانسا بالكلمة ، ولكنه أقلع عن هذه التسمية بعد أن عرف مدلولها الشائع •

التصغير في الاعلام

التصغير معروف في العربية وأوزانه معروفة في كتب الصرف ، وكتب الصرف تكتفي بالاوزان المعروفة ، وهي تصغير الثلاثي ، والرباعي ، والخماسي •

ولكن الاستقراء في العربية فصيحها ولهجاتها الدارجة يدلنا على صيغ كثيرة في التصغير ، وقد أولع العرب بالتصغير منذ أقدم العصور ، وقد جاءت

صيغة التصغير في القرآن عدة مرات في لفظ (قريش) و (شعيب) و (عزير) و (حنين) و (سليمان) وتصغير الابن على (بني) قد جاء في ست آيات على لسان شيخ من شيوخ بني اسرائيل ، أو على لسان نبي . وقد جاءت هذه الكلمة المصغرة في ثلاثة فصول من أمثال سليمان في التوراة ؛ ولا شك ان استخدام هذه الصيغة المصغرة يؤدي غرضا معنويا .

والفائدة من التصغير معروفة فقد يفيد التحبيب ، وقد يفيد التحقير والتقليل ولعل هذا المعنى الاخير هو الذي جعل غير الحضريين من سكان القرى والبوادي يميلون الى التصغير في أعلامهم وفي الالفاظ الاخرى . ذلك ان حياتهم قاسية وبيئتهم فقيرة مجدبة فهم في فاقة وعوز وحاجة ابدا ، وليس لديهم الا التافه الحقير مما يأكلون ومما يستعملون ، ومن أجل ذلك يلصقون بهذا التافه ألفاظا مصغرة ، فلا يزهي القروي بثوبه كما يزهي الحضري المترف ، ولذا فالثوب عنده (ثويب) بالتصغير .

وللتصغير طرق غير الطرق المعروفة ، ومن ذلك أن يختم الاسم بالواو والنون ، كما في (سعدون) ، و (خلدون) ، وهذه الطريقة في الاعلام شائعة في المغرب الغربي فمن أعلامهم (حمدون) و (وهبون) و (سحنون) و (جلون) و (فرحون) وغير هذا .

وهذه الطريقة في التصغير معروفة في العامية العراقية ، فتصغير (درب) (دربونة) والتاء تفيد المبالغة في التصغير ، ومثل هذا لزوم التاء في المصغر المؤنث اللفظي في فصيح العربية ، فتصغير (ساق) (سويقة) وتصغير (عين) (عيينة) وتصغير (أذن) (أذينة) والتاء في هذه الكلمات مؤكدة للتصغير ، كما هي مشيرة للتأنيث . ومنه في الدارج العامي قولهم (بيتونة) مصغر (بيت) ، و (شيء) يصغر على (شويونة) بتشديد الياء ، و (حبّة) تصغر على (حبّونة) .

وزيادة الواو والنون للتصغير تتفق مع ما هو معروف في السريانية عن التصغير فكلمة (كتابا) تصغر على (كتابونا) ، وتتفق كذلك مع ما هو معروف في العربية عن التصغير ، فكلمة (ايشون) هو تصغير لكلمة

(ايش)[٢٢] ومعناها (انسان) ، وربما كانت كلمة (ايسان) العربية قريبة من الكلمة العبرية ٠ وربما استطعنا حمل (عبدوس)[*] على التصغير ، فالواو والسين أداة سريانية اخرى تذيل بها الكلمة لتصغر ، ولعل (حمديس) من هذا الباب ايضا ٠ ويكون التصغير بتذيل الاسم بالالف والنون كما في (بنيان) و (ثنيان) بتشديد الياء في كل منهما ٠

ولعل كلمة (حيزوم) لصدر السفينة ، صورة مصغرة اخرى ، فالحيز هو المكان ، فاذا ختم بهذه الاداة دل على مكان بعينه ، ونستطيع أن نحمل على ذلك (بلعوم) و (حلقوم) و (زردوم) ٠

والمتتبع لفرائد اللغة يجد أن طريقة التصغير تختلف بين جهة واخرى ، فالاعلام (رشيد) و (حسن) و (علي) تصغر على (رشو) و (حسو) و (علو) بالتشديد في جهات معينة من العراق ٠

وهناك من يصغر (خديجة) على (خجة) بادغام الدال بالجيم ، ومنهم يصغرها على (خدّوج) ، ومنهم من يصغرها على (خديوج) ، ومنهم من يصغرها على (خديجة) باسكان الياء ٠

أما (فاطمة) فتصغر على فطّوم) و (فطّيم) و (فطّومة) وهو شائع معروف ، وقد تصغر على (فطم) بفتحتين للتحبيب ، وقد صغرت في مصر على (فطمطم)[٢٣] كما صغرت في الموصل على (فطوش) وهذا التصغير في (فاطمة) معروف في التركية الحديثة ٠

أما (زينب) فقد صغرت على (زنوبة) وعلى (زمو) بتشديد الميم وقد صغرت على (زماوي) ٠ وأما (عائشة) فقد صغرت على (عيشة) و (عواشة) بتشديد الواو و (عويشة) ٠

وقد جاءت أعلام مصغرة وهي مختومة بالواو والشين لافادة التصغير

---

(٢٢) Gesenius' Hebrew Grammar, P. 240.

(*) قد تكون هذه الزيادة من تأثير اللاتينية ٠

(٢٣) انظر انوليتمان ، مجلة كلية الآداب ١٩٤٨ الجزء الاول ٠

كمـا فى (دعدوش) و (حمروش) و (بوكروش)[٢٤] وهـذا شـائع فى المغرب .

ولعل أداة التصغير الحقيقية هى الواو الاخيرة فى الـكلمة كمـا فى (قدور) من عبدالقادر و (عصفور)[٢٥] من (صفر) و (شعرور) مصغر (شـاعر) و (حبرور) فـى ذكر الحبـارى ، و (عزوز) بالتشـديد مصغر (عزيز) .

كلمة أخيرة

ونستطيع أن نتبين ان للعبيد والمماليك أسماء خاصة ما زالت مستعملة حتى يومنـا ، تدل عمومـا على تكريم هؤلاء باطلاقهـا عليهم مثل (ياقوت) و (مرجان) و (ماس) و (جوهر) ، وقديما كانت أعـلام المماليك على هذه الشـاكلة . فالفقيه الشافعى المتوفى سنة ١١٧هـ اسمه (مكحول)[٢٦] ، لانه كان من الاسرى الذين جيء بهم من كابل . واسم كافور الاخشيدى من المماليك على هذه الشاكلة ومثله جوهر الصقلى القائد المعروف .

---

(٢٤) والعلم (بوكروش) هو من الـكنى فى الاصل وقد اقيمت الـكنى فى المغرب مقام الاسماء كما فى (بو القاسم) و (بومدين) .

(٢٥) سمى (العصفور) من صوت الطائر وهو (صفر) ويدلنا على ذلك ما فى العبرية فالاسم فيها هو (صفّور) بتشديد الفاء .

(٢٦) ابن خلـكان ٢/٥٨٥ .

تعابير اوربية في العربية الحديثة

بدأ الغرب يقترب من الشرق العربى فى مطلع هـذا القرن ، وكان الناس قبل ذلك فى معزل عن هذه الحضارة الوافدة وفى مأمن من هذا الغزو الذى جر عليهـم الوبال • غير أن الغزو لم يقتصر على الميـدان السـياسى حسب ، بل تعدى ذلك الى غيره من الميادين ، فقد أخذ هذا الشرق العربى رضى أم كره بهذه الحضارة التى تعتمد فى جوانب عدة منها على الخير ، فهى ليست شرا يتعافاه الناس ابدا •

وكان من نتيجة هذه الحضارة أن تأثر العربى وهو فى بيئته بها ، تأثر فى أفكاره ، وتأثر فى طريقة عيشه ، وتأثر فى جوانب كثـيرة من جوانب حياته اليوميـة ، وصار العربى يقرأ ثمرات الفكر الاوربى فى اللغات التى كتبت بهـا • وكان من جراء ذلك أن اللغة العربيـة الحديثة استفادت شيئا جديدا أو قل أشياء جديدة ، أقول استفادت بمعناها الواسع الشـامل ، فقد جدت فيها أساليب كثيرة لم تكن الا وليدة الترجمة • هذه الاساليب غريبة عن العربية فهى بنت ظروف وأحوال اجتماعية لم توجد فى هـذا الشرق العربى • غير أن العربية وهى السمحة السهلة ، اللينة ، الطيعة ، لم تتنكر لهذه الاساليب فقد قبلها الاستعمال وراضها حتى توهم القارىء وهو يقرأ صحيفته اليومية ان الذى يقرؤه عربى لم يعتوره الدخيل ، ولم يقتصر الامر على القارىء الذى لا يعنيه أمر العربيـة وأطوارهـا ، وموضوع اللغـات وأسرارها ، بل خفى ذلك على القارىء الفطن المختص ، فقد تجاوزت هذه الاساليب لغة الصحف السائرة الى المقالة الادبية الحديثة •

ولتوضيح ما ذهبنا اليه سنستوفى ما أمكن استيفاؤه من هذه الاساليب ليقف عليها القارىء ويرى ويحكم على العربية وقدرتها على النماء والتوسع وعلى قدر ما تأثرت به سلبا وايجابا ، أقول سلبا وايجابا ، لان طائفة من هذه الاساليب لم تستفد منها العربية غنى وثروة لغوية ، فقد ترجمت وحشرت

فى العربية ، وكان سبب ذلك كله جهل من تصدى للترجمة باصول العربية وفنون القول فيها فلم يتيسر لهم نقل الافكار الغربيـة باسلوب عربى • ولو عرف هؤلاء بلاغة العرب ، وعرفوا أسرارها لما اندست فى العربية أساليب غريبة عنها بحيث لا تعد من طائفة المصطلح الفنى "Terme Technique" الذى نجتهد فى أن يتوافر لدينا •

ولا ضير على العربية من دخول طائفة من هـذه الاسـاليب ، بل ربما افادت منها وأثرت ونمت ، وقد علمنا أن لغتنا قبلت من الدخيل الغريب شيئا كثيرا على مر العصور ، ومن صفات اللغة الحية أن تقبل من غيرهـا فتزدهر وتنمو • واذا علمنا أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فقد قبلنا أنها متطورة متجددة يؤثر فيهـا الزمان والمكان ، وقـد خضعت العربيـة لسنة التطور ، فتنوعت أساليبها ، فماتت فيها ألفاظ وجدت اخرى • ودونك الكثير من ألفاظ الشعر الجـاهلى التى أصبحت « متحجرات لغوية » ان جاز هـذا التعبير ، والتى لا نجدها فى لغة القرآن والحديث ولغة الادب فى صدر الاسلام •

وقـد حدثنى بعضهم فى أن العربيـة اعتمدت على المجـاز والاستعارة والكناية ، وكانت هذه وسائل لزيادة ثروة اللغة ، فلـم نعدّ طائفة كبيرة من الاساليب الحديثة التى دخلت فى لغة الصحف اليومية ولغة الكتابة السائرة مترجمة دخيلة ؟ وأقول ردا على هـذا الاستفهام : ان المجـاز والاستعارة والكناية من الوسائل التى أمدت العربية بأساليب كثيرة وأفادت منهـا فائدة عظيمة • بحيث لم نستطع الآن أن نحصى هذه الاساليب أو أن نتبينها ، ذلك بأن جزءاً كبيرا من هذه المجازات مثلا صار ملتبسا بالحقيقة أو كأنه استعمال حقيقى لشـيوعه وذيوعه ، ولان الاستعمال الحقيقى بالاصالة صار منسـيا ، فامحى أثره ولم يعد مستعملا ابدا •

على ان هذه الوسائل وهى المجاز والاستعارة والكناية لم تكن • مقتصرة على العربية فهى فى كل اللغات ، واللغات مختلفة فيهـا ، فقد نجد استعمالا مجازيا فى لغة مؤديا معنى من المعانى ، يختلف عن مجاز آخر فى لغة اخرى مؤد للمعنى نفسه • وعلى هـذا فالمجازات التى ذكرناها فى هـذه المقالة

واعتبرناها من الدخيل الطارىء فى العربية هى من هذا الباب ، أى مما لم تألفه العربية فى أساليبها فهى مترجمات من لغة اخرى • وعمر هذه الاساليب ربما لم يتجاوز نصف القرن الماضى •

وسواء رضينا أم لم نرض فقد اندس هذا الدخيل الوافد فتعرب • ولا بأس من ذلك كما أسلفنا ، ذلك أن طائفة كبيرة منها مما تدعو اليه الضرورة ، وان ألفاظها عربية فصيحة ، وان باب التوسع والمجاز بعد كل ذلك مفتوح • ودونك شيئا من مقررات المجمع اللغوى المصرى فى هذا الموضوع : (فالباب مفتوح للاساليب الاعجمية تدخله بسلام ، اذ ليس فى هـذه الاساليب كلمة أعجمية ولا تركيب أعجمى ، وانما هى كلمات عربية محضة ، ركبت تركيبا خالصا ، لكنها تفيد معنى لم يسبق لاهل اللسان أن أفاده بتلك الكلمات)[1] •

وعلى هذا فلا ينبغى أن يفهم القارىء انى فى معرض تخطئة الكتاب ، أو اننى من اولئك الذين يبغون الحفاظ على العتيق البالى ، ولكنى اسجّل هذه الاساليب أخذا بالمنهج العلمى وخدمة للعربية واظهارا للاطوار التى تجتازها الكلمة عبر العصور وما يجد ويستحدث فيها •

وأنا أعرض الآن من هذه الاساليب ما انتهى استقرائى لنصوص العربية الحديثة كما هى مثبتة فى الصحف والمجلات والكتب الحديثة :

استعمال الفعل (عاد) فى تركيب لم يعرف فى العربية ، وانما حدث ذلك عن طريق الترجمة كأن نقول : (لم يعد فلان قادرا) وهـذا ترجمة لاستعمال اوربى كما فى الفرنسية : Il n'est pas capable.

ونقول : يبكى فلان بكاءا مرا • وهو من "Il pleure amèrment."

وما دمنا بصدد البكاء فلابد أن نشير الى الجملة الآتية والتى تتردد فى الصحف والكتابات الحديثة وهى : هو يبكى بدموع التماسيح[2] • ومعناها

---

(١) مجلة المجمع اللغوى المصرى ج ١ ص ٣٣٢ •

(٢) من المفيد أن نشير الى أن شيئا من هذا التعبير قد جاء فى ارجوزة ابن المعتز فى البيت الذى نثبته ، غير اننا لابد أن نؤكد ان التعبير الشائع لم يكن عربى الاصل كما استعمل عند ابن المعتز ، وانما جاء عن طريق الترجمة من اللغات الاوربية •

البيت : ثم بكوا من بعده وناحوا كذباً كذاك يفعل التمساح

معروف ، وهى من التعبير الفرنسى : Il pleure aux Larmes de crocodile.

وفى الانكليزية : To ched crocodilés tear.

ونقول : ابتسامة هادئة ، وهذا من الفرنسية : "Sourire Calme" .

وفى الانكليزية : "Calm smile" .

ونقول : هو يمثل الرأى العام[٣] ، وهو من قولهم فى الفرنسية :
'Il represente L'opinion publique."

وفى الانكليزية : "He represents public opinon".

ونقول : هو يسهر على المصلحة العامة ، وهذا من
Il veille sur le bien commun.

ونقول : هذه القضية مطروحة على بساط البحث ، وهذا كما فى العبارة الفرنسية . Cette cause est mise sur le tapis.

ونقول : ذر الرماد فى العيون ، وهو فى الفرنسية :
Il jette de la poudre aux yeux.

وفى الانكليزية : To throw dust in the eye.

ونقول : لقتل الوقت ، وهو فى الفرنسية : pour tuer le temps.

وفى الانكليزية : To kill the time.

ونقول : هو يلعب دوره ، وهو فى الفرنسية : Il jour son rôle.

وفى الانكليزية : He plays his part.

ونقول : بدوره ، وهو فى الفرنسية : à son tour.

وفى الانكليزية : In his turn.

ونقول : أعطى وعدا ، وهو فى الفرنسية :
Il a donné rendez - vous.

وفى الانكليزية : To give a promise.

---

(٣) تحميل كلمة (الرأى العام) هذا المعنى هو من الباب الذى نسجله فى هذه الصفحات ، وكذلك استعمال الفعل (مثّل) هذا الاستعمال ، داخل فى هذا الباب أيضا .

ونقول : هو أعطى صوته ، وهو فى الفرنسية :
Il a donné sa voix.

وفى الانكليزية : To give one's vote to.

ونقول : هو يكسب بعرق جبينه ، وهو فى الفرنسية :
Il gagne à la sueur de son front.

ونقول : هو مع رفيقه على قدم المساواة ، وهو فى الفرنسية :
Il est sur pied d'égalité avec son ami:

وفى الانكليزية : He is on equal footing with his freind.

ونقول : حجر عثرة ، وهو فى الفرنسية :
Pierre d'achoppement.

وفى الانكليزية : a stumbing block.

ونقول : لعب ورقته الاخيرة ، وهو فى الفرنسية :
Il a joué sa dernière carte.

وفى الانكليزية : He played his last card.

ونقول : أعطاه ورقة بيضاء ، وهو فى الفرنسية :
Il lui a donné une carte blanche.

وفى الانكليزية : To give a blank cheque.

ونقول : هو يلعب بالنار ، وهو فى الفرنسية :
Il joue avec le feu.

وفى الانكليزية : To play wih fire.

ونقول : هو يصطاد فى الماء العكر ، وهو فى الفرنسية :
Il pêche en eau trouble.

وفى الانكليزية : To fish in troubled water.

ونقول : على شرف فلان ، وهو فى الفرنسية :
En son honneur.

وفى الانكليزية : on his honour.

ونقول : توترت العلاقات ، وهو فى الفرنسية :
Les repports sont tendus.

وفى الانكليزية : Strained relations

ونقول : ضحكة صفراء ، أو ابتسامة صفراء ، وهو فى الفرنسية :

Rire jaune.

ونقول : كرس[٤] حياته ، وهو فى الفرنسية :

Il a consacré sa vie.

وفى الانكليزية : To sacrifice one's life.

ونقول : المصائب محك الصداقة ، وهو فى الفرنسية :

Les malheurs sont la pierre de touche de l'amitié.

ونقول : نزولا عند رغبته ، وهو فى الفرنسية :

Cedant à son desire.

وفى الانكليزية : At his own request.

ونقول : الضرورة الملحة ، وهو فى الفرنسية :

Necessité insistante.

وفى الانكليزية : insisting needs.

ونقول : بكل معنى الكلمة ، وهو فى الفرنسية :

Dans tout le sens du mot.

وفى الانكليزية : In the full sens of the word.

ونقول : وضع النقاط على الحروف ، وهو فى الفرنسية :

Il a mis les points sur les ii

ونقول : أجاب بالحرف الواحد ، وهو فى الفرنسية :

Il a répondu à la lettre.

ونقول : الاوساط[٥] المطلعة ، وهو فى الفرنسية :

Les milieux les bien informés.

---

(٤) الفعل كرّس من الالفاظ المسيحية الكنيسية وهو من أصل سريانى آرامى على ان التركيب كله دخيل فى العربية وهو مترجم عن العبارة الفرنسية .

(٥) ان من يترجم العبارة الاجنبية باستعمال (المحافل المطلعة) يكون الصدق بالعربية وفصاحتها ، لان الاوساط جمع وسط ، ولم يعرف عن الوسط فى العربية هذا الانتقال المجازى .

وفى الانكليزية : Well - informed quarters.

ونقول : الاوساط الجديرة بالثقة ، وهو فى الفرنسية :

Les milieux dignes de foi.

وفى الانكليزية : trust worthly circles.

ونقول : الدوائر العليا ، وهو فى الفرنسية :

Les hauts cercles.

وفى الانكليزية : The higher circles.

ونقول : دفع الثمن غاليا (بالاستعمال المجازى بمعنى لقى الصعاب من جراء أمر من الامور ، أو عمل من غير تفكير) ، وهو فى الفرنسية :

Il a payé cher.

وفى الانكليزية : He paid dear.

ونقول : ركّز(٦) البحث على نقاط معينة ، وهو فى الفرنسية :

Il a concentré sa recherche sur cerrains points.

وفى الانكليزية : He concentrated on certain points.

ونقول : أكّد على(٧) نقاط معينة ، وهو فى الفرنسية :

Il a insisté sur certains points.

وفى الانكليزية : He emphasized certaim points

ونقول : أثّر عليه(٨) ، وهو فى الفرنسية : Influer sur lui.

ونقول : يبلور الفكرة ، وهو فى الفرنسية :

Il cristalisé son idée.

ونقول : يسمم الرأى العام ، وهو فى الفرنسية :

Il empoisonne l'opinion publique.

وفى الانكليزية : To poison the public opinion.

---

(٦) التركيز بهذا المعنى دخيل استعمله المشتغلون بالكيمياء .

(٧) تعديه الفعل (اكدّ) بعلى بسبب التركيب الاجنبى فالفعل الاجنبى فى هذا المعنى يتعدى بهذا الحرف ، والصواب ان الفعل العربى يتعدى بنفسه .

(٨) وتعدية الفعل (اثرّ) بعلى بسبب نظيره الفعل الاجنبى الذى يتعدى بعلى ، اما الفعل العربى فالفصيح ان يتعدى بحرف الجر (فى) .

ونقول : خنق الحريات ، وهو فى الفرنسية :
Etranglement de libertés.

وفى الانكليزية : To strangle the liberties.

ونقول : الضمير العالمى ، وهو فى الفرنسية :
La conscience mondiale.

وفى الانكليزية : The world conscience.

ونقول : مؤتمر المائدة المستديرة ، وهو فى الفرنسية :
Congrès de table ronde.

وفى الانكليزية : Rond table conference.

ونقول : طبقه على مقياس واسع ، وهو فى الفرنسية :
Il l'a pratiqué en large mesure.

وفى الانكليزية : He applied it on a wider scale.

ونقول : هو يعمل فى اطار ضيق ، وهو فى الفرنسية :
Il travaille dans un cadre très restreint.

وفى الانكليزية : He works in a marrow cercle.

ونقول : اطارات الجيش(٩) ، وهو فى الفرنسية :
Les cadres de l'armée.

ونقول : العين المجردة ، وهو فى الفرنسية : Un oeil nu.

وفى الانكليزية : Naked eye.

ونقول : ان لم تخني الذاكرة ، وهو في الفرنسية :
Si La memoire ne m'a pas trahi.

---

(٩) دلالة الاطار فى العربية معروفة ، ولم يستعمل هذا الاستعمال المجازى ، واستعماله هذا على طريقة المجاز نقل للاستعمال الفرنسى الذى اشرنا اليه • ومن أجل كثر هذا الاستعمال فى الصحف العربية فى الشمالى الافريقى بصورة خاصة ،اما اهل الشرق العربى فيستعملون فى هذا المقام ألفاظا عربية مثل (الملاك ، والتنظيمات وما اشبه ذلك) وربما وجدنا لفظ (الكوادر) مستعملة على صورة الجمع للكلمة الاجنبية ، كما يحدث فى الصحف اللبنانية والمصرية •

ونقول : حرق البخور[١٠] لسيده ، وهو فى الفرنسية :
Il a brûlé de l'encens pour son maître.

وفى الانكليزية : The burnt the incense for his sir.

ونقول : الاكثرية الساحقة[١١] ، وهو فى الفرنسية :
La majorité écrasante.

وفى الانكلزية : Over whelming majority

ونقول : على هامش السياسة[١٢] ، وهو فى الفرنسية :
En marge de la politique.

وفى الانكليزية : On the marqin of the policy.

ونقول : التراب الوطنى[١٣] ، وهو فى الفرنسية :
Le territoire national.

وفى الانكليزية : National territory, dominion.

ونقول : جرح شعوره ، وهو فى الفرنسية :
Il a blessè son amour.

وفى الانكليزية : He wounded his Feeling.

ونقول : أخذ بنظر الاعتبار ، وهو فى الفرنسية :
Il a pris en considération.

وفى الانكليزية : He took in consideration.

ونقول : أخذ مكانه بين رفاقه ، وهو فى الفرنسية :
Il a pris sa place parmi ses camarades.

وفى الانكليزية : He took his seat between his consrades.

ونقول : التيارات الادبية ، وهو فى الفرنسية :
Les courants littéraire.

---

(١٠) تعبير ذو أصل دينى مسيحى متصل بالبخور الذى يحرق فى الكنائس .

(١١) تعبير متصل بالتقاليد (البرلمانية) .

(١٢) الهامش كلمة دخيلة قديمة ولكنها لم تستعمل هذا الاستعمال المجازى .

(١٣) تعبير شائع فى العربية فى الشمالى الافريقى .

وفى الانكليزية : The literary currents.

ونقول : مع الاسف ، وهو فى الفرنسية : Avec mes regrets.

وفى الانكليزية : With regrets.

ونقول : مع تمنياتى ، وهو فى الفرنسية :
Avec mes souhaits.

وفى الانكليزية : With my best wishes.

ونقول : النجاحات[14] جمعا لنجاح ، ونشاطات جمعا لنشاط وهـذه شائعة فى الفرنسية : Succès, activités.

وفى الانكليزية : Successes, activities.

ونقول : اتبعوا سياسة القاء القفاز[15] ، وهو فى الفرنسية :
Ils ont pratiqué la politique de mettre les gants.

وفى الانكليزية :
They practised the policy of throwing down the gauntlet.

ونقول : اتبعوا سياسة القاء القفاز[15] ، وهو فى الفرنسية :
Sur le compte de l'opinion publique.

وفى الانكليزية : At the expense of public opinion.

ونقول : الحياة الادبية[16] ، وهو فى الفرنسية :
La vie littéraire.

وفى الانكليزية : The literary life.

ونقول : يشل الاعمال ، وهو فى الفرنسية :
Il paralyse les affaire.

ونقول : ضرب الرقم القياسى أو كسره ، وهو فى الفرنسية :
Il a battu le record.

---

(١٤) اجاز الاقدمون جمع المصدر اذا افاد النوعية المختلفة ، واذا انتقل من الحدث الى الاسمية • كما نجده فى مقررات المجمع اللغوى فى القاهرة ، وهو منشور فى مجلة المجمع العلمى بدمشق الجزء الخاص بمؤتمر المجامع العلمية اللغوية لسنة ١٩٥٧ •

(١٥) تعبير يتصل بالبيئة التى استخدم فيها وهى البيئة الرياضية •

(١٦) تعبير شائع فى الصحف والمجلات فى عصرنا الحاضر حتى خيل للمهتمين بمسائل اللغة أنه تعبير عربى فى الاصل ، وليس الامر كذلك •

وفى الانكليزية : he beats the record.

ونقول : أعمال الكاتب الكاملة[١٧] ، وهو فى الفرنسية :

Les oevres complètes de l'écrivain.

وفى الانكليزية : The complete works of the writer.

ونقول : لا يرقى اليه الشك ، وهو فى الفرنسية :

Le doute ne remonte à lui.

ونقول : تحت تأثير ، وهو فى الفرنسية :

Il est sous l'influence.

وفى الانكليزية : It is under the influence.

ونقول : البرج العاجى[١٨] ، وهو فى الفرنسية :

La tour d'ivoire.

وفى الانكليزية : Ivory tower.

ونقول : يلقى ضوءا على هذه المسألة ، وهو فى الفرنسية :

Il jette une lumiére.

وفى الانكليزية : To throw light on.

ونقول : على ضوء الاحداث ، وهو فى الفرنسية :

A la lumière des événements.

وفى الانكليزية : At the light of the events.

ونقول : يلقى نظرة ، وهو فى الفرنسية :

Il jette un coup d'œil.

ونقول : يمر بتجربة قاسية[١٩] ، وهو فى الفرنسية :

Il passe une epruve dure.

وفى الانكليزية : He goes through difficulties

---

(١٧) لم يعرف فى العربية هذا الاسلوب وانما يقال مؤلفاته أو كتبه أو آثاره أو مصنفاته .

(١٨) والفصيح أن يقال : البرج العاج .

(١٩) تحميل التجربة معنى الحادثة أو المحنة دخيل أجنبى ، وهو من باب التضمين فى اللغة .

ونقول : عاش التجربة ، وهو فى الفرنسية :
Il a vecu l'epruve.

ونقول : ولنقلب صفحة[٢٠] ، وهو فى الفرنسية :
Qu'on tourne la page.

وفى الانكليزية : Turne new page.

ونقول : المعطيات[٢١] ، وهو ترجمة للكلمة : Les données.

ونقول : هو خارج امكانياتى ، وهو فى الفرنسية :
Il est en dehors de mes possibilités.

ونقول : الشخصية[٢٢] ونريد بها صاحب الشخصية رجلا أو امرأة ، وهو فى الفرنسية : personalité.

ونقول : الشخصية البارزة ، وهو فى الفرنسية :
Personalité marquante.

وفى الانكليزية : a marked personality.

ونقول : يعلق أهمية خاصة ، وهو فى الفرنسية :
Il attache Une certaine importance.

وفى الانكليزية : To attach importance.

ونقول : يعلق أملا كبيرا ، وهو فى الفرنسية :
Il attache une grande sepoire.

وفى الانكليزية : To attach great hope.

ونقول : أجاب فى شيء من الدهشة ، وهو فى الفرنسية :
Il a repondu avec un peu d'étttonnement.

ونقول : وهو يجذب الانتباه ، وهو فى الفرنسية :
Il tire l'attention.

---

(٢٠) الاسلوب أجنبى ، ولعل ما يقابله فى الاساليب العربية قولهم : ولنضرب صفحا .

(٢١) يراد بالـكلمة الفرنسية الافكار والمعانى ، اما (المعطيات) فهى من ابتداعات السوريين واللبنانيين .

(٢٢) تدل الشخصية على الحالة أو الهيئة التى يكون فيها الشخص ، وهى من اصطلاحات علم النفس ، ولها مدلول فلسفى ، والمصدر الصناعى مفيد فى باب المصطلحات العلمية .

وفى الانكليزية : It attracts attention.

ونقول : هو يعكس الحالة الاجتماعية ، وهو فى الفرنسية :
Il reflète la situotion sociale.

وفى الانكليزية : It reflectes the social back-ground.

ونقول : الجنس اللطيف ، وهو فى الفرنسية :
La belle sexe.

وفى الانكليزية : The fair sex.

ونقول : وجهات النظر(٢٣) ، وهو فى الفرنسية :
Les points de vue.

وفى الانكليزية : The points of view.

ونقول : أعرنى أذنيك ، وهو فى الفرنسية :
Prêtez - moi les oreils.

وفى الانكليزية : Lend me your ear.

ونقول : غطاء النفقات ، وهو فى الفرنسية :
La couverture de frais.

وفى الانكليزية : To cover the expenses.

ونقول : الجهاز الحكومى ، وهو فى الفرنسية :
L'organ gouvernemental.

وفى الانكليزية : The official organ.

ونقول : الماكنة الحكومية ، وهو فى الفرنسية :
La machine gouvernementale.

ونقول : يحمل على الاعتقاد ، وهو فى الفرنسية :
Il porte à croire.

ونقول : هو ينظر من زاوية ، وهو فى الفرنسية :
Il voit d'un coin.

وفى الانكليزية : He looks from one ongle.

---

(٢٣) دلالة (وجهات النظر) على الرأى والفكرة والنظر العقلى غير عربية اصيلة وانما دخلت العربية عن طريق الترجمة كما بينا .

ونقول : حجر الزاوية ، وهو في الفرنسية :

La pierre angulaire.

وفي الانكليزية : Corner stone.

ونقول : يحتضن الفكرة ، وهو في الفرنسية :

Il couve l'idée.

ونقول : يتبنى الفكرة ، وهو في الفرنسية : Il adopte l'ideé.

وفي الانكليزية : He adopts the idea.

ونقول : اعتنق الفكرة[٢٤] ، وهو في الفرنسية :

Il a embracé l'idée.

وفي الانكليزية : He embraced the idea.

ونكرر الظرف الشرطي (كلما) في استعمالنا فنقول : كلما عمل كلما ربح[٢٥] ، وهو في الفرنسية :

Plus il travaille, plus il gagne.

وفي الانكليزية :

The more he works, the more he earns.

ونقول : تناول الكلمة ، وهو في الفرنسية :

Il a pris la parole.

ونقول : اعطى الكلمة ، وهو في الفرنسية :

Il a donné la parole.

وفي الانكليزية : He gave a speech.

ونقول : عنده حق ، وهو في الفرنسية : Il a raison.

وفي الانكليزية : He has the right.

ونقول : سابقة خطرة ، وهو في الفرنسية :

Precedent dangereux.

وفي الانكليزية : a dangerous precendent.

---

(٢٤) وفي العربية شيء ربما أشبه هذا ، فقد ذكر الزمخشري في أساس البلاغة ما نصه : واعتنق الامر لزمه . انظر مادة (ع ن ق) .

(٢٥) نبه اللغويون على هذا الخطأ فقل وروده ، على أنه ما زال موجودا في لغة الجرائد .

ونقول : أزمة نفسية ، وهو في الفرنسية :

Crise psychologique.

وفي الانكليزية : Psychological crisis.

ونقول : بوصفه أو بصفته ، وهو في الفرنسية :

En sa qualité

وفي الانكليزية : In his capacity.

ونقول : هو جاهل لغاية أن يكون بدائيا ، وهو في الفرنسية :

Il est ignorant à tel point qu'il soit primitif.

ونقول : حمامة السلام ، وهو في الفرنسية :

La colombe de paix.

ونقول : واذا ارتقينا (أو صعدنا أو ارتفعنا) الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو في الفرنسية :

Si nous remontons au cinquième siècle avaut J. C.

ونقول : يهضم الافكار ، وهو في الفرنسية :

Il digère les idées.

وفي الانكليزية : To digest ideas.

ونقول هو مرن[٢٦] ، وهو في الفرنسية :

Il est souple ou flexible.

وفي الانكليزية : He is flexible.

ونقول : هو موضوع على طاولة البحث[٢٧] ، وهو في الفرنسية :

Il est mis sur la table de travail.

ونقول : الانواع الادبية[٢٨] ، وهو في الفرنسية :

Les genres littéraires.

ونقول : عاصفة من التصفيق ، وهو في الفرنسية :

Une tempête d' applaudissement.

---

(٢٦) لم يعرف هذا الاستعمال المجازي في العربية ، وانما يعبر عن ذلك بعبارات أخرى كأن يقال : هو لين أو طيع أو ما في هذا المعنى .

(٢٧) الطاولة دخيلة وهي تعريب .

(٢٨) تعبير جديد مترجم ، وربما قيل في العربية : الفنون الادبية .

وفى الانكليزية : A storne of applause.

ونقول : نقطة انطلاق ، وهو فى الفرنسية :

Le point de depart.

وفى الانكليزية : Point of departure.

ونقول : طلب يدها : وهو فى الفرنسية :

Il a demandé sa main.

وفى الانكليزية : To ask the hand ot.

ونقول : اصلاح جذرى ، وهو فى الفرنسية :

Reforme radicale.

وفى الانكليزية : Radical reform.

ونقول : تمتد جذور المسألة ، وهو فى الفرنسية :

Les racines de la question étendent.

وفى الانكليزية : The root of the problem go deep.

ونقول : وموقفه أمام[٢٩] هذه القضية ، وهو فى الفرنسية :

Sa situation devant cette question.

ونقول : وهذه القضية من طرف[٣٠] السلطات الحاكمة ، وهو فى الفرنسية : Cetle problème est de la part de gouvenement ...

ونقول : تبادلا الشتائم[٣١] ، وهو فى الفرنسية :

Il ont échangé Les injnres.

ونقول : تبادلا التحيات ، وهو فى الفرنسية :

Il ont échangé Les salutations.

وفى الانكليزية : They exchanged greeting.

ونقول : تحت الدرس ، وهو فى الفرنسية :

Il est sous l'étude.

وفى الانكليزية : It is under study.

---

(٢٩) يقال فى الاسلوب الفصيح : ازاء بدلاً من امام ، لان الامام ما كان فى المقدمة ومنه سمى الامام أى الذى يأتم الناس به ·

(٣٠) هذا التعبير شائع فى بلدان الشمالى الافريقى ·

(٣١) يقال مثل هذا فى الاسلوب الفصيح : تكايلا الشتائم ·

ونقول : يسهر على المصلحة العامة ، وهو فى الفرنسية :
Il veille sur le bien commun.

ونقول : لا جديد تحت الشمس ، وهو فى الفرنسية :
Rien de nouveau sous le soleil.

وفى الانكليزية : Nothing new under the sun.

ونقول : هو رجل الساعة ، وهو فى الفرنسية :
Il set l'homme de l'heure.

وفى الانكليزية : The man of hour.

ونقول : كلمه بطرف شفتيه[٣٢] ، وهو فى الفرنسية :
Il lui a parlé de bout de levers.

ونقول : الى الملتقى ، وهو فى الفرنسية : Au revoir.

ونقول : الى الغد ، وهو فى الفرنسية : A demain.

ونقول : شرب على صحته ، وهو فى الفرنسية :
Il a bu à sa santé

وفى الانكليزية : He drank his health.

ونقول : مسألة بسيطة[٣٣] ، وهو فى الفرنسية :
Une question superficièle.

وفى الانكليزية : a simple question.

ونقول : مسألة سطحية[٣٤] ، وهو فى الفرنسية :
Une kuestion superficièle.

ونقول : تصفية القضية الفلسطينية ، وهو فى الفرنسية :
La liquidation de la queition palastinienne.

وفى الانكليزية :

The liquidation of the Palastine question.

---

(٣٢) كناية عن الزراية به .
(٣٣) شاع الوصف بالبساطة فى العربية ، وهو أسلوب مترجم .
(٣٤) والوصف بـ (سطحية) اسلوب مترجم أيضا للدلالة على ان المسألة ليست متعمقة .

ونقول : تحت رعاية ، وهو فى الفرنسية :

Sous l'egide ou le haut patronge.

وفى الانكليزية :

Under the patronge of.

ونقول : هو متأثر الى درجة أنه فاقد أعصابه[٣٥] ، وهو فى الفرنسية :

Il était ému jusqu'a ce qu'il aie perdu ses nerfs.

وفى الانكليزية :

He was so excited that he lost his self - control.

ونقول : الجيل الصاعد ، وهو فى الفرنسية :

La génération montante.

وفى الانكليزية :

The rising generation.

ونقول : يضحك على الذقون ، وهو فى الفرنسية :

Il rit dans sa barbe.

ونقول : ألوان صارخة ، وهو فى الفرنسية :

Des couleurs criardes.

ونقول : نقد مر ، وهو فى الفرنسية :

Critique amère.

وفى الانكليزية :

Bitter criticism.

---

(٣٥) التعبير (الى درجة) ، وكذلك التعبير (فقدان الاعصاب) كلاهما مترجم كما بينا .

مراجع الكتاب

المراجع العربية

المجلات

مجلة كلية الآداب العلوم ١٩٥٨

مجلة كلية الآداب ١٩٦٠

مجلة سومر ١٩٥٩

مجلة مجمع فؤاد الاول ١٩٤٨-١٩٤٩

مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٩

مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة ١٩٥٣ الجزء السابع

مجلة الابحاث (الجامعة الاميركية ببيروت) آذار ١٩٥٨

مجلة المجمع العلمي فى دمشق ١٩٥٧ (العدد الخاص بمؤتمر المجامع اللغوية)

مجلة المشرق ١٩١٢

مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول ١٩٤٨

مجلة الفكر التونسية ١٩٦٠ العدد الخامس

مجلة المجلة اللبنانية آذار ١٩٥٨

مجلة شعر أيلول ١٩٥٧

مجلة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ١٩٥٨

صحيفة المجاهد (لسان حال جبهة التحرير الجزائرية) ١٩٦٠ العدد ٦٥

الكتب

الاتباع والمزاوجة (لاحمد بن فارس) نشره المستشرق رودلف برو بمدينة غيسن سنة ١٩٠٦م

الاتقان فى علوم القرآن (للسيوطى) • مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م

الآثار الباقية عن القرون الخالية (للبيرونى) نشره سخاو فى ليبزج

سنة ١٨٧٨م
احياء النحو (لابراهيم مصطفى) القاهرة ١٩٣٧
أدب الكاتب (لابن قتيبة) القاهرة ١٣٥٥
أدب الكتاب (للصولى) القاهرة ١٣٤١
ارشاد الاريب ، انظر معجم الادباء
أساس البلاغة (للزمخشرى) القاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤١هـ
الاشباه والنظائر (للسيوطى) حيدر آباد
الاشتقاق (لابن دريد) طبعة وستنفلد ١٨٥٤م
الاشتقاق (لعبدالله أمين) القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م
الاصابة (لابن حجر) القاهرة سنة ١٣٥٨هـ طبع مصطفى محمد
الاغانى (لابى الفرج) القاهرة دار الكتب المصرية
الافعال (لابن القطاع) حيدر آباد سنة ١٣٦٠هـ
الافعال (لابن القوطية) القاهرة سنة ١٩٥٢م
الاقتضاب (لابن السيد البطليوسى) بيروت سنة ١٩٠١م
الالفاظ الفارسية المعربة (لأدى شير) بيروت سنة ١٩٠٨م
الامالى (لابى علي القالى) دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦م
الامالى (للزجاجى) القاهرة سنة ١٩٣٥م
انباه الرواة على أنباه النحاة (للقفطى) تحقيق أبو الفضل ابراهيم القاهرة سنة ١٩٥٠-١٩٥٥م
الانصاف فى مسائل الخلاف (لابى البركات ابن الانبارى) القاهرة مطبعة الاستقامة سنة ١٣٦٤هـ
أنوار التنزيل وأسرار التأويل (للبيضاوى) طبعة فليشر ليبزك ١٨٤٦م
الايام والليالى (ليحيى بن زياد الفراء) القاهرة بتحقيق ابراهيم الابيارى
البخلاء (للجاحظ) تحقيق الحاجرى القاهرة سنة ١٩٤٨
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة (للسيوطى) القاهرة سنة ١٣٢٦هـ

بلاغة أرسطو بين العرب واليونان (لابراهيم سلامة) القاهرة
البيان والتبيين (للجاحظ) القاهرة ١٩٤٨-١٩٥٠
تاج العروس في شرح القاموس (للزبيدى) مصر سنة ١٣٠٧هـ
تاريخ الادب السريانى (لمراد كامل والبكرى) القاهرة ١٩٤٩م
تاريخ العرب قبل الاسلام (لجواد علي) بغداد مطبوعات المجمع العلمى العراقى
تاريخ العرب فى سوريا (لدوسو) القاهرة سنة ١٩٥٩ ترجمة الدواخلى ومصطفى زيادة
تاريخ علوم اللغة العربية (لطه الراوى) بغداد ١٩٤٩م
تاريخ الفلسفة فى الاسلام (دى بور) القاهرة ترجمة أبو ريدة
تاريخ اللغات السامية (لاسرائيل ولفنسون) القاهرة ١٩٢٩م
تأويل مشكل القرآن (لابن قتيبة) القاهرة ١٣٧٣هـ
تذكرة الحفاظ (للذهبى) حيدر آباد سنة ١٣٣٣-١٣٣٤هـ
التطور النحوى (لبرجشتراسر) القاهرة
تفسير الطبرى (جامع البيان) القاهرة سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م
التيسير (لابى عمرو الدانى) نشره وحققه المستشرق برتزل Pretzel فى الاستانة سنة ١٩٣٠م
الجمانة فى ازالة الرطانة بتحقيق حسن حسنى عبدالوهاب سنة ١٩٥٣م من مطبوعات المجمع اللغوى فى دمشق
الجمهرة (لابن دريد) حيدر آباد سنة ١٣٤٤-١٣٥١هـ
حاشية الصبان على الاشمونى مصر
حكاية ابى القاسم البغدادى (لابى المطهر الازدى) نشر (مز)
الحيوان (للجاحظ) تحقيق عبدالسلام هارون
خزانة الادب (لعبدالقادر البغدادى) بولاق سنة ١٢٩٩هـ
الخصائص (لابن جنى) طبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٦م
ديوان ابن الرومى نشر كامل الكيلانى القاهرة ١٩٢٥م

ديوان ابن المعتز بيروت ١٣٣١هـ
ديوان جرير (الشرح) نشر الصاوى القاهرة ١٩٣٥م
ديوان ذو الرمة تحقيق مكارتنى كمبردج ١٩١٩م
ديوان الفرزدق نشر الصاوى ١٩٣٦م
ديوان الهذليين القاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ
الرد على النحاة (لابن مضاء القرطبى) القاهرة ١٩٤٧م
الزينة فى الالفاظ الاسلامية (لابى حاتم الرازى) القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٩م
سر صناعة الاعراب (لابن جنى) القاهرة سنة ١٩٥٦م
شرح الاشمونى على ألفية ابن مالك القاهرة ١٩٤٧م
شرح ديوان المتنبى (للواحدى) برلين ١٨٦١م
شرح الرضى على كافية ابن الحاجب (طبعة الاستانة) ١٣١٠هـ
شرح الرضى على شافية ابن الحاجب القاهرة بتحقيق محمد محى الدين عبدالحميد وآخرين
شرح الشواهد الكبرى (للعينى) على هامش خزانة البغدادى بولاق ١٢٩٩هـ
شرح المفصل (لابن يعيش) ، (الطبعة الاوربية والطبعة المصرية)
الشعر والشعراء (لابن قتيبة) ليدن ١٩٠٢م
شعراء الصعاليك (ليوسف خليف) القاهرة ١٩٥٩م
شفاء الغليل (للخفاجى) القاهرة ١٣٢٥هـ
الصاحبى (لاحمد بن فارس) القاهرة ١٩١٠م
صبح الاعشى فى صناعة الانشا (للقلقشندى) القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م
الصحاح (للجوهرى) القاهرة .
الصناعتين (لابى هلال العسكرى) الاستانة ١٣٢٠هـ
ضحى الاسلام (لاحمد أمين) القاهرة ١٩٣٨م
غرامطيق اللغة الآرامية السريانية (للقس بولس الكفرنيسى) بيروت ١٩٢٩م
العربية (ليوهان فك) ترجمة عبدالحليم النجار القاهرة ١٩٥١م

العمدة (لابن رشيق القيراونى) القاهرة بتحقيق محمد محيالدين عبدالحميد ١٣٥٤هـ
العين (للخليل بن احمد) بغداد ١٩١٤ • ما نشره الاب انستاس الكرملى من الكتاب
عيون الاخبار (لابن قتيبة) القاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥–١٩٣٠م
فتح البارى (لابن حجر) بولاق ١٣٠١هـ
فقه اللغة (للثعالبى) مطبعة الاستقامة القاهرة
فقه اللغة (لعلى عبدالواحد وافى) القاهرة ١٩٥٠م
القاموس المحيط (للفيروز آبادى) القاهرة المطبعة الحسينية ١٣٣٢هـ
الكامل (للمبرد) طبعة رايت ليبزك ١٨٧٣–١٨٩٢م وطبعة زكى مبارك ومحمود شاكر القاهرة ١٩٣٧م
الكتاب (لسيبويه) بولاق ١٣١٦هـ
الكشاف (للزمخشرى) القاهرة ١٩٤٦م
اللسان (لابن منظور) بيروت ١٩٥٥–١٩٥٦م
اللباب (للقرداحى) معجم سريانى عربى بيروب ١٨٨٧م
اللمعة الشهية (للمطران يوسف داود) الموصل ١٨٩٦م
ما يلحن فيه العوام (لعلى بن حمزة الكسائى) القاهرة ١٣٤٤هـ
المباحث اللغوية فى العراق (للدكتور مصطفى جواد) القاهرة معهد الدراسات العليا ١٩٥٥م
المثل السائر (لابن الاثير) القاهرة ١٩٤٨م
مجاز القرآن (لابى عبيدة) تحقيق فؤاد سزكين (الجزء الاول) القاهرة ١٩٥٥م
محاضرات (پول كراوس) فى كلية الآداب بالقاهرة ١٩٤٩–١٩٥٠م
مختصر فى شواذ القراءات (لابن خالويه) القاهرة ١٩٣٤م نشره برجشتراسر
المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية (لاغناطيوس گويدى) القاهرة ١٩٣٠م
المخصص (لابن سيده) بولاق ١٣١٦هـ

مدرسة الكوفة (للدكتور مهدى المخزومى) بغداد ١٩٥٥م
المزهر (للسيوطى) القاهرة مطبعة السعادة
المصباح المنير (للفيومى) المطبعة الاميرية فى القاهرة ١٩٢٥م
المعرب (للجواليقى) القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ
المفصل (للزمخشرى) الطبعة الاوربية
المستطرف فى كل فن مستظرف (الابشيهى) بولاق ١٢٧٦هـ
معجم الادباء (لياقوت) القاهرة نشرة دار المأمون ، وارشاد الاريب نشرة مرجوليوث القاهرة ١٩٠٧/١٩٢٥م
معجم البلدان (لياقوت) طبع اوربا
مغنى اللبيب (لابن هشام) القاهرة ١٣١٧هـ
مقدمة ابن خلدون القاهرة ١٩٣٠م
مقدمة لدرس لغة العرب (للعلايلى) القاهرة (المطبعة العصرية)
من أسرار اللغة (لابراهيم أنيس) القاهرة (مكتبة الانجلو)
الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء (للمزربانى) القاهرة ١٣٤٣هـ
الموشى (للوشاء) ليدن ١٨٨٦م
ميزان الاعتدال (للذهبى) لكنو ١٣٠١هـ
نزهة الالباء (لابن الانبارى) القاهرة ١٢٩٤هـ ونشرة الدكتور ابراهيم السامرائى بغداد ١٩٥٩م
النشر فى القراءات العشر (لابن الجزرى) دمشق ١٣٤٥هـ
نقوش خربة معين (ليحى نامى) القاهرة ١٩٥٣م
النوادر (لابى زيد) بيروت ١٨٩٤م
همع الهوامع (للسيوطى) القاهرة ١٣٢٧هـ
وفيات الاعيان (لابن خلكان) بولاق ١٢٧٥هـ

المراجع الاجنبية

The. Nöldke, Die Semitischen Sprachen, Leipzig 1890.

E. Littman, Inscriptions, Leiden 1914.

M. Cohen, Les Langues du Monde Paris 1952.

Bar Bahlül Lexicon, Paris.

C. Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen I. 1908, II. 1913.

W. Wright, Lecture on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, London 1890.

Otto, Jesperson, Language, its nature, development and origin London 1947.

M.G. Demombyne et Blachère, Grammaire de L'Arabe Classique, Paris 1952.

The. Nöldke, Zur Grammatik des Classichen: Arabisch, Wien 1896.

Gesenius, Hebrew grammar (Oxford 1910).

Wensick, Gender in the Semitic Languages, Amstrdam 1927.

C. Brockelmann, Précis de Linguistique Sémitique Paris, 1910.

E. Renan, Histoire générale et Système Comparé des Langues Sémitiques Paris 1863.

G. Dilman, Grammatik Der äthiopischen Eprache Leipzig 1903.

Wright, Arabic Grammar, London 1863.

O. Block et W.V. Wartburg, Dictionnaire étymologique de la Langue Française Paris 1950.

S. Gruyard, Nouvel Essai sur la Formation du Pluriel Arabe Paris 1870.

H. Derenbourg, Essai sur les Pluriels Arabes, Paris 1867.

J. Vendryes, Language, Paris 1923.

Marouzeau, Lexique de la terminologie Technique Paris 1951.

M.F. Guyard, La Littérature Comparée Paris 1957.

The. Nöldke, Neue Baitrage zur Semitischen Sprachwissen Schatt. Strassburg 1910.

فهرست الموضوعات